محمد مزالي

وجهات نظر...

الطبعة الثانية

الشركة التونسية للتوزيع

وجهات نظر...

المقدّمة

هـذا الكتـاب يحتـوى على كل الافتتاحيات المنشورة فى مجلـة « الفكر » من أكتوبر 1969 إلى جويلية 1974 ، وهو بذلـك امتـداد لكتاب « من وحى الفكر » الذى صدر سنة 1970 ، يعبر مثله عن آرائى من قضايا قومية وإنسانية ، ومسائل ثقافية أو تربويـة ، فرضتهـا الأحداث فرضا أو كشف عنها الواقع المتغير والمتطور كشفا ، فحاولت تحليلها وتقييمها وحددت موقفى منها بصدق ، رائدي الوفاء لما لم أزل أومن به من قيم روحية وأخلاقية وأنتسب له من مبادىء وطنية وأناضل فى سبيله من اختيارات ثقافية .

إنها وجهـات نظر ! لا أكثـر ولا أقـل ! وحسبـى أننى اجتهدت وصدعت برأيي . إن منتهى أملي هو أن أساهم فى تغذية الحوار الفكرى المتواصل بين كل من ينظر للثقافة نظرة جد ، ويحملها رسالة تكسب حياة الأفراد والمجتمعات معنى وتخلق أسباب الوئام والمحبة والسلم بين البشر .

إن رجل القلم يعتريه أحيانا ما يعترى رجل السياسة أو الاقتصاد او العلم فى جدوى عمله وتأثير نضاله وإشعاع إنتاجه . وقد يميل إلى مسايرة العدد أو يتواطأ مع الواقع الموروث أو المفروض . ولكنه ، اذا كان أصيلا ومحترما لنفسه ، يتقاوى على جاذبية الأرض ويرنـو إلى الأعلى ويتوق إلى الأفضل والأبقى .

إن المثقف الحق يعيش من أجل المبدإ ويصمد فى النضال لاعلاء ما يراه حقا وخيرا ، ويستمد طول النفس من الأمل الذى يغمر وجدانه والايمان الذى يملأ حياته .

وإن لكل مثقف ما سعى ...

افـريل 1975

إحياء التاريخ لبناء المستقبل

كانت الصائفة الفارطة زاخرة بالنشـاط الثقافـي بمختلف فروعه وشتى فنونه ، وتوالت المهرجانات الفنية والملتقيات الادبيةوالأيام الدراسيةفكأن الحرّ أصبح يوقظ الهمم ويلهم القرائح ويدفع الى العمل الصالح بعد أن كان فيما مضى باعثا على الفتور ومرغبا فى الراحة والاستجمام

وهذا مظهر جديد لعزيمة تـونس المستقلـة على طي المراحل وسباق الزمان فى سبيل تدارك ما فات والتهيؤ لما هو آت ، واللحـاق بركب الحضارة والخـروج من طور الاستهلاك والتفرج الى طور الإنتاج والفعل ·

وإنما بوحي من روح الأمة الحية المتجددة وبالاخلاص

الى آخص خصائصها تبعث الثقافة الأصيلة ويشع الفكر الحق ويكون للقوم منزلة مرموقة بين الأقوام ·

لذلك امتازت هذه الفترة التى نعيشها بالحرص على إحياء التاريخ وتعريف شبابنا بأسراره واستخلاص العبر منـــه ·

والى جانب مهرجان « يوغرطة » الذى جلى جوانب هامة من حيـــاة بلادنـــا فى القرنين الثاني والاول قبل المسيح وأفسح المجال مرة أخرى لأسا تذتنا وذوي الاختصاص من أبنائنا كي يسدوا الثغرات العميقة التى تركها المؤرخون الأجانب عند دراستهم تاريخنا أو ينصفوا هـــذا التاريخ ويخلّصوه مما آحاطه به بعض هؤلاء المؤرخين من تشويه ومسخ ، يحق لنا ــ الى جانب ذلك ــ أن نعتز ونبتهج ببعث مدينة رقّادة بعد أن رقدت وطواها النسيان منذ أكثر من ألف سنة ، وذلك بفضل عناية السيد رئيس الجمهوريـــة الشخصيـــة التى تمثلـــت بالخصـــوص فى الإذن باجـــــراء التنقيبات الضرورية والحفريات اللازمة لإحيـــاء عاصمة « بيت الحكمة » ومهد أحمد بن الجزار واسحاق بن عمران واسماعيل الطلاء ·· وغيرهم من أهل العلوم الرياضيـــة والطبية ·· وعبد الملك بن قطن الفهـــري وابن الـــوزان

والداروني من ذوي الاختصاص فى علوم اللغة والرواية والشعر •• والإذن ــ كذلك ــ ، بعد إحياء ما اندثر من معالمها ، بدعوة رجــال الثقافة والشعــراء الى التبــاري والبحث والدرس بحضور أهل الفكر وجمهور المثقفين في ربوعهــا •

بذلك نحيي تاريخنــا ونبعث أمجادنــا ونغــذي روح الاعتزاز بالانتساب الى هذا الوطن فى نفوس شبابنا •

وبذلك ــ أيضا ــ لا نكتفى بأن نردد :

تلك آثارنــا تدل علينــا فانظروا بعدنــا الى الآثــار

بل نهب هذه الآثــار الحيــاة وننطلق منهــا الى تكييف حاضرنــا وتخطيط مستقبلنــا ، ونقتبس من روعتهــا وجلالها لنفعل كما فعل أجدادنــا وأكثر ! ونجتهد كمــا اجتهدوا وأبعد !

لأن الشجرة المباركة لا تنتشر أغصانها فى الفضاء ولا تورق وتثمر الا اذا امتدت جذورها فى الأرض وارتوت من الماء الزلال الذى تزخر به الأعماق •

(1 أكتوبر 1969)

أساس الديمقراطية

يوم الأحد 2 نوفمبر ـ أي بعد أربع وعشرين ساعة من صدور هذا العدد ـ تقبل جماهير الشعب التونسي على الانتخابات الرئاسية والتشريعية ، وتمارس للمرة الرابعة منذ الاستقلال حقها الانتخابي فتجدد ثقتها لقائد جهاد هذه الأمة وباعث عزتها ومجدها ، وتبايع المناضلين الذين اختارهم الحزب الاشتراكي الدستوري وتحمّلهم مرة أخرى الأمانة المقدسة المتمثلة في خدمة الوطن وضمان مناعته والسير به نحو الازدهار والكرامة الحق .

واذا كانت عملية الانتخاب خطيرة في حد ذاتها ، تستجيب الى نداء الجماهير وتحقّق حلما من أحلامها منذ عهود الانحطاط وحكم البايات المطلق ، وتحمل في طياتها

شحنة عاطفية تأصلت على قدر الكبت الذي تراكم في عهد الاستعمار وزادتها تأجّجا دماء الشهداء الذين سقطوا وهم ينادون برلمانا ! برلمانا ! ، فان الأهم من مجرد الاقتراع هو وعي كافة المواطنين حقوقهم وواجباتهم والانسجام المتواصل مع مجتمعهم في زحفه نحو التقدم ، والمشاركة الايجابية في احدى وظائف المجموعة والمساهمة بالتالي في تجسيم المساواة أمام الواجب وبناء الديمقراطية الأصيلة التي لا تقنع بالمظاهر ولا تنخدع بالأوهام •

وهذا معناه أن الأهم لا يتمثل بالضرورة في تعدّد قائمات المترشحين الذين قد يتسابقون في تملّق العواطف وينحدرون الى حضيض المزايدات وهاوية الديماغوجية ، فتكون الديمقراطية شبحا لا حقيقة ، ومفسدة لا مدرسة للنهوض بالمواطن ، وتصبح الحرية مجرد قابلية للعبث والاستهتار بالمصلحة العليا ، أو قناعا للأنانية والاستثمار أو طريقا للفوضى وانتفاء العمران •

لذلك وجب ألا ينخدع الشباب الطموح بالأعراض دون الجوهر وأن يفهم أن الثورة البنّاءة المجدّدة للقيم غير التمرد الهدام وأن « المساهمة الوظائفية » في المجتمع النامي ، والنضال المنظم المترشد المسؤول ، ضمن الهياكل

والمؤسسات التي تقوم عليها الدولة ، أبعد أثرا وأجدى نفعا وأنبل مقصدا من الاحتجاج اللفظي والانطواء السلبي واليأس القاتل ٠

وعلى المثقفين كذلك أن يتجاوزوا الاعتبارات الشكلية والجدل العقيم ، فينطلقوا من واقعهم وحياة شعبهم لتقييم أمورهم وتحديد رسالتهم ومنزلتهم في مجتمعهم ، وان يحذروا من « النماذج » الاجنبية المستوردة في حكمهم على الأشياء ، وبذلك يكونون « مشاركين » لا « متفرجين » ، إيجابيين ، لا سلبيين ٠

فالديمقراطية بناء متواصل وعمل لا ينتهي ، والحرية إنجاز ذاتي ووعي وترشد ؛ والانتخاب تعهد وتذكير ؛ والانسان المواطن هو المسؤول في آخر الأمر عن نفسه وعن مجتمعه ، على قدر مستواه وسعيه لرفع مستواه وعلى قدر علوّ همته ورفعته الاخلاقية تكون الديمقراطية والحرية ويكون المجتمع المتحضّر ٠

(1 نوفمبر 1969)

لا وصاية على الأدب والأدباء

منذ ثلاثة وثلاثين عاما صاح الكاتب الاسباني « ميقال أونامونو » في وجه من كان يروم كبته وخنق صوته « إن ساعاتكم تسجل تأخيرا بالنسبة لعصرنا » ومنذ أسابيع توجه الكاتب الروسي **اسكندر** « **سولجينتسين** » بنفس العبارة للهيئة المديرة لاتحاد الكتاب بروسيا التي قرّرت رفته من هذه المنظمة بسبب « استغلال الاوساط البورجوازية مؤلفاته لأغراض دعائية مناهضة للبلاد » ·

في كل عصر ومصر ــ بل في كل جيل ــ يحاول الكتّاب الافذاذ ورجال الفكر الاحرار تنشيط مجتمعاتهم وتجديد قيمها · كما يحاولون إيقاظ ضمائر معاصريهم وحملهم على « تعديل ساعاتهم » حتى لا تتجاوزهم الاحداث

ويصيبهم الجمود • وكثيرا ما يثير هذا العمل المتمثل في الخلق الادبي والابداع الفني والتجديد الفكري حفيظة الناس ويجلب سخطهم لأنه يقلقل معتقداتهم وينغّص عليهم طمأنينتهم وقد يعبّر عن كسلهم وقصورهم وعجزهم • بل إن تاريخ الحضارات يكاد يكون انعكاسا لهذا التقابل بين الفكر الحر والمجتمع المحافظ ، بين قوى التقدم الحية وعناصر الرجعية المتجمّدة • وقد يكون « **كامو** » عبر عن هذه الحقيقة الدائمة عندما قال « **ان اتجاه تاريخ المستقبل لن يكون ما نعتقد أنه سيكون • إنه يتمثل في الصراع بين صولة الخلق وخنق حرية الفكر !** »

واذ نعرج اليوم على مأساة الكاتب الروسي « **سولجينتسين** » فليس قصدنا مجرد الاحتجاج والشماتة كما يفعل بعض « الاختصاصيين » ، بل الحث على الاعتبار والاستفادة من تجارب الغير •

فالكاتب اذا صدم معاصريه فى احد بلدان الغرب يستطيع رغم كل شيء ان يعيش ويستطيع بالخصوص ان ينشر مؤلفاته في احدى دور النشر ولو بصعوبة وبعد تجشّم أتعاب جسيمة • أما في روسيا وغالب البلدان الشيوعية وبعض بلدان العالم الثالث فان الكتاب منتسبون

وجوبــا الى اتحــاد يجمعهم و « يلم شتاتهــم !! » ويظل دائما مسؤولا عنهم و « مقدما عليهم » بحيث لا ينشر لهم ايّ مقال او كتاب ولا ينالون بالتابع أية مكافأة ماليــة إلا إذا استحسنه اتحاد الكتاب وارتآه منسجما مع أغراضــه وخادما « لمصالح النظام !! » ...

وما دامت « الكتابة » وظيفة اجتماعية وكان الكــاتب « متفرغا » لها ، يحصل على لقمة العيش بما يجود به قلمه وما دام اتحاد الكتاب هو « المصلحة » التى تقيّم إنتاجــه وتكافئه عليه فان الكاتب أصبح موظفا أسيرا مسخّــرا فاقدا ــ فى الواقع ــ لحريته واستقلاله ، عاجزا ــ بالتابع ــ عن الاضطلاع برسالته الاولى ألا وهي الخلق والتجديــد وعند الاقتضاء مصادمة الواقع والناس .

فهل يريــد الذين ينــادون ، بين حين وآخــر ، ببعث « اتحاد للكتاب التونسيين » على غرار ما يوجد في بعض البلدان المؤمنة بتوظيف الادباء وتسخيرهم واعتبارهــم منتجين ، مثل سواهم ، فى نطــاق مخططــات وبرامــج مضبوطة ؟ هل يريــدون تأميــم الادب وهل يشتاقــون الى رجوع عهد « جدانوف » من جديد ؟ وهل يعتقــدون انه يجوز ــ ويمكن ــ لهيئة متركبة من بعض « الزملاء »

أن تتكلم باسم جميع الأدبــاء والكتــاب و « تدافع » عن مصالحهم وبالأحرى تقيّم انتاجهم وتراقب نشاطهم ؟ !

عسى ان يتعظ هؤلاء ــ إن وجدوا ببلادنا ــ بما يجري حولهم فيكفّوا عن تقليد هياكل أثبتت تجارب نصف قرن تهافتهــا وعواقبهــا الوخيمــة على حرية الخلــق وكرامة الانســان .

(I ديسمبر 1969)

وجه طريف للتخلف الثقافي

انعقد في أوائل شهر ديسمبر المنصرم بالرباط مؤتمر علميّ نظمته بعض الهيآت الدولية وحضره جمع من الاختصاصيين الامميين في شؤون التغذية ، ودرس الوسائل الكيميائية والحياتيّة التي تستعملها الصناعة الحديثة لافراز مادة « البروتيين » بالاعتماد خاصة على الاسماك والمخلوقات البحرية ، ومضاعفة انتاجها وتكييفها لتمكين البشر من استهلاكها والتخفيف بذلك من وطأة الجوع الذي يهدّد الانسان بسبب تضخم التّزايد العمراني ٠

ذلك أنه يولد في الوقت الحاضر طفلان كل ثانية وأنه اذا بلغ عدد سكان العالم اليوم ثلاثة مليارات ونصفا بعد

مئات آلاف السنين من ظهور الحياة فإن هذا العدد سيتضاعف بعد ثلاثين سنة فقط ! حتى أنّ بعض علماء العمران والاقتصاد وصفوا هذا التّزايد في النسل بالانفجار واعتبروه نكبة وخطرا مهولا بينما هو فى الواقع ثمرة ذكاء الانسان وانتصاراته العلمية والطبية التي هزمت امراضا كثيرة كانت فيما مضى فتّاكة ، ونقّصت بالخصوص من نسبة وفيات الاطفال الصغار ·

على أن نسبة التّزايد في النسل أكبر بكثير في العالم الثالث منها في العالم المتقدم فمنذ سنة 1930 الى اليوم تقدّر الزيادة في اروبا بمائة مليون نسمة بينما هي بلغت في آسيا ما يقارب المليار ، ويتوقع أن تعد اروبا وأمريكا الشمالية وروسيا واليابان واستراليا جميعا مليارا ونصفا من السكان سنة 2000 بينما سيبلغ سكان افريقيا وآسيا وامريكا اللاطينية في آخر القرن خمسة مليارات ونصفا !

ولا شك أنّ هناك علاقة بين الفقر وتزايد النسل ، وارتباطا متينا بين الفقر ومستوى التربية الذي يؤثّر بدوره في تزايد النسل ! فهل قضى علينا نحن ابناء العالم الثالث ان نلاحق دائما هدفا ونحن نعلم مسبّقا ان منزلتنا

الاقتصادية ومستوانا الاجتماعي يحولان دون بلوغه ؛ وما هي مسؤولية العالم المتقدم في التغلب على هذه الازمة والخروج من هذه الدائرة المفرغة الفاجعة ؛ وما هي الوسائل الحاسمة للنجاح في معركة تهذيب النسل وتربية الجماهير بالخصوص للقضاء على خطر المجاعة الذي يهدّد الملايين من البشر ؟

هذا وجه للقضية ! إلا أن هناك وجها آخر يهمنا بالدرجة الاولى بوصفنا مثقفين ننتمي الى العالم الثالث •

ذلك ان الأبحاث العلمية الحديثة أقامت الدليل على ان نشاط العقل وحيوية « المادة الرمادية » مشروطان بتوفّر مادة « البروتيين » الموجودة في اللحوم والاسماك والبيض خاصة ، وهي أغذية لا يقدر عليها الفقراء ! كما بيّنت الاحصائيات أن أدمغة الاطفال المعوزين تنقصها نسبة عشرين في المائة من الخلايا !

ومعنى ذلك ان العالم المتخلّف اقتصاديا متخلّف عقليا فثقافيا !!

فهل يجب ، في مطلع السنة الجديدة ، ان نطالب رجال الفكر والثقافة في بلدان العالم الثالث ـ والعالم

العربي على الخصوص ـ بمزيد الانتاج والخلق والمساهمة في رفع مستوى شعوبهم وتكييف حضاراتهم أم هل يحسن ان نطلب لهم وللنّاشئين بوجه خاص مزيدا من « البروتينات » ولو كانت صناعية ومستخرجة من اعماق البحار او مشتقّات البترول ، على نحو ما أوصت به الندوة العالمية المختصة التي اجتمعت في الشهر الماضي ؟!

الكلمة لرجال الفكر .. بشرط أن يأخذوا مسبقا نصيبهم من « البروتيين » ! ..

(1 جانفي 1970)

الصهينة الفاشلة

من أبشع مظاهر الاستعمار الصهيوني في الاراضي الفلسطينية المحتلة وأفظع جرائمه ـ الى جانب استئصاله أبناء البلاد من وطنهم بالعنف ، والرمى بهم فى متاهات التشرّد والضياع ـ ما أقدم عليه « اخصائيّوه » منذ كارثة جوان 1967 من تغيير وتحريف للمناهج والكتب المدرسية وتبديل لمحتواها لعزل أبناء الخليل ونابلس والقدس ـ مثل ما أصيب به منذ 1948 اخوانهم المقيمون بيافا وحيفا وعكّا ـ عن تاريخ قومهم وتراث أمتهم ، ومسخهم مسخا ليسهل القضاء عليهم سياسيّا وهضمهم حضاريا •

فقد أصدرت سلطات الاحتلال في أوت 1967 أمرا عسكريّا يقضي بمنع استعمال 78 كتابا مدرسيا ، ثم أعادت

طبع 59 كتابا منها بعد ان حذفت عددا كبيرا من الآيات القرآنية والاحاديث النبويّة الداعية الى الجهاد أو المشيرة إلى اليهود ، وكل ما من شأنه ان يذكّر بالعروة الوثقى التي تجمع بين الشعوب العربية الاسلاميـــة ، وبعد ان أحلّت اسم اسرائيل محلّ فلسطين في كتب الجغرافيـا ؛ أما في أرض الإسراء والمعراج فإنها تجـاوزت هذا الحـدّ إذ هي عطّلت الدراسة بالمدرسة الشرعيّة داخل المسجد الاقصى ، وألغت النظام التعليمي العربي وفرضت النظام التعليميّ الخاص بعرب المنطقة المحتلة منذ 1948 ، وهي بذلك تأمل أن تيسّر عملية « تهويد » او بالأحرى « صهينة » الشباب الفلسطيني •

وان هــذا العمل الــذي يسلخ التلميـذ عن بيئتـــه ويستأصله من حضارته ليتنافى مع أبسط حقوق الإنسان ويناقض بالخصوص مبـادىء « اليونسكـو » التي حـثّ مؤتمرها العام المنعقد سنة 1956 جميع الدول على اتخـاذ اجراءات « لضمان احترام التربية في كل مكان للتقاليـد القوميّة والدينيّة واللغويّة للسكان ، وعدم تغيير طبيعتها لأسباب سياسية » •

ونحن في تـونس ـ التي عانت كشقيقاتها في المغـرب

العربي الكبير عملية التشويه الثقافي طيلـة عشـرات السنين ــ في الوقت الذي نعبّر فيه ــ بوصفنا مثقّفين ــ عن استنكارنا الشديد لهذا النوع الوضيع من العنف في ذات القيم الانسانية وندعو كافة رجال الفكر الأحرار فى العالم إلى التضامن الإيجابي من أجل إنقاذ الشعب الفلسطيني من «الصهينة» الثقافية ، وفضح هذه الاعمال التى لا تشرّف البشريّة ، لا يسعنا الا أن نؤكد من جديد أن شعبا يؤمن بنفسه ويستعذب الموت كي تكتب له الحياة الحقّ لن يفنى مهما جنّ جنون الاستعمـار لأنّ ارادة الشعـوب وطبيعـة الاشياء أقوى من جحافل التّجهيل وبطش القوة العمياء ٠

بل إن في المقاومة الفلسطينية المتنامية الشاملة المعبـرة عن ارادة الحياة ، الدليل على أن القـدر سيستجيب ، وأن المستقبل سيكون لفلسطين الحرّة ٠

ولتمعن اسرائيل في عدوانها وتحدّيها للضمير العالمي فهيهات أن تغيّر اتجاه التاريخ وهيهات أن تنهزم الروح أمام المادة ٠

(I فيفرى 1970)

شعور الطلبة بمسؤولياتهم

قد يقال إن أعمال الشغب التي تسبّب فيها عدد من « الطلبة » يومي 9 و10 فيفري المنصرم لا تعدو أن تكون تعبيرا عنيفا عن حيوية الشباب ومظهرا صريحا لأزمة المراهقة التي لا مندوحة عن مرور كل الاجيال منها ، وفرط طاقة حياتية لم تجد متنفّسا لها ، وقد يحمل هذا الاعتقاد بعضهم على التسلّي والتصبّر ٠

وقد يظنّ أنه من طبيعة الأشياء ومألوف الظواهر الاجتماعية والسياسية المعاصرة أن يعبر الطلبة عن مواقفهم السياسية سواء تضامنوا أو احتجّوا وتظاهروا من دون أن يقيموا وزنا لاي اعتبار آخر غير الثورة الجامحة والتمرّد المطلق على ما يرونه شرا وجورا او عبثا وجوديا ٠

والواقع أن هذا التعليل لا يخلو من الصحة وإن كان تحليله يقتضي تعمقا واستقصاء والماما بشتّى المعطيات

التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والنفسانية المتفاعلة وذات التأثير المتراكم المتضاعف .

إلا أننا مهما التمسنا الأعذار ووضعنا الامور في نصابها . كما قد يقال – لا يمكن ان نسكت عن الاعمال التى اقترفتها شرذمة من المنتسبين الى العلم والثقافة ركنت الى الترهيب والعنف ولم ترعو عن الكذب والبهتان للتأثير على سواد الطلبة وجرّهم لا الى الاضراب عن الدروس فحسب بل الى التطاول على النظام ومقوّماته المقدّسة بدعوى تأكيد تضامنهم مع شعب شقيق مكافح لم يتركوا لممثله الشرعي حتى حق الكلام أثناء اجتماع عام مرخّص فيه ، والحال أن الشعب التونسي والمسؤولين عنه لم ينفكّوا يؤكّدون مساندتهم الايجابية له .

ونحن الذين طالما ناضلنا من أجل الحرية – ولا نزال – نستنكر – باسم الحرية الحق والديمقراطية الواعية – تصرفات كل من يعبث بحرّيّة الناس ويكيل لهم الشّتم والسّب كيلا ويخنق أصواتهم ويكمّ أفواههم بدعوى « الحرية » – وهذا ما وقع بالذات وبالخصوص في الاجتماع العام المنعقد يوم الاثنين 9 فيفري ببورصة الشغل – ، مما يقيم الدليل على أن بعض الشبان مازالوا فى طور السفاهة لم يستشرفوا مستوى النضج والشّعور بالمسؤولية اللّذين لا يكون للحرية دلالة ولا جدوى من

دونهمـــا ! (*)

وان نظامنا الجمهوري الشعبي الذي يتشرّف بما أنجزه في ميدان التعليـــم وحقّقه من حيث تكـــافؤ الفرص حتى يبلغ الشباب أعلى المراتب العلمية مهما كان مستوى الأسرة الاقتصادي والاجتماعي والذي يحرص على تواصل الاجيال بتواصل النفس وتعزيز الثقة المتبادلة وتشجيع الحـــوار الخـــلّاق ــ ليربـــأ بشبابنـــا المتعلّم عن مواقـــف الطيـــش والانسياق مع فئة من المغامرين يسوؤهم ان تنجح تونس حيث أخفقت شعوب أخـــرى كثيرة سواء كانت غنيـــة أو متنامية ، ويحزّ في نفوسهم أن تدرأ عروة الوحدة القومية الوثقى عن هذه البلاد خطر التشتت والفوضـــى وبليـّــة الاحقاد والفتن •

فاذا ما صـــان طلبتنـــا ومحظ آمال وطننا أنفسهم من الصيادين في الماء العكر فانهم واجدون دائما في هـــــذا الشعب وفي المسؤولين الشرعيّين عنه كل التفهم والتفتح والتقدير ممـــا يساعدهم عـــلى دعـــم شخصيتهـــم وتكوينهم الكامل الصحيح وتأهيلهم الى الاضطلاع بمسؤولياتهم في بناء الأمة وحمل المشعل المقدس لإسعاد الوطن •

(1 مارس 1970)

(*) اقول هذا لاني اخذت على نفســـي ــ بوصفـــي وزيـــرا للتربيـــة القوميـــة حينذاك ــ السماح للطلبة بعقد اجتماعهم في هـــذه القاعـــة الكبرى والتعبير عن **آرائهم** ــ لاسبابهم ! ــ بكل حرية فخيّبوا ظني وصدقوا بعض زملائي الذين عارضوني منذ البداية • وهكذا يلتقي التطرّف مع التطرّف !!!

كيف نقاوم التخلف

توالت المؤتمرات والايام الدراسية منذ أشهر وتعاقبت التصريحات الرسمية والمحاضرات والمقالات في الجرائد والمجلات ·· تنذر بالخطر الذي يهدّد بفناء البشرية بسبب تلوث الهواء ويكاد يجمع العلماء ورجال السياسة والاعمال على ان هذا الخطر قد يكون أشدّ فتكا وأبعد أثرا من خطر القنابل الذرّية ·

فالجو الذي نعيش فيه والهواء الذي نتنفّسه والماء الذي نشربه والبحار والأنهار ·· كلها تتلوث وتفسد وتتراكم فيها عناصر الفناء نتيجة تكاثر وتكاثف دخان المحروقات الزيتيّة في الصناعة ونشاط محركات الطائرات والعربات المتزايد ، وتراكم المواد الكيمياويّة المبيدة للحشرات

والمستعملة بالخصوص في الزراعة العصرية ٠

فكأنّ التقدم العلمي والفني الذي هو عنوان فخر للانسان ودليل على سلطانه في هذه الدنيا أصبح العامل الفتّاك الذي يهدّد كيانه ، والشاهد العدل على عجزه وقصوره في السيطرة على اكتشافاته ومواجهة المضاعفات الناتجة عن غزوه للطبيعة وتسخيرها لرفاهيّته وسعادته ٠

فهل نحن أمام قدر محتوم وتطور مفروض ، ليس لنا قوة ولا حول للردّ على انتقام الطبيعة ومواجهة تحدّياتها ؟ لا نظن ذلك ! المسألة تهمّ الانسان اولا وتتّصل بضميره وقدرته على تبيّن الواجب والتمييز بين الخير والشر ٠

ان القضية أخلاقية قبل أن تكون فنّية او علمية او سياسية ٠ ولعله من الصواب قبل تحليل اسباب تلوّث الطبيعة ان ندرس تلوّث ضمير الانسان والتباس السّبل عليه وتغلب النفس الامارة بالسوء فيه وما يعانيه من هيمنة الأنانية وحب السيطرة والقهر والتكالب على الربح السريع والاغراق في الملذات والتماس الكسب الوافر دون الجهد الكافي ٠

وليست الحروب والاستعمار والعنصرية الا جوانب متعددة لظاهرة واحدة هي ان التقدم الاخلاقي لم يواز

الى اليوم التقدّم العلمي والتكنولوجي .

فهل نتنكّر للتقدم بعد هذا كما قد يفعل بعض المصابين « بحنين ساذج » الى الماضي ؟ وهل نتأسّف لما حقّقه الانسان من باهر الانجازات وروائع الاكتشافات ؟ لا نعتقد ذلك . لأن الانسان حقّق انتصارات كثيرة على نفسه وأصبح حظه من الكرامة أكبر من ذي قبل ، ولأنه قادر على تحدي واقعه وتجاوز ضعفه وبناء المعمورة الفاضلة التي يحلم بها ويتوق اليها .

ولا شك أنّ اختصار المراحل الى هذا الهدف وضمان أسباب النجاح يتمثّلان بالخصوص في التربية اذ هي التي تكيّف البشر منذ نعومة أظفارهم وهي التي تهديهم الى الخير والحق والجمال ، وهي التي تنشئهم على التحابب والتسامح والتآزر وتجعل منهم اخوانا .

وإذن فليست الحلول الفنية والعلمية والسياسية التي قد يستنبطها أهل الذّكر لمواجهة تلوّث الطبيعة هي الكفيلة وحدها بضمان حياة البشر وسعادتهم بل المشكل يتمثل في الاهتداء الى ماهية وأساليب التربية القويمة التى تصون الضمائر من التلوث وتزكّي النفوس من الأدران .

(1 أفريل 1970)

انتصار الانسان

ظلت الانسانية قاطبة ـ اذا استثنينا الصين الشيوعية ـ مشدودة الى مسار المركبة الفضائية « أبولو 13 » طيلة ما يقرب من أربعة أيام وهي تحاول الرجوع الى الارض سالمة بعد ما أصابها من عطب في جهازها الكهربائي ٠ وبينما تم انطلاقها يوم 13 أفريل في شبه لا مبالاة جماعية ناهيك ان الجماهير الامريكية احتجت لتغيير برامج التلفزة بسبب اقحامها وصفا مباشرا لعملية اقلاع أبولو 13 ، تضاعف الاهتمام وتوتّرت الاعصاب وبلغ التعاطف والشعور المأسوي الحدّ الاقصى منذ أن اكتشف الناس محنة رجال الفضاء الثلاثة وامتحانهم العسير تجاه الخوف والارتباك واليأس وتكالب العناصر الطبيعية

الجبارة عليهم • وعمّ جميع البشر الشعور بوحدة المصير والاشتراك المباشر في هذه المغامرة التي ظلت أياما تتأرجح بين المأساة والملحمة ، على نحو ما غمر الدنيا قاطبة في شهر جويلية 1969 يوم وطئت أقدام الانسان القمر لأول مرّة •

ومما ينعش حقا أن يشعر الجنس البشري من حين لآخر بما يجمعه ويوحده ويكسبه المجد والعظمة ، وليس السّر في ذلك مجرد العطف والشفقة على ثلاثة رجال في صراعهم مع الموت اذ لم يكد العالم يحرك ساكنا عندما قذفت طائرات اسرائيل مدرسة ابتدائية بمصر في نفس الفترة فقتلت عشرات الاطفال الابرياء ، ولم يتأثر الناس كثيرا لمحق مئات من الفيتناميين بكمبوديا في نفس الظّرف ولا حرّكوا ساكنا لما يقاسيه اخوانهم هنا وهناك من آلام التعذيب وقسوة السجون وفظاعة التقتيل •• انّما السّر في تبلور شعور التضامن في العالم بأسره مع الرّوّاد الثلاثة مرجعه طموح البشر الى تجاوز الذات وتحدّي الطبيعة والاستعداد المتواصل لدفع ثمن التقدم وغزو المستحيل •

وانه لشرف للانسان وعنوان عظمة أن يوجد دائما

متطوّعون ليغامروا ويواجهوا الموت في سبيـل المعرفـة والعلم ، ورجال لا يتصوّرون النصـر والنجـاح من دون جهد ومجاهدة ، ولا يرضون بالانتصار من دون مسابقـة ومنافسة وعرق جبين ٠

ولقد كان « لوفل » و « سويغر » و « هايز » مثالا منعشا في ضبط النفس وروح التعـاون والشجاعـة الأدبيـة والبدنية وكان العلماء والفنّيون بقاعدة « هوستون » في منتهى الروعة من حيث الدقّة وسرعة البديهة والسيطرة على الأعصاب ٠٠ وأقام الجميـع الدليـل على أن الآلات الالكترونية والأجهزة الفنية مهمـا تعـاظم دورهـا في عصرنا فإن الانسان هو القدير على تسخيرها واستغلالها وتجاوزها وأنه بذلك يمسك مصيره بيده ويكيّف وجوده بمحض إرادته ، وأنّ الغلبة للروح في آخر الأمر ٠

ومهما يكن من حجم التكاليف المالية وأهمّيـة الضحايـا والتضحيات البشرية فإن مغامرة « أبولو 13 » كالمغامرات التي سبقتها في كل الميادين ستبقى على ممر الايام درسا في الشجاعة ومثالا للتضامن البشري وآية لعظمة الإنسان ينال ما وراء العرش ويرجع الى الأرض سالما ، وهو يرنو دائما الى أعلى !

(1 ماي 1970)

التونسة وفاء للذات

لطالما ذكرنا بحقيقة المناعة بالنّسبة للامم وقلنا إن التطاول على أمة ما والطّمع في النيل منها يبدآن دائما بتشكيك أبنائها في أصالتهم وتشويه مقوماتها ومسخ روحها . فالاستعمار يحتلّ النفوس ويسمّم الارواح ويتقنّع بقناع العلم والموضوعيّة ليفاضل بين الحضارات قبل ان يحتلّ الأوطان ويدوس السّيادات ويهيمن على مصير الشعوب . لذلك لا تعنى الامم الحية بشيء كما تعنى بالحفاظ على كيانها الروحي وصيانة شخصيّتها الحضارية وتغذية أجيالها الصاعدة بروح القيم العليا التي تؤمن بها وتهتدي بهديها ، وهي قاعدة لا تشذ عنها سوى البلدان التي باعت نفسها للشيطان فآثرت السلبيّة والتبعيّة لأسباب تاريخية او لخيانة مثقّفيها وزيف سياسيّيها .

فنحن حين ننادي بتونسة برامج التعليم تونسة جدّيّة ونعتبر ذلك شرطا أساسيّا من شروط الأصالة القومية وضمانا لمناعة هذه الأمة ودرءا لعوامل الانحلال والتفسّخ والذوبان في الغير ، لا ننساق مع العاطفة ولا يحرّكنا تعصّب مقيت ، وانّما نؤكّد ضرورة حيويّة وقضية مصيرية ؛ اننا نريد ان تساهم البرامج التعليمية ـ أكثر مما هي تساهم الآن ـ في تأصيل الشباب في بيئته وتنشئته على محبّة الوطن والاعتزاز بالانتساب اليه والاستعداد للمساهمة في اعلاء شأنه وتطوير ثقافته وانماء تراثه والزيادة في إشعاعه لما فيه خير الإنسانية وتقدّم الحضارة •

على أنّ التّونسة ليست انغلاقا على النفس أو تنكّرا للقيم الإنسانية الخالدة أو تنازلا عن المستوى الرفيع الذي بلغه الفكر البشري في كل مجالات المعرفة ، انّما التّونسة مطلب من مطالب الإخلاص للذّات والوفاء للروح وهو سعي لا تكاد تشذّ عنه أمة تحترم نفسها ، والتّونسة إحياء واستيحاء للماضي ورهان على المستقبل ، فهي عملية أخلاقيّة انسانيّة لأنها تقتضي الاجتهاد والعزيمة وتنفي التّواكل وتمقت التطفل ، وتساهم ـ ايجابيا ـ بالتابع في احترام الشعوب بعضها لبعض ، لأنّ التّقدير المتبادل

والتّفاهم والسّلم والأخوة البشرية لا تضمنها ثقافة واحدة موحّدة مفضّلة تفرضها أمة قوية اقتصاديا أو علميا ، بل يساعد عليها ويهيىء أسبابها التنـوع والتميـز وحـوار المدنيّات بعضها مع بعض واستمداد بعضها من البعض ، على نحو ما ذهب اليه « **فاليرى** » (Valery) عندما قال : « **لنستمدّ ممّا يميّز بيننا ما يثرينا جميعا** » ٠

والدعوة للتفتّح ـ أي الانفتاح ؟ـ التي يتزعّمها بعض المثقّفين والأساتذة كلّما نودي بالاصالة او شرع في تحقيق أسبابها لا يكون لها معنى من دون تكامـل مع الشخصيـة القومية وحيطة من التلاشي والضياع الروحي ،وإلا كانت قناعا للاستعمار الثقافي وستارا للتبعيّـة او مغالطـة لا تنطلي على أي مخلص غيور ٠

ألا فليتمعّن رجال القلم وأصحاب الرأي في بلادنا في هذه الحقائق وليتحمّلـوا مسؤولياتهـم حتى لا يكونـوا كالطّفل الصغير او كالأعمى في مفترق الطرق ٠

(I جوان 1970)

واجب رجال التعليم

مهما أعدنا القول وأكدنا على ضرورة تونسة برامج التعليم والنضال من أجل ثقافة قومية لضمان مناعة الأمة ووقايتها من المسخ والتبعيّة ، فلن نوفي الموضوع حقّه ، لأن داء التفتّت والاضمحلال الذي يهدّد الكيان القومي ، كالسرطان ، يدبّ متسترا ، متقنعا ، فيغدر غدرا ، وكالأفيون يبلّد الحسّ ويسمّم الروح وهو يوهم بالقوة والنشوة التي تؤول الى الفناء ٠

وكما تسيطر الدول العظيمة ـ سواء في الشرق أو في الغرب ـ على الشعوب الاخرى، فتبسط نفوذها الاقتصادي والمالى ، فانها تسعى كذلك الى الهيمنة الفكرية والإشعاع الثقافي ، منتحلة برّاق الشعارات وزائف الغايات ٠٠

وبقدر ما يكون التعاون الدولي مثمرا وايجابيا لكل الأطراف عندما تكون للشعوب شخصية ثقافية ومفكرون وعلماء وفنّانون شاعرون بأصالتهم ، محافظون على طرافتهم وخصوصيّتهم ، واعون لحقيقة الحوار وما يقتضيه من أخذ وعطاء ويفرضه من احترام وتقدير متبادل ، فانه ينقلب الى عملية غزو وسطو عندما تضغط ثقافة الدولة القوية على ثقافات الشّعوب الأخرى بدعوى التمدن والمعاصرة وضرورات « الفنّ السامي » و « الثقافة الرّاقية » ...

على أن المسؤولية ــ فالذنب لا يقع دائما ــ والحقّ يقال ــ على الدول الكبرى بل كثيرا ما يحذّر أفذاذ المثقفين والمفكّرين فيها من مغبّة التّقليد الذي سرعان ما تقع فيه « النخبة » المنتسبة الى بلدان العالم الثالث ، فتدفن أمجاد تاريخها وتتنكّر لقيمها الأدبية وخصائصها الحضارية وترتدي ما تخيطه لها الايادي الأجنبية من أزياء لتظهر في مظهر التقدم و « الأناقة » الثقافية ! ولعل رئيس الجمهورية الفرنسية ــ وهو الكاتب والأديب المعروف ــ هو آخر من ذكر ــ منذ شهرين تقريبا وبمناسبة تدشين بناية جديدة لمنظمة اليونسكو بباريس ــ بأنه لا تفاضل بين الثقافات وأن التعاون الثقافي الدولي يجب الا يسمى

الى التوحيد بل عليه أن يشجع على التنوّع ومساعدة كل المدنيات على النمو حتى يثري بعضها بعضا ٠

فاحترامنا لأنفسنا وإيماننا بماهية التعاون البشري والحضارة الانسانية واستيعابنا لأبعاد معركتنا الفكرية وصراعنا من أجل الحياة الكريمة تفرض علينا جميعا أن نستقي من ينبوع حياة الأمة وروحها ونعتزّ بتراثنا ونرسّخ الوعي بجذور أصالتنا وعراقة وجودنا ٠

وليس كالتربية والتعليم سبيل الى خلق أجيال تونسية صميمة ولا تربية ولا تعليم أصيلين من دون برامج متونسة وتمسك بأقدس مقوّمات هذه الأمة ٠

فعسى أن يوفّق الأساتذة والمربّون ، العاملون منذ شهرين ضمن لجان مختصة ، الى اعادة النظر في مراكز اهتمام البرامج ، وإحكام توزيع المواد على مختلف سنوات درجات التّعليم الثلاث ـ وخاصة بالنسبة للغة العربية والتاريخ والجغرافية والتربية الدينية والمدنية واللغات الحية ٠٠٠ وأن يحسنوا اختيار النصوص على أساس الاعتدال بين الحرص على الأصالة القومية وضرورة التفتح على الدنيا ، وعسى أن يضبط مخطط واقعي

وتدريجيّ للتعريب يراعي الشروط الكفيلة بالحفاظ على المستوى ، بل يعمل على الرفع منه ٠

هذا رجاؤنا نتقدمه بمناسبة إصدار آخر عـدد للسنـة الخامسة عشرة لهذه المجلة التى ستواصل النضال من اجل أن تعود لهذه الامة روحها ٠

وهذا نداؤنا نتوجه به إلى رجال التعليم الذين لا نخالهم الا فى مستوى الرسالة المقدسة التي حملهم إياها تاريـخ تونس المعاصر فحملوها !

(1 جويلية 1970)

شغرة أبي دلامة

تستأنف مجلة « الفكر » نشاطها بعد عطلتها السنوية فتستهل سنتها السادسة عشرة بما عهده القرّاء فى أسرتها من عزم وطول نفس وانقطاع كلـيّ الى خدمـة الثقافـة التونسية والمساهمة في صنع الحضارة العربية ٠

وإن من أهم ما يستوقف رجل الفكر في مجـال الحيـاة الثقافية والنشاط التربوي خـلال الأسابيـع المنصرمـة انشغال السيد رئيس الجمهورية بقضية التاريخ القومـي وتأكيده على مزيد العناية بدرسه وتدريسه بوصفه عاملا من عوامل تركيز الشخصيّة القومية وتأصيل الشبـاب في بيئتهم وتعميق الشعور بانتسابهم الى أمة حيّة في صراع دائم من أجل البقاء والإشعاع ٠

من ذلك ما صرح به سيادته بالخصوص عند رجوعه من المنستير خلال شهر أوت الماضي اذ قال : « **قد يجد شبابنا من يوعز له بأن التاريخ عبارة عن خرافات فات وقتها ولم تعد صالحة لأن تستخلص منها العبرة بينما لا تكمل ثقافة الإنسان الا اذا أحاط خبرا بتاريخ بلاده ۰۰۰ وبمعرفة التاريخ يشعر المرء باعتزازه بالانتساب الى البلاد التي أنجبته ويتجنّب الوقوع في الاخطاء التي وقع فيها أسلافه ۰۰۰ مع نبذ كل أسباب الخذلان حتى لا نرجع لما كنا فيه وحتى لا يطمع فينا طامع ۰۰۰** » ۰

وإن هذه العناية السامية لتندرج فيما لم نزل ندعو له في سبيل ترسيخ الشخصية القومية ، وننادي به من وجوب تحوير برامج التعليم ومناهجه بحيث يضمن لشبابنا الأصالة والفتوّة ، ولثقافتنا الطرافة والازدهار ، ولأمتنا البقاء والمجد ۰

إلا أن الذي يجب ان يقال ويعرف هو أنه بالرغم من ان لجانا تشكلت مرات كثيرة في الماضي قصد تجسيم هذه الغاية النبيلة ــ وآخرها بعث في ربيع هذه السنة في مستوى التعليم العالي والثانوي والترّشيحي ــ فإن

صعوبات ـ نفسانيــة في أغلب الأحيــان ـكانت تحول دائما دون بلوغ القصد ٠

ذلك أن بعض الأساتذة والفنّيين التونسيين ـ بله الاجانب الذين يشاركون دائما في أشغال اللجان التعليميّة المختصة ـ لم يدرسوا تاريخنا دراسة قومية ولم يتفرغوا له ـ لأسباب تاريخية (!) هم غير مسؤولين عنها طبعا ! ـ بل إنهم حصلوا ما حصلوا من الشهائد والدرجات العلمية بفضل ما حذقوه من المسائل التاريخية على النحو وبالمحتوى الذي تدرس به في الخارج وعلى أساس محاور ومراكز اهتمام بعيدة كل البعد عن مشاغلنا وصراعنا من اجل الأصالة وتركيز الذّاتية ٠ ولئن كان أكثر هؤلاء الزملاء في مستوى علميّ وبيداغوجيّ مرضيّ للغاية فإنهم ـ من حيث لا يشعرون في غالب الأحيان ـ لا يتحمسون كثيرا للتخلي عما درسوه وتعودوا به وتوفرت لهم فيه كل المراجع الضرورية ، بل إنهم يقابلون سعينا بأنه ضرب من التعصّب وينادون بوجوب التفتّح والتمسّك بحبل الموضوعية والطرائق العلمية ٠

لذلك تراهم اذا ما دعوا إلى العمل ضمن لجان مختصة يعالجون الأمر بمنطق أبي دلامة ٠ فقد قيل إن شعرة

عوجاء نبتت فى لحية أبـي دلامـة فكان يقضي الساعات الطويلة في شدّهـا وجذبهـا حتى تستقيم فظلت عوجـاء فقالت له زوجته : ويحك، اقطع هذه الشعـرة وأرحنـا منها • فأجاب : ولكن المقص أعوج ! •••

فلا بد إذن من يوم يستقيم فيه « مقصّ » أبي دلامة ولا بد من يوم ـ قريب ان شاء الله ـ تنفذ فيه التوجيهـات السامية إلى عقول ـ وقلوب ـ هؤلاء الأساتـذة والفنّيّـين وإلى بعض الشبان المغرورين ، فتغيّر نظرتهـم وتثيـر حماسهم للثأر ممن دفنوا أمجـاد تاريخهـم ، كما تغيـرت نظرة التونسيين منذ ثلث قرن بفضل دعوة المجاهد الأكبر فأصبحوا يتحدّون الاستعمار منذ أن آمنوا بأنهم إذا أرادوا استجاب القدر ! ••• ولا بد مـن يوم يوفّق فيـه رعـاة التراث وحماة الضاد والغيورون على الأوطان الى استئصال « شعرة » الاستعمار الثقافيّ والتمهيد الى التفتـح الحـق والحوار المجدي بين الثقافات •

(١ اكتوبر 1970)

في التونسة والتعريب

إن حرصنا على أن يستوعب كافة التونسيين عامة ، ورجال الثقافة والمربّون خاصة ، أبعاد المعركة الفكرية من أجل الوجود الفردي والقومي الأكمل ، يملي علينا أن نميّز ـ عند الحديث عن وجوب إقامة نظام أصيل للتربية ـ بين التّونسة والتّعريب .

فالتّونسة تقتضي أن يهدف الهيكل الجديد لنظامنا التربوي الى تجسيم كل مقومات الأمة وغرس العقيدة الوطنية في نفس الشباب بحيث يؤمنون بأنهم ينتمون الى وطن له خصائصه الحضارية وله تاريخه وأمانيه فيعتزون بالانتساب إليه ويندمجون فيه ويستعذبون البذل والتضحية من أجل نصرته ومناعته وهذا لن يكون ما لم

يتم الاتفاق بين أهل الحل والعقد ورجال الفكر على محتوى هذه التونسة ، ومالم يتيسّر ضبط مقومات الأمة التونسية ومعرفة خصائصها ، وما لم يشيد سلم القيم الروحية والأخلاقية الذي به يكيّف الشباب أعمالهم ومنه يستوحون سلوكهم واتجاهاتهم ٠

ولا تنحصر التونسة كما يظن البعض في دروس التربية المدنية بل هي تقتضي أن يعاد النظر في كل المواد التعليمية والبرامج التثقيفية بحيث تصبح الروح والمقصد والمنزع والإطار التربوي ترمي كلها الى تأصيل الشباب في وطنهم من دون مبالغة أو تعصب ٠ وهذا صحيح بالخصوص بالنسبة لتدريس اللغة العربية والتاريخ والجغرافيا والفلسفة ، بل وحتى اللغات الاجنبية ٠ وعلى هذا المعنى ننادي بتونسة برامج اللغة العربية مع ما قد يوجد في هذا التعبير من غرابة في الظاهر ــ مع العلم بأن خطوة هامة تم إنجازها ابتداء من الموسم الدراسي الحالي ــ اى إننا نطالب بان تكون أغلب النصوص المختارة للتفسير والمطالعة منتخبة من كتب ودواوين تونسية ، تصور البيئة القومية وترسخ التلميذ في وسطه وتحبب اليه أهله وتدفعه الى الاعتزاز بقومه ــ على ما هم عليه من قوة وضعف ــ بل إنها قد تبعث فيه الحماس للمساهمة في تقدم بلاده سياسيا

أو علميا أو اجتماعيا ... أما الآن فإن التلميذ يتجاوز مرحلتي التعليم الابتدائي والثانوي وهو لا يكاد يجد في برامج اللغة والادب العربية ما يفيده بأن هذه البلاد أنجبت ، ولا تزال ، أفذاذا في الفقه وعلوم اللغة وفن القصة والشعر ، فيدخل الجامعة يتيما ثقافيا جائعا روحيا متلهفا إلى التهام كلما يرد عليه من الشرق أو الغرب فيعيش منبتّا ، مقطوعا من أصله ، رغم ما قد يحرزه من شهائد علمية ممتازة .

أما التعريب الذي هو مقوم من مقومات التونسة كالدين الإسلامي الحنيف فهو ضرورة حتمية ما دامت لغة البلاد التونسية هي العربية ولا بد من مجهود شجاع لتعريب مواد أساسية كالتاريخ والجغرافيا والفلسفة – التي كانت تدرس فروع كثيرة منها كالاخلاق وعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم التربية بالعربية في سنوات التطبيق بمدارس الترشيح وبالنسبة لذوي اللسانين أيضا ، في عهد الحماية ، وإدارة السيد لوسيان باي بصورة أدق – وحتى العلوم الطبيعية – التي كانت تدرس في بعض أقسام المدرسة الصادقية – إلى جانب مدارس الترشيح – في عهد السيد باي أيضا بله الخلدونية والشعب العصرية بالمعاهد الزيتونية – ... وذلك على مراحل معقولة وفي نطاق

سياسة قومية حازمة لتكوين الاطارات التونسيـة ، ومـا دامت دراسة اللغات الحية وخاصة اللغة الفرنسية واجبة حتى في الابتدائي ــ على أساس إنها لغة حية وحسب ــ فإنه من الممكن في أجل يمكـن تصـوره ، تدريـس العلـوم الصحيحة بالعربية على أن يتمكن الاساتذة والباحثون بما يكونون قد حذقوه من لغات حيـة من الاتصـال المباشـر والمستمر مع سير هذه العلوم في الخارج ومواكبة قافلـة الأمم المتقدمة في هذا الميدان ريثما يدخلـون في طـور الاكتشاف والانتاج ·

والخـلاصة أن التعريـب إذا اقتضت بعض المعطيـات التاريخية والبشرية والتربوية التمهل في تعميمه وشموله بالنسبة لبعض العلوم الصحيحة فانه لا يمكـن إذا كنـا مخلصين مع أنفسنا وبارين بوطننا أن نتردد في التونسة بل يتعين أن نحققها ونصبغ كل برامجنـا بروح منهـا في نطاق الجدوى والاعتدال ·

(I نوفمبر 1970)

تعليق على بيان حكومي

إن من دواعي ارتياحنا للبيان الذي ألقاه باسم الحكومة التونسية السيد. الوزير الاول أمام مجلس الامة يوم 17 نوفمبر المنصرم ، إلى جانب ما اتصف به من جد ووضوح وشجاعة أدبية في تشخيص الداء ووصف الدواء بالنسبة لكل قطاعات النشاط القومي وتوفيقه الى الملاءمة بين مقتضيات التنمية والازدهار وبين واجب العدالة الاجتماعية وضرورة الحرية الفردية والجماعية ، تأكيده في غير التباس على تونسة التعليم وحرصه على تمتين اللحمة العضوية بين الاجيال ، مما يضمن للأمة الحياة والاصالة والمناعة ، وكذلك تذكيره برسالة الجامعة ومنزلتها فى البلاد ، وأخيرا دعوته للتمسك بالاخلاق

وتمكين الشباب من « أن يحيوا حياة عصرهم » من دون أن يفقدوا روحهم ٠

ولئن اقتضى الحال ان يتوخى البيان الايجاز ويكتفي في أكثر الاحيان بالتلميح، فإنه لا يوجد فى رأينا التباس حول مقاصده التربوية التي هي فى الواقع « امتداد وتجدد » لما لم يزل أغلب المسؤولين يلتزمون به منذ الاستقلال ، ولما أقرته كل مؤتمرات الحزب بدون استثناء ٠

وإنما نشأ المشكل ، ثم استفحل ، من جراء التباين الذى أصبح الجميع يدركونه أكثر من ذي قبل بين التصريحات والوثائق الرسمية والبرامج النظرية المتعلقة بالتربية والشباب من جهة وبين نتائج سياسة التعليم منذ خمسة عشر عاما ، متقمصة في نوعية اجيال من طلاب العلم يتخرجون كل سنة من المعاهد الثانوية والعالية ، وملحوظة لا فى معلوماتهم الفنية والعلمية وقيمة شهاداتهم ــ فهذا مشكل آخر ــ بل في روحهم وقيمهم العليا ــ إن كانت ــ وأحاسيسهم الوطنية والانسانية وفى أذواقهم وتصورهم لرسالتهم ومنزلتهم في الوجود ٠

ولقد ظن البعض ان راحة الضمير تحصل بمجرد ترديد أغنية التنمية والتقدم ، واعتبار مشكل المشاكل ــ بوصفنا

بمنتمين الى العالم الثالث ــ هو الالتحاق بالركب ورفع المستوى المادي ، ثم تقليد العالم المتحضر في حياته الاجتماعية وشؤونه الثقافية ! وكانوا يقولون أو كان لسان حالهم يقول : ألسنا بشرا كغيرنا ؟ ألم نحرز على استقلالنا وكفى ؟ ألم يحن الوقت لنتطهر من مركباتنا ونتجاوز عقدة الاستعمار فنتخلص من الوطنية الضيقة والعصبية النكراء ؟ ألا يكفي الاحتفال الرسمي بالمواسم الدينية والقومية وبدء برامجنا الإذاعية بـ « ألا خلّدي يا دمانا الغوالي جهاد الوطن » ! ، وما يتيسّر من آيات الذكر الحكيم والاكثار من إذاعة أغاني « كوكب الشرق » السيدة أم كلثوم ــ وخاصة في شهر رمضان ــ ليقال عنا أننا لم نضيع روحنا واننا مسلمون وأننا لم نذب تماما في الغرب ؟؟ !

هذا موقف بعض « المتطورين » و « المتحررين » او « التقدميين » ... الذين اعتقدوا ان السماوات خصتهم برسالة في الثورية وبقدرة على تحقيق متطلبات التاريخ .. والذين لا تكاد تخلو منهم مصلحة ادارية او فنية او ثقافية ــ بل انظر الى العقلية السائدة في وسطنا السنمائي .. الفني ! ــ ولم تكد كذلك تحرم من أنوارهم مدرسة او كلية ــ وهو أدهى وأمر ! ــ لكن سلوك الشباب

فى العائلة والمجتمع والمدارس و « جروح » **الأمة في شتّى** المجالات وما أصبح يقاسيه الشعب من « نزيف » **روحي** بكل معاني الكلمة، وأزمة الجامعة المتعددة المظاهر المتزايدة الخطورة بمرور الاعوام ،و « الإنتاجيــة » السلبيــة لعدد كبير من الاطارات « الشابة » ... كل ذلــك حمل أغلب الناس اليوم على التفكير في الامر ، بل ان اولئك الذين ضربت في عقولهم وقلوبهم « سوســة » التنكــر للــذات والتلبس بشخصية الغير فخلطوا بين التقدم والمعــاصرة وبين التفريط في الذاتية وإهمال الأصالة ، اضطــروا هم أنفسهم الى مراجعة امرهم والإصغاء الى ... بقايــا ضمير قومي ، وأصداء كرامة وطنية آتية من الأعماق !

المسألة اذن هي ــ قبل كل شــيء ــ ان ندعــم إصــلاح التعليم الذي شرع فيه منذ أشهر ــ كما جــاء في البيــان الحكومي ــ فلا نكتفى بالعموميات الاكادمية والتوجيهــات البيداغوجية البدئية ونريح ضميرنا بالترديد السطحــي لشعارات التفتح والانسانية والشمول، بل ننفذ الى جوهر البرامج التعليمية بروح وطنية وعقلية جديدة جســورة وبقدر كبير من الخيال الخلاق والشجاعة الادبية ، فنكيّفها تكييفا جديــدا طريفــا بحيث تضمن تكويــن الاجيــال

الصاعدة التي تتصالح مع ضمير الأمة وتنتصر في معركتي المستوى والأصالة معا • وهذا لن يكون إلا بعد حوار تساهم فيه كل الاطراف التي لها قول فى تخطيط مصير تونس الحضارى •

واننا لنثق في كل المسؤولين ، وبالخصوص في السيد الوزير الاول ووزارة التربية القومية وكافة رجال التعليم ، لمواصلة وتدعيم هذا العمل التاريخي الذى يرتكز ـ أول ما يرتكز ـ على الإيمان بأن الأمة يجب ان تبقى ـ أولا وآخرا ـ الينبوع الأغزر والسند الارسخ والاطار الانسب والملاذ الأوحد والمرجع الفصل ، وأن ما عدا ذلك آوهام وأضغاث أحلام سوف تتبدد في مستقبل الأيام •

(1 ديسمبر 1970)

اتحاد الكتاب

وأخيرا بعث اتحاد الكتاب التونسيين في جو من الثقة والتفاؤل والحماس والرصانة ، استجابة لارادة الأغلبية الساحقة من رجال الفكر والأدب وتوقهم الى تصادي المشاعر والتآلف وسعيهم الى تقارب الآراء وتكامل الجهود، وأسوة بما هو موجود في أكثر دول العالم الحرة ، وخاصة في أقطار الشرق الأوسط وبعض بلدان المغرب الكبير الشقيقة •

ولئن سبق أن أبدينا فيما مضى بعض الاحترازات المعتدلة في خصوص مبدإ جمع الكتاب في اتحاد ، فإنما كان ذلك إشفاقا على كرامة صاحب القلم ودفاعا عن حريته وحقه المطلق في الخلق والابداع من دون رقابة مسلطة عليه ، إلا رقابة الضمير اليقظ ومقتضيات الفن الواعي

ومن دون وصاية مهما كان نوعها ، ولو كانت صادرة عن « تشكيلة من الزملاء » ، اتعاظا بما وقع في بعض البلاد من أوربا الشرقية وآسيا وأمريكا اللاطينية ، وبعض البلدان العربية المقلدة لها في عمى مؤسف وسطحية لا تغتفر ·

***

ولعل فيما اتسم به عمل المؤسسين العشرة من التأنّي والبطء الظاهرى لدليلا على الجد والعمق والحرص على اجتناب الارتجال واتقاء العثرات ، ثم ان ما دار من مناقشات بناءة أثناء الجلسة العامة التأسيسية التي انعقدت يوم الجمعة 4 ديسمبر 1970 وتواصلت ست ساعات لبرهان على الوضوح الذي يمكن اعتباره شعارا للكتاب التونسيين المتحدين وضمانا لنجاح مشروعهم ·

***

ويتجلى هذا الوضوح ، أولا وبالذات ، في المبادىء العامة التي التزم الاتحاد بالسير على هديها · ومن أهمها أنه « يحجر على نفسه اصدار أحكام باسمه على قيمة إنتاج أعضائه أو تبني تيار فكري أو أدبي معين » · ومعنى ذلك أن الفكر حر أساسا ، وأن مصادر الوحي ومقاصد الخلق وطرائق التعبير والتبليغ متعددة متنوعة ، وانه ليس لأي كان ، فردا أو جماعة ، أن يعتبر نفسه وصيا على

الكتاب ، قيّما على انتاجهم ، وأنه ليس في دنيا القلم المبدع نظرية رسمية ولا عصمة ، بل يجب ، في هذا الصدد ، أن يتشبّع الجميع بروح النسبيّة ويكونوا على قدر كبير من التواضع والتسامح والحياء ، وهي شروط دل استقراء أحوال المجتمعات ، ماضيا وحاضرا ، على أنه كلما وقع تجاوزها أو الزيغ عنها والتنكر لها باء الفكر بالفشل وتعطل الخلق الأدبي وتوالت النكسات الحضارية ٠

على أنه اذا كان الكاتب حرا فيما يخلق وينتج فإنه بوصفه مواطنا وإنسانا لا يمكنه أن يبقى مكتوف الأيدي إزاء ما يجري في الدنيا ، مغمض العينين أمام ما يعتري الافراد والمجتمعات فى كل مكان من علل وما يلحقهم من ضروب الاهانة والغبن ، ولا مبرر ــ أخلاقيا ــ لبقائه على الربوة متصامما عن نداء المعذبين في الأرض ، الساعين الى النور والعدالة ، المجاهدين فى سبيل الحرية والكرامة ؛ فهو حر ولكنه مسؤول ، لا يليق به أن يبقى في غفلة عن قضايا التقدم والسلم والازدهار وحماية مكاسب البشر في كل المجالات ، ومكافحة الاستعمار والميز العنصري واستغلال الانسان لأخيه الانسان ٠

ثم إن الكتاب الأصيلين بحق يساهمون في إثراء الثقافة القومية وبلورة الأصالة الوطنية ولكنهم لا ينغلقون على أنفسهم ، بل يؤمنون بتلاقح الثقافات والتقارب بين

الحضـــارات ، إنهم يتمسكـــون بخصوصيتهـــم وطرافتهـــم وينزعون في الوقت ذاته الى العموميـــة ، الى العالميـــة ، الى الإنسانية فى أوسع أبعادها وأشرف معانيها • فلا تعصب بغيضا ولا انطواء على النفس مقيتا أو انكماشا مميتا •

لذلك كله كان من مبادىء اتحاد الكتاب التونسييـــن أن « يلتزم استعمال ما لأعضائه من نفوذ أدبي ووزن شخصي في العالم لخدمة التفاهم البشري والاحترام المتبـــادل بين الشعوب » •

★★★

كما يتجلـــى الوضـــوح الذي حرص عليه الاتحـــاد منذ خطواته الاولى في الغايات الرئيسية التي رسمها لنفسه •
وفي مقدمة هذه الغايات « رعاية أعضائه والمنتسبيـــن اليه والتعريف بالانتاج التونسي والعمل على النهوض بـــه بكل وسائل النشر والترجمة والتوزيـــع والمساعـــدة على انجاز مشاريع الكتاب التونسيين الأدبية والفكرية داخـــل الجمهورية وخارجها • • • » • وإنه لعمل كبير وطويل اذا تجاوزنا العموميات ونفذنا الى صميم الواقع الفكـــري في بلادنا فحللناه وتفهمناه وحاولنا التأثير فيه •

ذلك أنأول مايستوقف المتأمل فى منزله الكاتبالتونسى هو انه يحيا كالطفيلي أو هو مهدد في حياتـــه الماديـــة اذا اقتصر على الكتابة • وإن أغلب الكتاب والأدباء في هـــذه

البلاد لا يمكنهم ولا يتصورون أنه يمكنهم أن يعيشوا بما ينتجون كما هي الحال في كل الدول المتقدمة ، وحتى في بعض الدول المتخلفة ؛ إنهم هواة يسرقون الوقت سرقة للتأمل والكتابة ، ويستمدون أسباب كيانهم ومابه قوامهم من خدمات أخرى لأن وظيفة الكتابة لم تفرض نفسها بعد •

وليس هذا قضاء مبرما وقدرا محتوما ، بل هو نتيجة قرون الانحطاط وآفة من آفات التخلف ؛ وفي الامكان التغلب على الداء ، كما تغلب الشعب التونسي على أمراض مزمنة كثيرة منذ أن أصبح حرا مستقلا ، بشرط أن يعم الوعي كافة المعنيين بالأمر وندرك جميعا كل العناصر السلبية فنشهر بها ونقاومها •

فالى جانب العوامل النفسانية والاجراءات الفنية والتجارية الصرفة التي من شأنها ان تفرض الكتاب التونسي في الداخل والخارج والى جانب الوسائل السمعية والبصرية التى يتعين استغلالها للتعريف بالانتاج التونسي وتشويق الناس الى الاقبال عليه ، لعله من الضروري أن نستأصل كل المركبات ونجتث كل النقائص من الأساس فنتصدى لبرامج التعليم ونعيد النظر فيها انطلاقا من مبدإ التونسة ونسعى الى تنشئة الاجيال الصاعدة على الشغف بالمطالعة وتحبيب المؤلفات التونسية، قديمها وحديثها ، الى نفوسهم ، ونكيّف برامج منظمات

الشباب بحيث تتمّم عمل المدرسة، ونستنبط صيغا متنوعة من التشجيع والإغراء لحمل رجال الغد على الانتاج والاقدام على مغامرة الكتابة في شتى الأغراض وبمختلف الأساليب ·

وانه في إمكان اتحاد الكتاب دراسة كل الملابسات التي تساعده على الترشد والثقة في النفس والاضطلاع بوظيفته في المجتمع وتقديم مقترحات الى كل من يهمهم الامر، وبذلك يساهم في التغلب على أكثر مشاكل الكتابة والتأليف استعصاء · فاذا ما عمت التوعية وعمقت وتمّ منذ سنوات التعليم الأولى التأثير على العقلية الموروثة بدت المشاكل الاخرى هيّنة الحل وتيسر الضغط على تكاليف الورق والطباعة وتطورت المطابع وأمكنت السيطرة على التوزيع وتحقق التوازن في تنشيط مختلف القطاعات الثقافية وتوفرت الامكانيّات والموارد المتماشية مع كرامة الكاتب المراعية لحرمة الفكر، المكافئة لمعاناة الخلق وآلامه مكافأة عادلة على أنه لا يمكن أن نتسلى عن مصاعب العاجل أو فواته بانتظار الآجل، بل يجب التصدي الى العراقيل التى تقف اليوم حجر عثرة فى طريق الكتاب والأدباء والمساهمة في إزاحتها أو مداورتها واجتناب مضاعفاتها وذلك بالدرس والتمحيص والتشاور والتعاون الايجابي النزيه مع كافة الجهات الرسمية وغير الرسمية التى يهمها الامر ·

ومن غايات الاتحاد « تشجيع الكتاب الشبان على إبراز طاقات الابداع فيهم ومساعدتهم على نشر إنتاجهم وترويجه » وفي هذا الصدد يحسن رفع ما قد يحصل من التباس وينشأ من صعوبات لأن بعض الكتاب « الكبار » قد يتمسكون بمبدإ المساواة او « يتجزوتون » بدعوى ان الكاتب اذا استحق هذا اللقب ودخل عائلة الاتحاد من بابها الكبير فمعنى ذلك أنه غير محتاج الى معاملة خاصة قد تؤول الى نوع من المحظوظية ! وقد يتحرج الأدباء الشبان أنفسهم ويرون في هذه العناية ضربا من « الأبوة » الثقيلة التي قد يشتم منها رائحة الوصاية أو مركب الاستعلاء !

وإلى أولئك وهؤلاء نقول إن الاتحاد أحسن صنعا عندما نص في قانونه الأساسي على عنايته بالأدباء الشبان إذ هو بذلك رسم لنفسه اتجاها وأكد اختيارا وراهن على المستقبل ٠

ذلك أن الهيآت التي تسير المؤسسات الثقافية ، بالرغم عن كونها منتخبة أحيانا معرضة في معاملة « الجديد » في تقييمه الى ما يعتريها من انحياز وتعاطف بحكم ما نشأت عليه وتعودت به ، غير « مستعدة » من الوجهة النفسانية الى مراجعة المقاييس « المعروفة » واستبدال القيم الجمالية والتقنيات الأدبية « المتفق عليها » والمعتمدة

في الجامعات والمعاهد العليا والاكاديميات وكثيرا ما نشأت الخصومات الادبية بين مختلف الاجيال وحدثت القطيعة وما ينجر عنها من تبدد الطاقات وضياع المواهب وتشتت الجهود وتأصل الضغائن ·

ولما كانت سنّة الفكر أن يكون دائما خلّاقا فاتحا ، مفجّرا ينابيع الاحساس بالجمال والحق والعدل ، سابرا دوما لأعماق النفس والعقل ، نزّاعا الى المطلق ، فإن الموقف الذكيّ والعادل يقتضي ان نتمسك بالتواضع إزاء الجديد فلا نقاومه مبدئيا ولا نعطيه كذلك من القيمة ما ليس له بل نتحسس أوجه الجمال فيه ونسلط أضواء النقد النزيه عليه ونوفر له – على كل حال – أسباب الظهور وإثبات الوجود · وبذلك يكون الحوار والتفاعل والتكامل وتتوطد صلة الرحم بين مختلف أجيال الكتاب · فالعناية بالأدباء الشبان تعني بالخصوص تلقيح الاتحاد ضد داء التحجر والانغلاق على النفس و « لعن المستقبل » ، وتعني وقاية النهضة الأدبية المرتجاة من تنازع الاجيال وحرب طبقات الأدباء ·

ومن الغايات أيضا « ربط علاقات صداقة وتعاون بين الاتحاد وبين الجمعيات الثقافية المماثلة في سائر الاقطار » إذ لا بد من ربط الصلة مع الكتاب في كافة الدول الشقيقة والصديقة وخاصة منها دول حوض البحر المتوسط

والبلدان الافريقية والسعي الى مزيد التعارف وتنسيق التعاون والتمعن في القضايا المشتركة والتعرّف على منزلة الكاتب حيثما كان والكفاح من أجل اضطلاعه بمسؤولياته كاملة وتكتيل الجهود لنصرة إخواننا حملة الاقلام المضطهدين في فلسطين وكافة الاقطار التي تعاني ويلات الاستعمار والميز العنصري ، والتضامن الايجابي مع قضاياهم العادلة •

وطبيعي ان تحتل العلاقات بين الكتاب التونسيين والكتاب العرب مرتبة ممتازة في مشاغل الاتحاد لأن الواجب يملي عليهم أكثر من أي وقت مضى ، دعم الوحدة الحضارية والثقافية التي تجمع بين شعوبهم وداعي الضمير يدعوهم الى المساهمة في خلق المواطن العربي الجديد الذى يستطيع أن يواجه تحديات العصر ويحقق أسباب المناعة والثبات إزاء ما يتهدد العالم العربى من عوامل التأخر والتلاشي؛ وانما يشعر الكتاب ــ والمثقفون العرب عامة ــ بدورهم التاريخي بفضل مزيد التعارف والتعاون وتكتيل الجهود والطاقات •

وفي هذا السياق يندرج التعاون الوثيق بين اتحادات كتاب بلدان المغرب العربي الكبير ويكتسي صبغة التأكد المطلق والضرورة القصوى • وإذا سلمنا بما يربطنا من وشائج قربى وأواصر أخوة عمّقتها القرون ودعّمها

الكفاح المشترك وما يجمعنا من عزيمة متبادلة على بناء المستقبل المشترك وجب أن يهيىء رجال الفكر في كافة بلدان هذا الشمال الجو النفساني ويمهدوا الطريق الى التقدير المتبادل والمحبة الخالصة ويتبينوا جذور الاصالة المغربية ويعملوا على تنميتها وإشاعتها من خلال ما يقولون ويكتبون • ولا يتأتى ذلك الا اذا أصبحوا كأفراد العائلة الواحدة تعارفا وتعاونا وتيسّر للانتاج الادبي أن ينشر ويذاع ويضمن له الرواج على نطاق أفقي لا عمودي كما هو الشأن الى حد الآن • ويا حبذا لو بعثت رابطة كتاب المغرب العربي الكبير ونسقت العمل لتجسيم مطلب من أعز مطالب شعوبنا •

واذا ما سارَ الاتحاد على ضوء تلك المبادىء ووفق في تحقيق ما التزمه من الغايات واهتدى دائما الى وضوح الرؤية في ضباب الملابسات الظرفية والمشاكل الجزئية فتسامى عن الأعراض وتمسك بالجوهر وألف بين القلوب يكون بعثه حدثا قوميا ذا بال ومنعرجا في تاريخ الأدب والثقافة بهذه الديار •

ومهما يكن فنحن نرحب باتحاد الكتاب ونرجو له التوفيق والسداد •

(I جانفي I97I)

الالتباس الكبير
أو ما أبعد ما بين الكأس والشفاه

خصصت مجلة « اسبري » الفرنسية عددا ممتازا (جويلية ـ آوت 1970) لبحث التعاون الثقافي بين البلدان المتطورة وبلدان العالم الثالث عامة ، وبين فرنسا والبلدان التي تستعمل اللغة الفرنسية خاصة ، والنظر في آفاق هذا التعاون ودرس مشاكله من كل وجوهها واعتمدت في ذلك بالخصوص على رأي عدد كبير من الاساتذة الفرنسيين المتعاقدين مع بلدان المغرب العربي الكبير وافريقيا السوداء ٠

وتساءلت المجلة في افتتاحيتها هل ان التعاون الثقافي عمل انساني صرف تقوم به الدولة المتقدمة لوجه الله ولمجرد المبدإ ، أم هل هو واسطة لاسترجاع المكاسب والامتيازات التي اضطرت الى التخلي عنها والتفريط فيها ؟

وقالت في صراحة وصدق : ألسنا اليوم بإزاء استعمار جديد تقوم في ظلـه رؤوس الامـوال والهياكـل مقـام المعمرين والجنـود والمبشريـن ، وهل اصبح المدرسـون الفرنسيون من دون أن يشعروا أدوات لهذا الاستعمـار مغفلين ؟ وأضافت : ألا تستفيد فرنسا من هذا التعاون أكثر مما تفيد به البلدان المتخلفة بمـا تحكم وثوقـه من الروابط الاقتصادية وما تفرضه من التبعيـة الثقافيـة والادارية ؟ أليس هذا التعاون في بعض الاحيـان قناعـا تنشط وراءه جماعات من المحظوظين والرجعييـن بحيث يستفحل داء التخلف مع مـرور الايـام عـوض ان تخف وطأته ؟ .

ولئن استنتجت المجلة من هذه التساؤلات الخطيرة العبرة فيما يتعلق بفرنسا اذ نادت بوجوب تطهيـر التعـاون من شوائب الهيمنة وداء المفاضلـة بين الثقافـات واكـدت ضرورة اعادة النظر فى النظام الاجتماعـي الفرنسـي والثقافة الفرنسية نفسهـا ، على أسـاس أن التعـاون الثقافي يجب أولا ان يعين فرنسـا على معرفـة ذاتهـا واكتشاف نفسها من جديد والظفر بحقيقتها .. فانه لا بد من التصدي الى بعض الآراء التى تسـود ـ لا أقـول فلسفة التعاون في حد ذاتها كما تريدها الحكومات المعنية ، اذ ان بعض الظن إثم !! .. ـ بل الآراء التي يحملها أو يبثها عدد من الاساتذة او المثقفيـن العامليـن بوطننـا

والذين يكيفون بحكم طبيعة برامج التعليم التونسي بدرجاته الثلاث عقلية شبابنا ويغذون شخصيته بدون انقطاع ويسلكون سلوكا لا يمكن الا ان يتأثر به فتياننا وفتياتنا في المعاهد الثانوية بالخصوص وكذلك في مختلف الكليات بوصفه نموذجا ثقافيا ونمطا حضاريا ·

***

على انه يجدر بنا ان نعرف هل ان حاجة بلادنا الى هؤلاء الاجانب فى نقصان أم هي فى زيادة ! اذ لو كانت في تناقص منذ الاستقلال الى اليوم لهان الأمر ولقلنا انها الحاجة الوقتية الملحة والتضحية المادية والمعنوية الضرورية التي لا بد منها للاكتفاء الذاتى وضمان عملية « الاقلاع » الثقافي في أوجز الآجال وبأدنى التكاليف ؛ ولو كان الامر كذلك أيضا لحمدنا هذا التعاون الذي هو في الواقع إعانة لا غير لأنه لم نعلم أن أساتذة أو مرشدين بيداغوجيين تونسيين انتدبتهم فرنسا ليساهموا في تلاقح الثقافتين العربية والفرنسية ويعلّموا القوم هناك كيف يقدّرون القيم التونسية ويتعرفون الى الحضارة التونسية أو من باب أولى وأحرى يلقنونهم اللغة العربية أو تاريخ هذه البلاد ···

إن الرجوع الى الارقام يفيد أن هذه الاعانة فى تزايد مطّرد وأنه لا تكاد تسجل أية خطوة في طريق الاكتفاء

الذاتي رغم مرور خمسة عشر عاما على الاستقلال •
فالوثائق الرسمية التي تضمنها تقرير مجلس الأمة حول ميزانية التربية القومية لسنة 1970 ــ 1971 تفيد بأن عدد الاساتذة الاجانب العاملين في التعليم الثانوي سنة 1965 كان 1278 فأصبح 2850 سنة 1970 أي بزيادة 1572 أستاذا • فاذا نظرنا في نسبة هؤلاء الاجانب بالرجوع الى عدد المربين التونسيين في التعليم الثانوي وجدناها سنة 1965 تساوي 37% وفي 1970 تعادل 40% أي بزيادة 3% ! وهذا بالرغم عن انه تقرر هذا العام التنقيص من عدد ساعات جميع المواد وخاصة ما هو في عهدة هؤلاء الاجانب (اللغة الفرنسية واللغات الحية عامة ، والعلوم الرياضية والطبيعية في الاقسام النهائية للشعبة الأدبية خاصة ••) • أما في التعليم العالي فإن الاساتذة الاجانب كانوا ــ سنة 1962 ــ 64 منهم 56 فرنسيون فأصبحوا سنة 1971 ــ 273 منهم 249 فرنسيون وكانت نسبة هؤلاء الاساتذة الضيوف 45% في سنة 1962 فاصبحت 47% هذه السنة أي بزيادة 2% ! (*)

(*) من الواجب أن نذكر في هذا المقام ان وزارة التربية القومية اعدت سنة 1972 برنامجا مضبوطا في الزمان وبالارقام لتحقيق تونسة الاطار التعليمي في الثانوي وذلك بالاتفاق مع الطرف الفرنسي . كما ظهر وعي جديد لتكوين الاساتذة التونسيين في اللغة الفرنسية والانقليزية والعلوم الصحيحة والشعب التفنية •

لا شك ان السبب الاول لهذه الظاهرة راجع الى شمول التعليم وديمقراطيته وهو اختيار قومي نعتز به ونتحمل تبعاته من دون أن يكون للغير مسؤولية فيه ، ولا شك كذلك أن مهنة التعليم لا يقبل عليها الشباب التونسي إقباله على الحقوق والطب أو أنواع الدراسات الاخري التي يضمن النجاح فيها دخلا أوفر ومنزلة اجتماعية أرفع . نعم ، إني أعلم كل ذلك وأعلم أيضا أن ميزانية الدولة تنفق على الأساتذة الاجانب هذا العام أكثر من ثمانية ملايين من الدنانير ! لكني اتساءل هل يجيء يوم ، اذا ما استمرت هذه الحال وبقينا على فهمنا الحاضر لاختياراتنا التربوية وخاصة منها تصورنا لديمقراطية التعليم ، يمكن أن نستغني فيه عن هؤلاء الضيوف وخاصة بالنسبة للتعليم الثانوى والتعليم العالي ؟ إني أتساءل هل نحن فى طريق الاكتفاء الذاتي أم هل تتزايد مع الايام حاجتنا للغير ؟ فننحدر أكثر فأكثر في هوة التبعيّة ؟

قال الفيلسوف الصيني « كوان تزو » Kuan Tzu في القرن السادس قبل الميلاد : « **اذا وهبت شخصا سمكة مكنته من غذاء يوم أما اذا أنت علمته الصيد فانك ضمنت له الغذاء مدى الحياة !** » وهنا يكمن الفرق بين التعاون الحقيقي ومجرد الاعانة التي قد يقصد منها إبقاء المتمتع (؟) بها في حالة احتياج دائم ، مسلطة عليه عصا

سيدنا سليمان أو مشهورا في وجهه سيف « داموكلاس » كما يقال بالفرنسية ! ولا يفهمن أحد أننا نوجه اللوم الى الدول التي تعيننا مشكورة ، بل إن الامر أمرنا ، والشأن يدعونا الى أن نستخلص العبرة — في ميدان التعليم والثقافة ايضا — من تجربة خمسة عشر عاما ! فنواجع اختياراتنا ومناهجنا وتصورنا للكيف والكم ونسلك طريقة ثورية لتقرير مصيرنا الثقافي والحضاري كما قررنا مصيرنا السياسي ونقرر مصيرنا الاقتصادي ولو بعد وقفة (بل وثبة) تأمل ٠٠ !

★★★

وما دام واقع التعليم على ما هو عليه واستمر عدد الأساتذة الاجانب في ازدياد مطّرد مما يؤكد استمرار الوضع الحالي عشرات السنين الاخرى ، وجب ان نرجع الى بعض ما احتواه عدد مجلة (اسبرى) الخاص من ملحوظات وما كشف عنه من عقليات بعض أعوان هذه الاعانة الثقافية ٠

وأول ما يستوقفك في هذا الصدد هو أن عددا من « أعوان التعاون » بتونس يعترفون بأن البرامج التعليمية عندنا تكاد تكون نسخة مطابقة للأصل الفرنسي ويؤكدون أن ثقة التونسيين في التعليم الفرنسي تكاد تكون لا حد لها ويضيفون قولهم : « **الواقع أننا نقدم**

للتلامذة التونسيين ـ شعرنا بذلك أم لم نشعر ـ مثلا أعلى « بورجوازيا » ونمطا غربيّا ينتمي الى مجتمع الاستهلاك الذي ننتسب اليه ، مما يورث هؤلاء التلامذة شعور الحرمان وكثيرا ما يؤول بهم الشوق لاثبات شخصيتهم الى تقليدنا كالقردة ومن هنا يبدو التناقض اذ نحن نقدّم لهم قيما « غربيّة » غريبة عنهم فى الوقت الذي ندّعي فيه إعانتهم على اكتشاف قوميتهم التونسية ! » ٠

وهم بذلك يذكروننا بحقيقة بسيطة وهي ان التعليم تربية قبل كل شيء ، وانه ، الى جانب تلقين الناشئة العلوم والمعارف ، فلسفة للحياة وتقييم للوجود وهو ترسيخ في التاريخ بقدر ما هو تفتح على المستقبل ، وهو تعميق للذات الفردية ووفاء للتراث الجماعي وتأصيل في البيئة القومية بقدر ما هو حوار وتعايش وإثراء متبادل٠

وقد يحتج بعض الذين يأبون الا ان يشيبوا على ما شبّوا عليه بأن هذا التعليم الاجنبي الذي كان قبل الاستقلال فرنسيا روحا ومحتوى ولغة لم يكوّن فرنسيين بل تونسيين أصيلين أبلوا البلاء الحسن وخدموا بلادهم ولا يزالون ! ولو فرضنا ان هذا يصح على كل التونسيين الذين فازوا بنعمة هذا التعليم ـ وهو أمر أبعد ما يكون عن الواقع ، اذ كم تونسي اندمج عقلا وروحا بل وتجنس

باطنيا اذا هو لم يتجنس قانونيا وكم تونسي لا يزال الى اليوم كأنه في دار غربة بهذه البلاد اذا هو لم يغادرها بالفعل ! ٠٠ ، فان الذي كان يقينا من الفرنسة ويحمينا من المسخ الروحي والعاطفي هو « رد الفعل » التلقائي والعنيف أحيانا إزاء النظام الاستعماري الذي كان قائما في أبشع مظهر وأوقحه والذي دفع أجيالنا السابقة الى ان تلوذ بلغتها ودينها وتعتزّ بأمجادها وتتعصب لتقاليدها حتى ان الرئيس الحبيب بورقيبة محرر المرأة غداة الاستقلال تمسك بالحجاب في العشرينات واعتبر التخلي عنه قضاء على شخصية هذه البلاد ٠ أما اليوم !! ٠٠ فقد تخلصنا من مركباتنا والحمد لله ! وتجاوزنا كل العقد وانفصمت كل العرى ـ على ما يظهر ـ حتى انه قد يبدو للبعض انه لم يعد شيء يشدنا الى أنفسنا ويبقي على تماسكنا من الوجهة الثقافية ، بل إنها مجاري الهواء ونزاع الأهواء ٠٠

★★★

ثم ان مفهوم التعاون الثقافي لا يزال غامضا أو لازما لمعتقدات المدرسين الضيوف ونظرتهم للوجود ٠ ولعل أكرمهم نفسا وأشدهم تسامحا يعتبرونه طريقا الى دمج الثقافتين الوطنية والفرنسية وتجاوزا لهما ، وبحثا عن ثقافة جديدة واستشرافا لإنسانية صميمة تذوب فيها الفوارق الشخصية وتمحى المميزات القومية ٠

وحتى لا ندع الذين يرومون اغتيال الثقافات القومية التى لا تقل طرافة وغزارة وأصالة عن الثقافات الاوروبية يتمتعون براحة الضمير ويتعتعهم الشعور بأنهم يعملون من أجل القيم العليا ويسيرون مع التاريخ نقول لهم انه يجب التمييز بين ازدواجية اللغة وثنائية الثقافة ، وانه إذا كانت بلادنا في حاجة كغيرها من البلدان المتقدمة والمتخلفة على السواء الى لغة بل الى لغات آجنبية للاتصال بالعالم والحياة مع العصر والحوار مع البشر ، كل البشر ، فإن أبسط معاني الوفاء للفكر والاخلاص للانسان تقضي بأن تحافظ كل أمة على ثقافتها وتحرص على تنميتها وتغار على طرافتها من دون ان يتنافى ذلك مع الاتصال والتلاقح والاقتباس والتقدير المتبادل ، فان التعاون بين الحضارات لا يكون الا بقاعدة : الأخذ على قدر العطاء ، وعلى أساس ان تستمد هذه الحضارات مما يميز بعضها عن بعض ما يثري بعضها البعض .

* * *

ومعنى آخر ظهر من خلال أجوبة بعض أعوان التعاون على استفتاء المجلة الفرنسية هو ان التعريب ضرب من ضروب مناهضة الغرب والتعصب للعروبة وهو رجوع للوراء وسبب من أسباب التأخر ، وهو رأي غريب يدل

على أن عملا كبيرا يجب القيام به فى أوروبا ذاتها لتطهير العقليات مما لا يزال عالقا بها منذ الحروب الصليبية وتخليص النفوس من شوائب عهود الاستعمار البغيضة • وهي مسؤولية مشتركة بيننا وبينهم والحق يقال • إنّ عليهم أن يراجعوا برامجهم التعليمية على نحو ما تدعو له منظمة اليونسكو وينادي به عدد كبير من عقلائهم وذوي النظرة البعيدة من مفكريهم ، فيعيدوا رأيهم في ثقافتهم ويعدلوا عن اعتبارها « لا سواحل لها » ويجعلوا تقدير القيم المتبادل ديدنهم ؛ ونظرية النسبية في المكان والزمان قاعدتهم • وإن علينا أن نتعلم كيف نحترم أنفسنا ونعتز بلغتنا ونقيم الدليل ولو بعد فترة تجريبية صعبة على أن اللغة العربية لا تتنافى مع المستوى والتسامح والتعاون وحذق اللغات الاخرى وانها يمكن أن تكون أداة تقدم ورقيّ شأنها شأن اللغات الصينية واليابانية والعبرية وغيرها من اللغات التى تخلف الناطقون بها ردحا من الزمن ثم ما لبثوا ان التحقوا بالركب بفضل مضاء عزيمتهم وشدة ثقتهم في أنفسهم •

***

على أن أدهى الآراء التي استوقفتنا في هذه المجلة هو ما صرح به بعضهم بكل بساطة من أنهم يفهمون التعاون على

أنه رسالة سياسية تقدمية ! إنهم اليساريون الذين جاؤوا كالمهديّ المنتظر ليغيّروا مجتمعنا ويملؤوه عدلا كما ملىء جورا ! إنهم ينسون أحيانا ــ كما لا حظ ذلك من باب الاستنكار في العدد نفسه فرانسيس ديكورسيار وهو استاذ فرنسي يعمل بتونس منذ سنوات طويلة وميشال ليلون وهو من الآباء البيض المقيمين ببلادنا ــ احترام الاختيارات السياسية والاقتصادية والثقافية للبلد الاجنبي الذي يعملون به ويأبون الا « المساهمة » في تحريره ؛ لان التعاون المحايد تدعيم في نظرهم للنظام القائم بالبلاد المتخلفة التي وصفوها بالفساد وعدم الفاعلية وحائل دون تطورها أو اندلاع الثورة في ربوعها ! وهو رأي يذكرنا بما صرح به « آلان كريفين » أحد زعماء اليساريين المتطرفين أثناء خوضه المعركة الانتخابية الرئاسية في فرنسا منذ سنتين اذ قال بالخصوص : « ان التعاون الثقافي والفني هو المسؤول وحده عن بقاء البرجوازية المحلية في الحكم ولولاه لأطاحت بها الثورة البروليطارية في أسرع وقت » ! لذلك قال احدهم (راجع تصريح أحد الاساتذة الفرنسيين العاملين بالمغرب الاقصى منذ عشر سنين ؛ ص 70 من المجلة المذكورة) إن تعريب الفلسفة وما يقتضيه من إقحام نظريات الفلاسفة المسلمين لا يشكل خطرا على النظام القائم او المجتمع الحالي • فهل معنى

ذلك ان تدريس الفلسفة بالنحو الذي تدرس به اليـوم يضمن تغيير الهياكل والعقليات بتكوينه شبابـا ثوريـا ناقما سرعان ما يتصدى للواقع ينسفه وللمجتمع يفجّره ويثور عليه ؟ وهل يجوز لنا ان نقول بهذه المناسبة مـا قاله احد الفقهاء منذ قرون : كاف الكفر أحبّ الـى من فاء الفلسفة !!

وشبيه بذلك تعريب التاريخ الذي قال احد المتعاونين الفرنسيين في شأنه انه يقتضي الاعتماد على الاساتذة من ذوي الثقافة الواحدة ولا خطر على المجتمع منهم فهل يعني ذلك ان الخطر كامن في أولئك الذين يدرّسون تاريخ وطن عربيّ اسلاميّ بغير اللغة العربية ؟ اننا لا نذهب الى هذا الحد ! ...

* * *

ومهما يكن فإننا نؤكد مرة أخرى أننـا نؤمن ايمانـا صادقا راسخا بوجوب التعاون في أخصب مظاهره وأنبل معانيه وجدوى الحوار بين الثقافات وأريحية الجهـاد من أجل التفاهم الانساني والاخوة البشريـة وإن تـونس بحكم تاريخها وموقعها الجغرافي وسجايا أهلها لا يمكنها آن تنغلق على نفسها بل ان التفتـح أصـل من أصـول فلسفتها في الحياة ولكن الحفاظ على شخصيتها ضرورة حيوية والتمسك بمقوماتها العربية الاسلاميـة اختيـار

مصيري لا يمكنها ان تفرط فيه من دون ان تفرط في زوجها وتهضمها الاقوام الاخرى • وانه من ألزم اللازم أن يخدم تعليمنا وثقافتنا وأجهزة الاعلام في ربوعنا هذا الاتجاه الوطنيّ الانسانيّ معا • وانما مسؤولية نجاحنا او إخفاقنا بأيدينا •

أما المدرسون الأجانب فانهم ضيوفنا ، نجاحنا ونجاحهم في اختصار اقامتهم بيننا كمدرسين وفضلهم في اعانتنا على تدارك ما فاتنا بسبب عصور الانحطاط وعهود الاستعمار ، ووفاؤهم لعبقرية وطنهم الخالدة في احترام شخصيتنا ومعاملتنا كمترشدين نسعى الى التقدم بطريقتنا ونلتقي في آخر المطاف على صعيد الانسانية وان اختلفت الدروب •

ونقول بكل هدوء للذين يرومون الاستعاضة عن الامبراطورية الاستعمارية المفقودة بامبراطورية ثقافية (*) أو الى « الرفاق » الذين يطمعون في تجريب

(*) لعله يفيدك أن تعرف في هذا الصدد ما صرح به لمجلة (باري ماتش) السيد فوشي Fouchet الذي كان منذ سنوات قليلة وزيرا للتربية في الحكومة الفرنسية قائلا : « لقد خسرنا امبراطورية استعمارية فيجب أن نتدارك ذلك بتشييد صرح امبراطورية ثقافية » (ذكّر بهذا التصريح أحد النواب بمجلس الأمة يوم 26 ديسمبر 1970) •

نظرياتهم الماركسية او الماركوزية او الفوضوية ...
بأوطاننا فيمارسون نوعا من الإرهاب العقائدي تجاوزته الأحداث انه يجب ان نرفع هذا الالتباس الكبير الذي علق بمعنى التعاون الثقافي لأن طبيعة الاشياء وإرادة هذا الشعب ـ ماضيا وحاضرا ـ جعلتا من هذه البلاد أمة عربية اسلامية ذات شخصية مميزة منيعة أبد الدهر ، كأن الشاعر قصدها عندما قال :

وكم قد رأينا من رجال ودولة
فبادوا جميعا مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علت شرفاتها
رجال ، فزالوا والجبال جبال

وإذا هم أصروا في عنادهم وأبوا الا ان يدخلوا الى جنّاتهم الايديولوجية والثقافية بالسلاسل فاننا نقول لهم هيهات .. أو نخاطبهم بما يفهمون : **ماأبعد ما بين الكأس والشفاه !! ..**

(I فيفرى I97I)

واجبنا : خلق عقلية جديدة !

من جملة المعاني البليغة والمقاصد القيمة التي احتواها الخطاب الذي القاه السيد الوزير الاول باسم الحكومة التونسية يوم 9 فيفرى المنصرم عند افتتاحه أشغال الدورة العاشرة للجنة الاقتصادية الأممية لإفريقيا ، ما يتعلق بطبيعة التخلف الذي تعانيه بلدان افريقيا وسبب البطء الذي تشكوه في نموها ، ذلك انها اهتمت بالنظريات البراقة والمذاهب الرائجة فى العالم المتمدن وأهملت حقيقة بديهية هي أن الانسان هو العامل الأساسى فى ربح معركة التنمية وانه من الواجب قبل كل شيء تعليمه وتربيته وصقل مواهبه حتى يقدر على وعي منزلته ويصحّ منه العزم على تغيير ما بنفسه وما يحيط به .

ولئن بذلت بلدان افريقية كثيرة ، نعتبر بكل تواضع الجمهورية التونسية في مقدمتها ، مجهودات كبيرة وأموالا طائلة لتعميم التعليم ونشره في أوجز الآجال ، فحققت بذلك بعض اغراضها من حيث الكم ، فإنها اخطأت اخطاء فادحة وذات نتائج وخيمة اجتماعيا واقتصاديا ، وربما سياسيا على طول المدى ، إذا اعتبرنا الكيف ونظرنا الى عقلية هؤلاء الآلاف المؤلفة من الشبان الذين تخرجوا في السنوات الاخيرة ، والى سلوكهم وبالخصوص الى مدى قابليتهم للتلاؤم مع وسطهم والاندماج فيه ، اي اذا نحن قيّمنا هذا المجهود الجبار من حيث الجدوى ولم ننبهر بالارقام والاحصائيات والخطوط البيانية ..

ولعل هذا ما قصده السيد الهادى نويرة الوزير الاول ، عندما قال فى صراحة وصرامة : « **ولهذا يتعيّن على مدارسنا ان تطبق من المناهج التربوية ما يجعلها متفتحة على القرية وعلى الغابة وعلى منابت الأعشاب . وعليها أن تضع فى صعيد واحد الكتاب وأداة العمل والدماغ والساعد حتى تتجنب انشاء أمثال أولئك الذين يشمخون بأنوفهم لمجرد شهادات بسيطة نالوها ، فتضرب أصابعهم العشر بالعطل ، ويرون من المزري بهم العمل في الحقول وكذلك في المصانع** » .

وهل من شهادة أفصح وحكم أعدل على مأساة الآلاف والآلاف من فتياننا وفتياتنا الذين قضوا سنوات في التعلم فلم يحصلوا الا على قدر متواضع من المعلومات النظرية البعيدة عن وسطهم ، الغريبة عن مشاغل بيئتهم ومتطلبات وطنهم النامي ، من هذا القول الصادر عن مسؤول يعرف حق المعرفة أحوال إفريقيا ويتصدى اليوم — في بلاده — لعلاج المشاكل الكثيرة المتأتية من عدم التلاؤم — منذ الاستقلال الى اليوم — بين التعليم في محتواه ومناهجه وأساليبه البيداغوجية وسرعة انتشاره ونوعيته وبين معطيات البلاد الاقتصادية والاجتماعية والحضارية ؟

على أن قاعدة « الكم يفرز الكيف » سمحت بأن يتخرج من بين ملايين التلامذة بعض الآلاف من الجامعيين فهل كانوا عند حسن الظن وهل استجابوا الى داعي الواجب الوطني فاضطلعوا بمسؤولياتهم ونهضوا بشعوبهم ؟ يجيب السيد الوزير الاول بقوله : «**إن نخبنا المثقفة الذين تفتحت افكارهم في اجواء الجامعات الاوروبية والامريكية يتحتم عليهم أيضا ان يظلوا في اتصال وثيق بواقع بلدانهم ولا يسعوا في قلب ظهر المجن لشعوبهم ولا يغادروا أوطانهم في بعض الاحيان طمعا في التمتع بمستوى من العيش في الخارج أرفع مما هو مقدر لهم نيله في بلدانهم ، فكم من بلدان افريقية لها عدد من الاطباء من أبنائها في الخارج أكثر مما لها داخل حدودها .**

ولا يخفى ما في انجذاب ذوي الاختصاص التقني للعمل الذي يدر رزقا اوفر من بالغ الضرر العائد على أقطارنا • فهو يدفعهم من الريف الى المدينة ومن المدينة الى البلد المصنع الذى يوجد دائما في قارة غير قارتنا •• »

وهكذا يوضع مشكل هجرة الكفاءات بكل وضوح وندرك مع الأسف ان البلدان الافريقية والآسيوية تساعد فى الواقع البلدان المصنعة بأعز ما عندها أي بأدمغتها ! فاذا قلنا ان التعليم عنصر اساسي من عناصر التنمية وشرط حاسم لها وكان هذا التعليم في الواقع السبيل الممهدة لهجرة الكفاءات العلمية أو لأغلبها فمعنى ذلك أن الأفق مسدود في وجه بلدان العالم الثالث ولا تتعدّى تضحيات شعوبه ان توفر لبعض المحظوظين أسباب الرفاهية الشخصية والاشعاع الفردي بعيدا عن الأوطان !

وإن الامر سيبقى كذلك ، انعدام جدوى . وتفاوتا متزايدا بين العرض والطلب من حيث الكيف ، في مستوى التعليم الاعدادي والثانوي ، وهجرة متفاقمة للإطارات العليا تستنزف طاقات بلداننا وتشل سعيها الى التقدم والتطور وتزيد البلدان المصنعة ثروة بشرية على ثروتها ، في مستوى التعليم العالي ، ما لم ننظر الى شؤون التعليم والتربية ببلداننا العربية والافريقية والآسوية **نظرةثورية** ، فنتعلم أولا كيف نستقل ثقافيا وكيف نعتمد على أنفسنا ونثق بقدرتنا الذاتية ونتجاوز

ما خلفته فينا العهود البائدة من جروح وعقد ، ونتفق على المحتوى الصحيح لأصالتنا ونضع الملامح الكبرى لحضارتنا ثم نستنبط الطرق والمناهج التربوية الكفيلة بتجسيم هذه القيم العليا في ناشئتنا ، ولا يتسنى ذلك اذا بقينا على تعلقنا بالمفاهيم الموروثة الزائفة واقتصرنا على ترميم هيكل التعليم الذي وضع لعصر غير عصرنا ولبيئة غير بيئتنا ٠

وان الإصرار على التقليد الأعمى والتهافت على استيراد المحتويات الثقافية الاجنبية والإصغاء « الاعمى » الى ما يوحى به إلينا « الخبراء » الاجانب واستصغار آراء بني جلدتنا ، لمجلبة للمآسي الاقتصادية والاجتماعية وتنكر لأبسط مبادىء الحضارة وأشرف القيم الانسانية ٠

فعسى ان يستخلص كل المسؤولين في كافة البلدان السائرة في طريق النمو العبرة من نتائج سياسة التعليم التي انتهجوها منذ اكثر من عشرة أعوام ويدركوا ان التعليم الذي اريد به الخروج من التخلف وتحقيق النهضة في كل الميادين وجب تكييفه مع ضرورات المجتمع وتأصيله والملاءمة بينه وبين حاجات الاقتصاد وأشواق الروح القومية ٠

والواقع اننا لا نحتاج اليوم الى اصلاح جديد للتعليم او الى اصلاح « اصلاح التعليم » بل نحن في حاجة أكيدة الى خلق عقلية جديدة وبعث تربية وطنية صميمة ٠

(I مارس 1971)

ظاهرة العزلة الفكرية
بين المشرق والمغرب

إذا اصبح التعاون الثقافي بين الشعوب ضرورة حتمية في النصف الثاني من القرن العشرين ، حيث قربت أجزاء العالم بعضها من بعض وتيسر الاتصال الآني والمباشر بين كافة أجزائه بفضل العلم الحديث ومعجزات التكنولوجيا ، واقتنعت البشرية أكثر من أي وقت مضى بأن السلم والوئام والمحبة بين بني الانسان في كافة أنحاء المعمورة مشروطة خاصة بمزيد تقدير الأمم المتبادل لقيمها الحضارية والروحية ، على أساس ان الفروق ليست بالضرورة عناصر تباعد او بغضاء ، بل اصبحت عامل تكامل وتمهيد الى تجاوز ايجابي خلّاق ، فانه من باب أولى وأحرى أن تدرك الشعوب العربية الاسلامية ــ الى جانب ما يتميز به كل شعب منها في

الوطن الأصغر من خصائص وملامح ــ ما يجمع بينهــا ــ في نطاق الوطن الأكبر وعلى امتداد الزمان والمكان ــ من أواصر الملة ووشائج القربى بوصفها منتسبة ــ جميعها ــ الى حضارة عريقــة واحدة كريمــة المعــدن ، إسلاميــة الجوهر ، عربية اللسان ، إنسانية الاتجاه والغاية .

ولطالما عبرنا عن أسفنا مما أورثته عصور الانحطاط وخلفه الاستعمار فينا ــ نحن معشر الشعــوب العربيــة الاسلامية ــ من تمزق فكري وتشتت ثقافي ، ومــا نتــج عنهما من جهل بعضنا لبعض أدى الى سوء التفاهم والتجافى أحيانا والى اللامبالاة السلبية أحيانا أخرى .

ولاحظنا ــ أكثر من مرة ــ أن هذه العزلــة الفكريــة والأدبية من جانب واحد فى غالب الاحيان ، إذ رجــال الثقافة في تونس خاصة وفى بلــدان المغــرب العربــى الكبير عامة ، وخلافا لموقف زملائهم بالمشرق ، متفتحون ــ ماضيا وحاضرا ــ على المشرق العربي ، متطلعون الى ما يؤلفه وينشره علماؤه وأدباؤه ، متتبعون بكل شوق ولهفة لنشاط حركته الثقافية ، بل انهم زاهدون أحيانا في انتاج ذويهم ، لا يكترثون به ولا يمدون أبصارهــم اليه الا اذا شهد له شاهد من الشرق كما حدث بالنسبــة لأبي القاسم الشابي عندما نشرت مجلة « أبولو » نماذج من شعره من نحو أربعين سنة .

لذلك لا يفوتنا أن ننوّه بالمقاليـن اللذيـن كتبتهمـا بجريدة « الاهرام » القاهرية (*) الأديبة الكبيرة عائشة عبد الرحمـن والصديقـة الفاضلـة الدكتـورة (بنت الشاطىء) تحت عنوان « بين المشـرق والمغـرب » ، إذ لاحظت بكل صراحة وجرأة ظاهرة العزلة الفكرية الشاذة التي حجبت عن المشرق جديد المغرب الكبير في الفكـر والأدب وأنكرت ، في تواضع وأمانة علمية يشرّفانهـا ، أن تكون « هذه الظاهرة طبيعية محكومـة بمنطـق دورة الازدهار الفكري ، يصل الينا مدها فيجد المغرب ما يأخذه منا ، وليس لديه ما نأخذه » ، مضيفة « أننا (في مصر) لا نعرف ما لدى المغرب لكي نحكم عليه » ومتسائلة « **فهل تكون ظاهرة العزلة من جانبنا مظهر عقدة تفوّق موهوم تجعلنا ناخـذ مـوقف المصدّريـن لبضاعـة القلـم ، لا المستوردين ، فيقرأ لنا غيرنا ولا نقرأ له ؟** » .

وتتأمل الكاتبة المصرية هذا الواقع فاذا بهـا تكتشف « ازدواجا غريبا » فى موقف المشرق وتقول : « فبقدر ما نزهد فى الفكر العربى لاقطار شقيقـة ، نتهالـك عـلى استيراد البضاعة الغربية هزيلة او قيمة ونباهى بما نقرأ لادباء الفرنجة قدامى ومحدثين » وتضيف : « فالمسألة إذن ليست فى كوننا لا نقرأ وانما هى فى زاوية رؤيتنا

(*) انظر عددى 12 فيفري و 5 مارس 1971 .

لعالم الفكر ، تتجه بنا نحو الغرب فلا نتصور ان في الدنيا كتابا جديرا بأن نقرأه غير مستورد من الخارج ! .. ومن هذه الزاوية الضيقة الحادة التى انحصرت فيها رؤيتنا استطاع بعض ادباء المغرب الكبير أن يصلوا الينا فى اعمال لهم **لم تكن لتعبر حدودنا لولا انها حاملة جواز المرور من اوروبا !!** » وهى تقصد بذلك الادب المغربى الفرنسي اللغة الذى نشر بفرنسا خاصة .

فالعقدة بالنسبة لأدباء المغرب ــ كما تقول الكاتبة ــ هي « **انهم يكتبون بالعربية ، فتحرمهم لغتنا القومية بصمة التأشيرة الاوروبية التي يعبر بها الكتاب إلينا** » .

ليست المسألة اذن قضية مستوى او امكانيات مطالعة بل هي عقدة موروثة يتعين تظافر جهودنا جميعا لحلها بمزيد التوعية وتنشيط وسائل الاعلام ومضاعفة الاتصال والتعاون وإحكام مسالك التوزيع وطرق التعريف والاشهار .

وان العمل الذي قامت به الدكتورة بنت الشاطىء التي تدرّس الآن بالمغرب الاقصى الشقيق جليل وعظيم الفائدة ، فقد اكتشفت أصالة المغرب العربي وغزارة انتاجه الثقافي وفضل رجاله في تكوينها وتكوين آجيال مثل جيلها بمصر فقالت بدون تردد : « أذكر أني ما كدت

أتخطى عتبة الكتاب حتى كان **اكثر الزاد العقلي الذي تلقيته في مدرستي الاسلامية من تراث علماء المغرب ،** ابتداء من متن الشاطبية في التجويد والآجرومية والالفية في النحو ، ومحكم ابن سيده ومخصصه في اللغة ، وجامع القرطبي في التفسير ، واستيعاب ابن عبد البر في طبقات الصحابة ٠٠ وشفاء القاضي عياض في السيرة ، وفصل ابن حزم في الملل والنحل ومقدمة ابن خلدون في الاجتماع وتهافت التهافت وفصل المقال لابن رشد في الفلسفة وفتوحات ابن عربي في التصوف ، ومدونة سحنون ومحلّى ابن حزم في الفقه والاحكام ، وتحفة الفاسي في التوحيد واعتصام الشاطبي وأحكام ابن حزم في الاصول ، ومعها من تراث المغرب في الادب وتاريخه عمدة ابن رشيق وذخيرة ابن بسام وزهر الاداب للحصري ونفح الطيب للمقري ورسائل الانتقاد لابن شرف القيرواني ودواوين الاعلام من شعرائه الذين رجعت آفاق وطننا روائع قصائدهم وشجيّ موشحاتهم من امثال الحسن بن هانيء الاندلسي وابن زيدون وولّادة ، وابن شهيد والاشبيلي وابن زهر ٠٠ كل اجيال الطلاب اخذوا عن علماء المغرب في العربية والاسلام وكل الدارسين الاسلاميين وجدوا في التراث المغربي ، الاندلسي منه والتونسي والجزائري والمراكشي ، مصادر أصيلة لما يشتغلون به من حديث وتفسير وفقه وأصول ولغة ونحو وبلاغة وأدب ومنطق وفلسفة وتاريخ واجتماع ٠٠ » ٠

فعسى ان ينحو منحاها عدد كبير من رجال الفكر والادب في مصر والعراق ولبنان وسوريا وغيرها فيقبلوا على انتاج الادباء والمفكرين المغاربة ويعرّفوا به ويمتّنوا بذلك صلة الرحم بين شعوب يجمعها ماض مشترك وتشدّها الى المستقبل آمال واحدة في الرفعة المعنوية والازدهار الشامل والحياة الحرة الكريمة ٠

وإنّ التزاور والتعارف من أيسر السبل واكثرها فائدة ، ولو لم تسافر الدكتورة بنت الشاطىء الى الاندلس وبلاد المغرب العربي الكبير لما « التفتت » الى تراثنا او عثرت على بعض كنوزه ، فهي تقول : « ولم يكن هذا التراث المغربي زادا لي بوجه خاص بل هو عام لكل تلاميذ المدرسة الاسلامية ، يصحبهم على امتداد دراستهم من المرحلة الاولى الى آخر مراحل التعليم وان لم يلتفتوا ، فيما اظن ، الى ان **جمهرة معلميهم من علماء المغرب الكبير** ٠ وكذلك لم ألتفت الى هذا حتى رحلت الى الأندلس في صيف 1947 فذكرت علماءها **ثم تتابعت رحلاتي العلمية في السنوات العشر الاخيرة الى الجزائر والمغرب فآنستني أطياف الذين علموني ، وأرهفت شعوري بالولاء العقلي للبيئة التي كانت لي مدرسة ومعهدا** ٠٠٠ »

وإنه لعمل طويل تقتضيه طبيعة التوعية اذا أريد بها

حل العقد النفسية وتطهير العقليات مما ران عليها طيلة قرون وقرون من الافكار الخاطئة والمعتقدات الجائـرة ، ولكن لا بد من الشروع فيه وإتيـان المسالـك المحققـة لأغراضه •

ولعل المسؤولية الكبرى في النجاح ملقاة على كواهلنا ، نحن ابناء هذا الشمال ، إذ علينا أولا أن نقدّر أنفسنـا حـق أقدارهـا ، من دون مركبـات ، ونكـون أوفيـاء لشخصيتنا ونحيي تراثنا ونعرّف بأمجادنـا وعلينـا ان نشجع كذلك ـ وبالخصوص ـ مفكرينا وأدباءنا الاحياء ونذلّل العقبات والموانع التى تحول دون طبع انتاجهم او توزيعه على اوسع نطاق في كافة اجزاء الوطـن العربـي الكبير •

واذا ساهمت آراء بنت الشاطىء في رفع الغشاوة عن أبصار الكثيرين من رجال الثقافـة بالمشـرق العربـي وأزاحت الستار الذي كان يحجب عنهم ما للجناح الغربي لوطنهم من ثروة فكرية خالدة ومتجددة في آن واحـد ، فانها ستساهم ولا شك في استئصال ما يشكوه الكثير منّا من عقد النقص والاستنقاص وبذلك يكون التمهيد الى الوحدة الحق التي لا خطر من الاستعمار الثقافي علينا ولا خوف من تسرب الشحناء والبغضاء الى قلوبنا ما بقينـا معتصمين بحبلها ، جاعلين الاتصال الفكـري الحـارس الامين عليها •

ذلك ان الجهاد في الموقع الفكري لمعركتنا جميعا من أجل العزة والتطور الشامل أنبل ضروب الجهاد وأبعدها مدى وأبقاها أثرا • ومن العار الاخلاقي ان تتبدد طاقاتنا في متاهات الخصومات السياسية والمذهبية والتقليد الاعمى لغيرنا وحتى لخصومنا بينما يفرض علينا المنطق السليم والنظر البعيد والسديد ان نقاوم عزلتنا الفكرية ونتمسك بعروتنا الوثقى وندعم وحدتنا الروحية والحضارية الاصيلة المتفتحة •

ألا فليدرك هذه الحقائق كل المسؤولين ورجال الفكر والادب في المشرق والمغرب العربيين وليعملوا جاهدين بهديها ان كانوا مع انفسهم صادقين وبوطنهم بارين ولأشرف القيم الانسانية مخلصين •

(I افريل I97I)

الى من يظلم الأدب التونسي

تحت هذا العنوان ، كنت اشرت في افتتاحية مجلة « الفكر » الصادرة في غرة جويلية 1966 (*) الى مقال حول الادب التونسي نشره بجريدة « لومند » الباريسية بتاريخ 31 ماي 1966 السيد « دوفينيو » بعد ان درّس علم الاجتماع في كلية الاداب التونسية طيلة سنوات ، وحاول فيه ـ وكأنه يودع البلاد التي آوته ووهبت نفسها مادة طيّعة لتجاربه الطريفة (**) ـ التنقيص من شأن الأدب

(*) آنظر كتابي : من وحي الفكر ، ص 176 .

(**) لا بد أن نذكر بهذه المناسبة السيد « لاباساد » استاذ (!) علم الاجتماع الذي تعلمفي ربوعنا أيضا « الحجامة في رؤوس اليتامى » وقضى أعواما طويلة يعلم شبابنا ، فيما يعلمه ، « السطنبالي » قبل أن ينقل الى جامعة « نانتير » بفرنسا الشهيرة بحوادثها الطالبية في ماي 1968 ، والطريف أن هذا الشخص الغريب شارك منذ ثلاث سنوات في مؤتمر الفوضويين (نعم !) في مدينة كارار بايطاليا وأن هؤلاء الفوضويين اضطروا لطرده من المؤتمر لاخلاله ... بالنظام !!

والأدباء بهذه الديار ، معللا ذلك بانصراف رجال القلم الى شؤون الادارة او انغماسهم فى الافيون والمجون ، وذهب به الغرور والخيال الجموح الى الادعاء بان مجلة « الفكر » غير منتظمة الصدور (*) وانها كغيرها من النشريات التونسية لم تستقطب الكفاءات الادبية ويقصد بذلك ولا شك بعض اصدقائه المدللين ٠

وحرصا على رفع الالتباس وخدمة للأمانة العلمية أرسلت في 8 جوان 1966 « بيان حقيقة » وجيزا الى هذه الجريدة فاتصلت برسالة من مديرها السابق السيد « بوف ميرى » يعتذر فيها عن عدم نشر هذا البيان ويلتمس ظروف التخفيف للسيد « دوفينيو » لأنه حسب قوله يجهل اللغة العربية واعتمد على مصادر « استبلهت حسن نيته »!

وإن الذى دفعنا ــ في أسرة المجلة ــ الى الرّد وعدم مقابلة هذا الهراء بما يستحق من الصمت والاحتقار ، هو رغبتنا في نشر الحقيقة والقضاء على الجهل الموروث والمتبادل بين الشرق والغرب ، والمساهمة في تيسير التفاهم وايجاد التسامح بين الشعوب رغم الفوارق العقائدية والحضارية التي تراكمت على مرّ العصور ،

(*) والواقع أن هذه المجلة لم تتخلف ولو مرة واحدة عن موعد صدورها ــ أي غرة كل شهر ــ منذ أن تأسست في أكتوبر 1955 ٠

والعمل بحق من أجل السلم والاخاء البشري ٠

ولطالما تألمنا من جهل الرأي العام في الغرب ، بما فيه النخبة في اكثر الاحيان ، للفكر العربي الاسلامي عامة والثقافة التونسية التائقة الى التحرر والتجدد والازدهار خاصة ، بسبب ما أورثته الحروب الصليبية وعهود الاستعمار من مركبات دفينة معقدة ، وناديناً بحوار نزيه يضمن الارتشاح والتلاقح مع الحفاظ على الطرافة القومية ويوفق في آخر الامر بين الاصالة والمعاصرة في اطار انساني حي ومتطور ٠

لذلك يسوؤنا أن تنشر « لومند » الذائعة الصيت في فرنسا وبعض اقطار العالم ٠٠٠ ـ بما فيها تونس حيث يتعرف عدد من التونسيين (!) على واقعهم من خلالها ـ ، وبعد مرور خمسة اعوام من ظهور مقال السيد « دوفينيو » الذي اعترف مديرها بقصوره وخطئه ، دراسة (؟) حول الادب التونسي أمضاها الاب « جان فونتان » (*) وهو من الآباء البيض المستوطنين بهذه البلاد منذ أمد طويل وليس له عذر جهل اللغة العربية أو عدم معرفة الآداب التونسية معرفة مباشرة ٠

والملاحظ أن المقال منشور ضمن ملحق مخصص

(*) راجع جريدة « لوموند » عدد II و I2 ـ افريل I97I ـ ص I9 ٠

للتعريف بالجمهورية التونسية في كافة المجالات ، ولفت النظر الى واقعها ومعطياتها بأمانة وتجرد فكان مفروضا أن يتحلى صاحب المقال بالموضوعية وأن يتوخى اسلوب العرض الأمين ومنهج التحليل الضافي ، لا ان يبني عمله على سلسلة أحكام قيم وارتسامات ذاتية أقل ما يقال فيها انها خاطئة جائرة ، تعطي القراء صورة مشوهة بتراء عن واقع الادب عندنا ، ولا تخلو من اشارات سياسية ولمزات موجهة الى النظام القائم في هذه البلاد ٠

وأول ما يتحفنا به الاب « فونتان » ويحبّ أن يلفت أنظارنا اليه هو ان اغلب الآثار الادبية الصادرة بتونس مكتوبة بالعربية خلافا لما هو موجود بالجزائر والمغرب وكأنه يأسف لهذه الظاهرة او هو يرثي لحال الادب التونسي الذي لم ينتج « أقلاما » فرنسية رغم كل الجهود المبذولة والمخططات المرسومة !

ولم يحاول ـ لضيق المجال طبعا ! ـ التعريف بجذور الادب التونسي او الوقوف عند أهم مدارسه واتجاهاته وخصائصه قبل الاستقلال ولا تبيان وظيفته في إيقاظ الضمير الوطني ، او عكسه للذات القومية المكبّلة بأصفاد الاستعمار ، او تغنّيه بالحرية والكرامة ، وتبرّمه من نظام الحماية الخانق ، بل بدأ مقاله بالتنبيه الى ان الانتاج الادبي اعتراه الفتور بعد الاستقلال ـ اذن وجد

هذا الانتاج ! ـ ثم نشط ابتداء من 1961 وانطلق بحق منذ 1968 •

واكتفى الاب « فونتان » بذكر الدار التونسية للنشر كعامل لهذا الازدهار ونسي او تناسى المجهود الجبار الذي بذلته الحكومة التونسية منذ الاستقلال في سبيل نشر التعليم وديمقراطيته ، كما غفل عن المناخ الادبي الذي عملت على خلقه وزارة الثقافة والمنظمات القومية وعلى رأسها الحزب الاشتراكي الدستوري ، وكأنه اعتبر الاصداع بهذه الحقائق الموضوعية ضربا من الاطراء لا يليق بأديب تقدمي (؟) •• شعاره الرفض ثم الرفض ! والرفض دائما !!

وأبى الأب « فونتان » الا ان يصوّر هذا الادب توتّرا بين نزعتين متقابلتين : التقدمية والرجعية ، وانتخب من انتاج بعض الادباء الشبان رغم غزارته وتنوع أغراضه وأساليبه ما يبدو في مضمونه تحديا للمقدسات الاسلامية وفي شكله طعنا للغة الضاد وفي اتجاهه تنكرا للكفاح القومي ، وتصور حربا ضروسا بين هؤلاء الرواد القلائل وغيرهم من حملة القلم آلت في آخرالأمرالى هزيمة « الرجعيين » فانطلقوا تفاديا لما فاتهم •• يناضلون من أجل التعريب ويلتمسون الانتقام بربح معركة التشهير بالتزوج من الاجنبيات ! ولم يذكر ــ طبعا ــ ولو أديبا

واحدا عالج هذه القضية في إنتاجه ؛ ولا أعرف شخصيا قصيدة ولا قصة او مسرحية تناولت هذا الموضوع !

و هلاّ أتمالك عن الاعتقاد بأن الادب التونسى ليس هو المقصود بالدراسة وانما كان طريقا للتعرف الى مدى تغلغل نوع من الثقافة الفرنسية والفكر الغربي عامة فى نفوس الشباب التونسي المثقف والاطمئنان الى « ولائه » الروحي والحضاري •

وما كنا لنقابل هذا « الخيال » المجنح بغير الابتسام لولم يتخلص منه الى نتيجتين

أولاهما أن إنتاج هؤلاء التقدميين المجدّدين المصطبغ ــ فى نظره ــ بالتشاؤم والمتحلل من اللغة الكلاسيكية انما يعبر بذلك ــ ومن أجل ذلك ــ عن قلق دفين منشؤه ضيق بالمجتمع الذي يعيشون فيه من دون أن يتجاوبوا معه لأن « الافق مسدود بسبب احتلال غيرهم ، ممن لا يفوقونهم كثيرا فى السن لكافة مناصب المسؤولية في بلاد حديثة العهد بالاستقلال ••• » ، ولأن « تردد النظام القائم في الحياة السياسية لا يساعد على استقرار المجتمع الذي يحاول الكتاب الشبان ان يطفوا على امواجه » ، حسب قوله ، فكأن تقدمية الادب اصبحت تتمثل في تحدى مقومات الأمة من لغة ودين وعادات •• والتمرد على النظام السياسي القائم ! ومن اليسير طبعا الرد على كل من يناقش هذه النظرة ••

التقدمية الى الادب التونسى بانه رجعيّ منغلق .. مطالب بالتعريب ! مناد بمنع التزوج من الاجنبيات !! ألم يقل المثل الفرنسى : « من اراد القضاء على كلبه غرقا .. اتهمه بالكلب » !؟

وثانيتهما هي ، حسب قوله ، أن الادب التونسي الفتي يبتعد شيئا فشيئا عن النماذج العربية الشرقية التي لا يزال في غالب الاحيان يستمد منها الكلاسيكيون الجدد أنفسهم وحيهم (يا لوقاحتهم !!) .. وان الدليل على ذلك قد نجده في زوال الكتبيّين القدامى شيئا فشيئا من الحي العربي للمدينة !! ويضيف صاحب الدراسة وكأنه بلغ شاطىء النجاة : « ان تونس أصبحت اليوم تتجه بانظارها نحو الشمال خاصة ، وبعبارة أدق ، نحو فرنسا .. وان الكتاب الشبان يستمدون إلهامهم من الاتجاهات فوق الواقعية وبذلك يتصلون بكبرى الاتجاهات الفنية المعاصرة » .

وهكذا يفلت الادب التونسي من مخالب الرجعية المطالبة بالتعريب ومنع التزوج بالاجنبيات ويتجه نحو الشمال .. كدت أقول نحو الوطن الأم ! رغم استعماله (المؤقت ؟!) للغة العربية ! ورغم ان الكتاب التونسيين (يا للتخلف !) لم ينتجوا بالفرنسية على غرار بعض زملائهم المغاربة والجزائريين !

واني لأتساءل بعد هذا كله عن الدواعي التي حملت

الأب « فونتان » على توخي هذا المنهاج الخاطىء والتزام هذا الاتجاه الغريب !

هل يؤمن حقيقة بما يقول ؟ هل أثرت عليه بعض « الصداقات » الادبية فحجبت عنه شجرتها غابة الادب التونسي العميقة الجذور المترامية الاغصان الوارفة الظلال ؟

أم هل أصيب هو أيضا بعقدة التصاغر إزاء بعض المذاهب المنتحلة للتقدمية والمتشدّقة باليسارية فأبى الا الظهور بازائها في مظهر التقدمي المنسجم مع تطور العصر ؟

أم هو أدرك أن الغرب لا يرضى الا عن الدراسات التي تظهر آداب الشعوب حديثة العهد بالاستقلال في مظهر الانتاج المقطوع عن اصله المتنكر لمقوماته المقلد لاتجاهات « الشمال » وتياراته فأراد ان يطمئنه ويستجيب لما كان ينتظره منه ؟

ولا يقولنّ أحد ان حسن النية متوفر فليس هذا الذى يعنينا • ان المراد لا يبرر الايراد ! الذي نأسف له هو ان هذه الدراسة مهما كانت نية صاحب المقال ــ ولعلها تكون خالصة لله لا لقيصر ! ــ أساءت للأدب التونسي وأساءت للبلاد التونسية وأساءت بالخصوص للحقيقة والواقع ، وأنها تباعد ــ ولا تقارب ــ بين الأمم لأن الصداقة الحق

لا تتوطد ولا تعمق ولا يكتب لها الدوام الا اذا أرسيت قواعدها على التقدير المتبادل واحترام الشخصية والطرافة الوطنية ٠

ونحن اذ نبيّن تهافت هذه الدراسة لن نرد على الأب « فونتان » في تخيله لهذه « الفتنة الادبية الكبرى » ببلادنا لان ما لا نزال ننشره منذ ستة عشر عاما ــ وفي مقدمته انتاج الشبان الذين حشرهم في زمرة « التقدميين » الشاهرين سلاحهم على اخوانهم ٠٠ « الرجعيين » ٠٠ ليعتبر خير رد وأقوى دليل على أن الأديب التونسي ينظر أولا الى مجتمعه ويستمد منه ويخلص له وانه مع ذلك غير متقوقع داخل حدوده بل ينظر كبقية الكتاب في العالم الى ما حوله ــ شمالا وجنوبا ، شرقا وغربا ــ لا ليذوب او يتفسخ او يقلد تقليدا أعمى بل ليتلاقح ويتصادى ويتناغم لانه يؤمن بالانسانية الحق ويعرف ان القومية السليمة الاصيلة هى طريقها الأوحد وغذاؤها الأمثل ٠

ونقول ــ لا للأب فونتان الذي قد يكون ضحية هو نفسه ــ بل لكل الذين يظلمون الادب التونسي ، و لكل من « يشتهوننا » ويريدوننا أتباعا لهم وأذنابا :

لا تطمعوا ان تهينونا ونكرمكم
وأن نكفّ الاذى عنكم وتؤذونا

(I ماى 1971)

الماضي كان مستقبلا رائعا

كلما تصدى أهل الرأي ، في تونس وسائر البلاد العربية الاسلامية ، الى علاج قضايا الفكر وشؤون الثقافة والأدب ، كثر الجدل واستشرى الخلاف حول أقوم المسالك لمواجهة العصر والأخذ بأسبابه ، وتدارك ما فات والاستعداد لما هو آت ·

وكثيرا ما يقابلون في غمرة النقاش بين الماضي الناصع التليد والمستقبل المشرق الملآن ، فيحرصون على جعل الحاضر امتدادا للماضي ونسخة أمينة منه ، او يرومون الانسلاخ عنه والكفر به ، وذلك تمسكا بالأصالة او انتسابا الى روح المعاصرة ·

والحقيقة أن هذا النقاش المانوي متواصل منذ أواخر

القرن الماضي عندما اصطدمت شعوبنا بالمدنية الغربية .وغزاها الاستعمار غزوا ، وتسلط على طاقاتها الروحية والمادية تسلطا ، فأفاقت من غفوتها وتقاوت على نفسها لعلها أن تتخلص مما ران على عقول أبنائها و بصائرهم من تحجر وجمود وتدهور طيلة عصور الانحطاط والظلمات ·

ولئن توفقت كل هذه الشعوب أو جلها ــ وبدرجات متفاوتة طبعا ــ الى التخلص من براثن الاستعمار المفضوح ، في شكله السياسي والعسكري والاداري ، فإن أكثرها لا يزال يعاني ويجاهد في سبيل التحرر من الاستعمار الاقتصادي وخاصة الاستعمار الثقافي والاديولوجي ، الذي لا تتزعمه دائما ووجوبا الدول التي شاء الحظ ــ بل سوء الحظ ــ أن تتسلط عليها في الفترة الاولى ، وهي لا تزال بالخصوص تعاني وتجاهد للخروج من التخلف والتخفيف من وطأة الجهل والمرض والخصاصة ·· بتنمية الثروة والسعي الى توزيعها بأوفر قسط ممكن من العدالة · وفي هذا الصدد لئن أجمع الناس على أن الذكاء هو المنجم الطبيعي الاوحد والاخصب لاستخراج شتى الثروات وتجاوز كل العقبات وبلوغ جميع الاهداف ، وان التشمير الثقافي ــ بالتابع ــ هو من

بين سائر أنواع التشمير الأخرى أوفرها نفعا وأعظمها جدوى على المدى البعيد ، فانهم مختلفون في نوعية هذه الثقافة ومضامينها ومحتوى التعليم والتربية اللذين يخلقان أسباب هذه الثقافة ويمهدان لظهورها وازدهارها ، ومتباينون في تصورهم للحضارة ومتطلباتها واتجاهاتها ٠

وبينما يتواصل النقاش وتتبلور المواقف وتتقابل ، لا نكاد نلاحظ عملا ايجابيا لتجاوز التناقضات والخروج بالقضية المصيرية من طور الكلام والهذيان الى مرحلة الفعل المخطط المبني على رؤيا واضحة لمنزلتنا في الكون ، وهويتنا الحضارية ودورنا في العالم ، ورسالتنا الفكرية ضمن الحركية الانسانية التي لا تعرف التوقف لأنها كالنهر العارم ، المتدفق دوما ، ترفده شتى الجداول السياسية والروحية والثقافية ٠٠

بل لا نزال ــ في الغالب ــ ننفعل دون ان نفعل ، ونأخذ ولا نعطي ، ونقلد عوض أن نبدع ، ولا نكاد نفرغ من محادثاتنا الاكاديمية بين المناسبة والاخرى ، وننتهي من دراساتنا الموسمية الروتينية،حتى نخضع للواقع المفروض علينا في جميع مظاهره فنحياه او بالأحرى يحيانا ويحوينا ويتلبس بنا ويضغط علينا ، ونتساق مع

مقتضياته ونواميسه دون أية مباداة ولا مبادرة ٠

وكما أن الانسان مفطور بالطبع ـ مثل الحيوان ـ على التلاؤم التدريجي مع كل الحالات الضارة الطارئة عليه من دون شعور بخطورتها المتزايدة ، ولا استعداد للتوقّي منها ، وقادر بالتابع على التكيف مع بيئة مشحونة بالملوثات الكيميائية ، (أذكر في هذا الصدد التجربة التي أجراها « باستور » سنة 1864 وضمنها محاضرته أمام طلاب معهد الفنون الجميلة بباريس (*)) ٠٠ ، فإن الانسان مهيأ ـ كذلك ـ الى التلوث الحضاري والتسمم الثقافي والتعفن الأخلاقي ، من دون شعور ، ما دام غزو الأرواح وصدأ الأفكار وتخدير النفوس والتسرب الى العقليات ٠٠ تعمل جميعها ، عملها في بطء مستمر ، ويستفحل داؤها من دون آلام منبهة ٠٠

(*) وضع « باستور » عصفورا في علبة محكمة وتركه ساعات طويلة في هذا الجو الخانق فلم يلبث العصفور أن أصبح هامدا لا يبدي حراكا ولكنه ظل على قيد الحياة ، فوضع « باستور » عصفورا ثانيا في نفس العلبة بجانب العصفور الاول ، فمات في الحال ، واكد « باستور » أن المخلوقات البشرية المحتشدة في غرفة سيئة التهوئة يتعذر عليها الملاحظة بأن الهواء الذي تتنفسه يفسد تدريجيا من حيث لا تشعر (راجع مجلة « المجال » عدد 32) ـ تذكر في هذا المعنى حال الشعب التونسي في الثلاثينات وكيف كان اناس كثيرون يعتبرون وضعهم تحت الحماية طبيعيا جدا ٠

ولا جدوى في موقف جبان ، هروبي ، سواء الى الوراء أو الى الأمـام ، للافـلات من عمليـة التكييف الحضـاري والخروج من السلبية الثقافية •

فانه يخطىء من يعتقد أن التمسـك بالمـاضي كفيـل بصيانة الذات وحماية الحمـى ، لأنه لا يمكن الاستعاضة عن الحياة بالأحلام ولأن اجترار حلو الذكريات ، وتحنيط القيم في متون التاريخ ، واعتقال الأفكـار في سجـون الأمس ، ضرب من العقوق إزاء التاريـخ ذاته ونوع من السلبية الآثمة قد تستوجب علينا لعنة الآباء قبل الأبناء ••

ذلك أن أجدادنا ثاروا هم أنفسهم على ماض استفرغ منه لبّـه ، وأبوا أن يتركوا الموروثات المتحفية والمخلفات المتآكلة ترين عليهم وتسليهم عن نقائص واقعهم ، فقاموا في فترات مختلفة من تاريخهم بثورة حية خلاقة ؛ إنهم فكروا وآمنوا وعملوا عملا صادقا فكتّلوا قواهم وأحدثوا تغييرا بنيويا جذريا في كل مستويات الحيـاة وأخرجـوا مجتمعاتهم من طور الانغلاق والاجترار والتقليد الى طور الانفتاح والخلق والابداع • ان الماضي ــ بهذا المعنى ــ كان مستقبلا رائعا

ويخطىء كذلك من يروم المعاصرة بجهل الماضي والتنكر له والتحقير من شأنه ، معتمدا على الاكتشافات العلميـة

ومعطيات الثورة التكنولوجية وحتميـــة انتشـــار النمط الصناعى المتميز بالالكترونيك والسيبرنتيك ، أو ظانا أن الازورار عن الماضى انمـــا هو المهر الضروري للتقـــدم وتحقيق التنمية الاقتصادية والحضاريـــة الشاملـــة ، أو منخدعا ببعض الفلسفات التي تدعي أن اتجاه التاريـــخ يقضي بجهل الأمس الغابر والتخلص من أعبـــاء تراثـــه وتصفية حساب مقدساته !

فانه يمكننا ان نغير أشياء كثيرة ولكنه ليس فى الامكان أن نمحو من الوجود ما وجد وكان ، وما يصح بالنسبة للأفراد الذين هيهات أن يقدروا على نكران حياتهم السابقة وجهل المؤثرات والعوامـــل التى كيفتهـــم منذ ولادتهـــم ــ وقبلها ــ يصح على المجتمعات التي هي في الواقع ثمرة معطيات طبيعية وحصيلة ما مر بها من أحداث وعاشته من خبرات ونتيجة لما أوجده أبناؤها العاملون الخلاقون جيلا بعد جيل ٠

وإن الملاوذة بالحتمية التاريخيـــة للهـــروب من الواقـــع وتبرير السلبية أو للتحلل من الماضي وتمزيـــق الـــذات وتشتيت التراث ، خطأ تاريخي فادح وغباء حضاري كبير! ذلك ان التاريخ ــ كالقدر ــ لا يستجيب إلا لمن أراد الحياة ولا يذعن إلا لمن استقامت له فحولة المواجهة فصنعه وكيفه

وأخضعه الى مشيئته • وإن في استقراء أحوال الماضي وتصفح سجله الكبير منذ أن كان الانسان ، لشاهدا وتأكيدا على ما كان للعبقرية الفردية والجماعية من فضل في صنع التاريخ وتغيير مجرى الأحداث • أما الذين يفنون أعمارهم في انتظار المعجزة فلن يظفروا من التاريخ إلا بتسجيل فشلهم في الحياة وعجزهم على تحمل الأمانة •

وإذن فلا يجوز ــ ونحن في جهاد من أجل الحياة الحرّة الكريمة ــ ان ندين الماضي إدانة جائرة ولا أن نقدسه تقديسنا ساذجا أعمي ؛ فالحياة ديمومة متصلة متواصلة وتجدد مستمر ، والكائن الحي العاقل السوي الذي يحيا حاضره بحق ليس في مستطاعه أن يطمس في ذاته **ملكة التذكر وهي الحاضر الماضي** ، ولا أن يحرم نفسه من القدرة على الانتباه الى واقعه وهو **الحاضر الحاضر** ولا أن يضيق من آفاق عيشه بالغفلة عن فسحة الأمل التي هي **الحاضر المستقبل** •

وبذلك يحافظ الانسان على وحدته الزمنية ويستبقي تماسك شخصيته • إنه يتذكر ، لأن الذكرى تنفع ، من دون أن يعيش بالذكريات أو لها ، وهو في نفس الوقت يستعدلما يتوقعه ويترجاه لأن ما فات لن يعود ولأنه كما قال الحكيم اليوناني منذ حوالي خمسة وعشرين قرنا لن

نستحم في نهر واحد مرتين • وبذلك أيضا ـ لا بدونه ـ يضطلع الانسان بتبعات المستقبل في إطار الوفاء لروح الماضي والايمان بالوحدة والتضامن الحي بين الاجيال •

فما آحرانا ، ونحن نخوض غمار معركة التنمية والازدهار والمناعة بكل معانيها وما أحرى شبابنا الصاعد ـ ومنه من بلغ جهله بماضيه وماضي قومه حدا جعله لا يجدفي حاضره مايستوجب الدهشة ويدعو الى العمل الصالح أو حدا دفعه الى السخط المطلق والانسلاخ الحضاري المؤسف ـ ما أحرانا جميعا وما أحرى شبابنا بالتزام هذه المعاني والتسامي عن اللغو العقيم وما أجدرنا بالحرص على الاشياء دون الألفاظ والجوهر دون الأعراض •

ثم أليس في عيد النصر الذي يحتفل به الشعب التونسي في مطلع هذا الشهر دليل على ما سبق ؟؛ ألم يتيقظ الشعب التونسي منذ ثلث قرن الى واقعه فتذكر ماضيه ورفض الذوبان في الغير والفناء الحضاري واستلهم من هذا الماضي القوة على الرنو الى المستقبل والعزم على تغيير واقعه وبناء غده ؟ فخط بفضل كفاحه المرير وقيادته الرشيدة على صفحات سجل التاريخ الكبير ملحمة من أروع الملاحم وأضاف مغامرة رائعة الى مغامرات الانسان يتجاوز دوما منزلته ويحقق أصيل أشواقه وسخي أحلامه •

(1 جوان 1971)

السعادة حلم من احلام الشباب ،
تحققه الكهولة !...

طالعت في إحدى المجلات الفرنسية (*) مقالا عن العالم « فرانسوا جاكوب » المتحصل على جائزة نوبل للعلوم وأستاذ علم الحياة « بالكوليج دي فرانس » لم يستوقفني فيه ما اكتشفه هذا العالم من نواميس طريفة في ميدان « البيولوجيا » والوراثة ، ولا ما أضافه من معلومات الى كنز المعرفة الانسانية المتزايد ، أو أتاحه للطب العصري من وسائل علاج جديدة ، فهو واحد من آلاف العلماء الذين لا يزالون في كافة انحاء المعمورة يسعون الى حقيقة الانسان ويكتشفون أسرار الطبيعة ، ليس هو أولهم ولا آخرهم ، وقدلا يكون اوفرهم انتاجا ولا أكبرهم صيتا ، وانما أعجبتنى الروح الرفيعة التي غمرت

(*) باري ماتش ـ عدد 1153 ـ الصادر في 12 جوان 1971 .

نفسه وأنارت مسالك العمل أمامه ، والهمة القعساء التي حدت به وساعدته في تمشياته العسيرة المضنية من أجل بلوغ ما رسمه لحياته من أهداف والتزمه من مثل عليا ٠

إنه كان طالبا في كلية الطب لما داهمته الحرب العالمية الثانية وحالت دون مواصلة دراسته ، ورغم السنوات التي « أضاعها » كجندي يقاوم بكل ما أوتي من قدرة جيوش المحور ، ورغم الجروح الخطيرة التي ألزمته الفراش أشهرا طويلة ، وقلة ذات اليد التي منعته من مواصلة الطلب في كنف العيش الكريم واضطرته الى ضرب من الحياة البوهيمية ، فقد تحرف وتكسب حتى آنهى دراسته في الطب ونال إجازة في علم الحياة ٠ وأدرك الثلاثين من عمره عندما قصد معهد باستور بباريس والتمس من الاستاذ « أندري لووف » قبوله باحثا بأحد مخابر علم الحياة ٠ فلم يجد شغورا فصمد وثابر وظل يلح في طلبه كل نصف شهر طيلة ما يقرب من السنة حتى ظفر بضالته المنشودة ٠ ثم إنه لم تتوفر له التسهيلات والمرافق المادية الضرورية للبحث العلمي فقنع بالحد الادنى وعكف على البحث في غرفة صغيرة كادت ان تخلو من كل شيء الا من حرارة الايمان وقوة العزيمة ٠ ولم تمر اربعة أعوام حتى قدم أطروحته وتحصل على دكتوراه الدولة وفرض نفسه عالما وأستاذا ودخل « الكوليج دي فرانس » ثم فاز بجائزة نوبل وأصبح اليوم وهو في

الخامسة والاربعين من عمره قطبا من أقطاب علماء الحياة على المستوى العالمي ٠

فما أحرى شبابنا المثقف بالتمعن في قصة هذا العالم الكبير وقصص الآلاف من أمثاله !.إن الغرب الذي يقلده الكثير من شبابنا ويقبلون عليه اي اقبال لا يصدر فقط الازياء الغريبة والسيارات السريعة وأدب الجنس والافلام « الايروتية » والمسرحيات المثيرة ؛ الغرب ليس ماديا فقط كما يتسلى بذلك بعض الذين يعانون مرارة الشعور بالنقص وغصص العجزعن التلاؤم مع العصر فيلوذون بروحانيات الشرق أو يغمسون رؤوسهم في ضباب الماضي وقد تمسكوا بقشورة وأهملوا روحه ! وان التمدن والتحرر والتفتح والمعاصرة ٠٠٠ ليست في استهلاك ما توفر في بلاد الغرب والغفلة عن الروح الذي سادت وتسود الرواد والباحثين والعلماء والفنيين الذين يرابطون ليلا ونهارا في ساحة العلم ويحرمون أنفسهم من لذات الحياة العادية الرخيصة وينهكون قواهم في سبيل المعرفة والحقيقة ويقتحمون المخاطر للفوز بما وقفوا حياتهم على نيله ٠

إن القضية تتمثل ــ إذا تصدينا لواقع شبابنا ــ في أنهم عندما يطالعون ما ينشر في جرائد الغرب ومجلاته أو هم يشاهدون مسرحياته وأفلامه أو يجوبون أقطاره ، لا يأخذون الا الجانب السلبي ولا ينبهرون الا بنقط الضعف التي يعتبرها مفكرو أروبا أنفسهم سوسة تنخر حضارتهم

(نذكر في هذا الصدد رأي مالرو مثلا في أزمة الشباب الفرنسي والاحداث الطالبية التي جـدت في ماي 1968) بينما السعادة التي ينشدونهـا لا تحصل ــ في رأينـا ــ بالتقليد او بمجرد إشباع الرغبات المادية او الانسياق مع التيارات المتضاربة في سلبية يتفاقم معها الشعور بالعجز والعقم .

إن السعادة التى يطمح اليها الشباب ــ والمثقفون منهم بالخصوص ــ لا تكون الا إذا أدركوا أن لحيـاتهم معنـى وهدفا ، وأن قيمتهم فى تغيير الواقـع تغييـرا يجعلـه أقرب ما يكون لتصورهم الحق والخير والعدل والجمال .. ، وأن الاقدام على عملية « رفض » الواقع وإحكام الخطـة لتطويره بالفعل لا بالقول وغرغـرة الفـراغ وترديـد الشعارات الجوفاء ، يقتضي شجاعة وعزيمـة ومثابـرة وروح تضحية وصبرا جميلا على الحرمان وقدرة علىمغالبة الفتور واليأس .. إنه التحدي المقدس الذي كم يحتاج الشباب الى رفع لوائه مهما كان الموضوع والاختصاص : في السياسة ، في الاخلاق ، في البحث العلمي ، في الفن ، في الرياضة ، في الأدب ، في الطب ...

إن الشباب حده وماهيته الأمل والمستقبل وخاصيتـه الاحلام البريئة السخية ؛ والمسألة تتلخص بالنسبة إلينا في أن نجعل شبابنا يحلـم بالغـد المشـرق وينـزع الى المغامرات الانسانية المنعشة ويعرف لماذا يحيا وكيف يحيا

ويدفع الثمن ليحقق بعض أحلامه ، طالما ان السعادة ـ كما عرفها جان جوريس فيما أذكر ـ إنما هي حلم من أحلام الشباب تحققه الكهولة .

فكيف يمكن ان نكوّن شبابنا بحيث يرنو الى الأعلى ويحلم بمزيد الحق والخير والعدل في هذه الدنيا ويستسهل الصعب حتى يدرك المنى ؟ كيف نساعده على الافلات من جبروت المادة وفقر الحيوانية المدقع ونصونه من انسداد الأفق في وجهه وضياع الامل امامه ؟ كيف نقنعه بصحة رأي أبي الطيب القائل :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم
وتأتي على قدر الكرام المكارم

وبعبارة أدق أقرب الى واقعنا وألصق بظروفنا كيف نحمل شبابنا الطالبي على الثقة في النفس ، والتأصل ، والايمان بأنهم قادرون كغيرهم على الابداع والاكتشافات والمساهمة في تقدم الانسانية وازدهارها ، وانه بامكانهم رغم ضعف الوسائل وقلة التجهيز وضآلة الاعتمادات ان يجعلوا من جامعتهم منارا مشعا ومنطلقا للخلق وان يتخرج من بينهم في كل مجالات المعرفة العباقرة والأفذاذ .

كيف نربّيهم ونعلّمهم بحيث يطالعون المجلات الاجنبية فلا يتأثرون بما يغري الشهوة او يثير الطمع او يعمق

الشعور بالعجز واليأس والتبعية بل يستمدون من حياة العلماء والادباء وكبار رجال السياسة ـ ماضيا وحاضرا ـ القوة على الحلم وفحولة التحدي والنفس الطويل للجهـاد من اجل المبدأ ؟ تلك هي المسألة التي تواجهنا اليوم والتي يحسن ان ندركها جميعا فلا نضيع في متاهات الجزئيات والهامشيات ...

تلك هي المسألة !! ..

(1 جويليـة 1971)

مع المؤتمر الثامن للحزب

لئن تسمى الحزب الحر الدستوري التونسي « بالحزب الاشتراكي الدستوري » في مؤتمر بنزرت وأقر المؤتمرون بالاجماع ـ حينذاك ـ الاشتراكية مذهبا فإن المؤتمر السابع للحزب « لم يكتف بتبني الشعار بل تجاوزه الى التحليل والضبط بحيث تخدم الاشتراكية الانسان التونسي وتبقى طريقة ونظام عمل يوفران الازدهار وأسباب الكرامة من دون ضغط ولا مسخ مجاني فيكون الانسان هدفا وتبقى الاشتراكية وسيلة » ٠

هذا ما أكدناه منذ سبع سنوات بالضبط غداة « مؤتمر المصير » (غرة نوفمبر 1964) (*) وهذا ما أثبتته الاحداث والتجارب في تونس وفي كثير من البلدان

(*) راجع : من وحي الفكر ، ص 62 ٠ منشورات الفكر (1970)

وخاصة في تلك التي تمسكت بالعقائدية الجامدة والواحدية الفكرية المتحجرة واعتبرت الاشتراكية منظومة محنطة من المعاني الجاهزة والشعارات البراقة فأصبح الناس فيها لا يفكرون بقدر ما يتغرغرون بالفراغ ولا يعتبرون الواقع بقدر اعتبارهم للنظريات ويهملون في آخر المطاف ـ وباسم العلمانية ـ التقيد بأدنى ما يفرضه الروح العلمي من التجرد والدقة والضبط والتزام نواميس الطبيعة وطبائع البشر ٠

لذلك يسرنا ـ عند التمعن في ميثاق الحزب ـ ان نسجل غداة المؤتمر الثامن المنعقد بالمنستير من II الى I5 اكتوبر I97I وفاء القوى الحية في البلاد لأنبل ما تنشده الاشتراكية وهو كرامة المواطن التى لن تكون الا اذا توفر له حد أدنى من الاستقلال الاقتصادي والعدالة الاجتماعية والتعادل في الحظوظ والتعليم والثقافة والصحة وكان جزاؤه على قدر عمله وانتاجه ، ووفاؤها كذلك وبالخصوص الى أعز ما تقتضيه حرمة الانسان وهو الحرية التي من دونها لا تكون المسؤولية ولا الانسانية ولا الحياة الحق ، بل ان تحرر الانسان الاقتصادي ورفاهيته الاجتماعية ووقايته من الاستغلال والاحتكار والضيم ٠٠ كلها وسائل تمهد الى ان يبلغ الانسان أعلى مراتب الرفعة المعنوية ويحقق انسانيته ٠ وهو مطلب لم يزل الحزب يسعى اليه منذ أن أسسه الرئيس الحبيب بورقيبة سنة

1934 ، لم يثنه فوزه باستقلال البلاد عن مواصلة السير بل ضاعف ذلك طاقته وجدد رسالته واضفى على قيادته أبعادا أخرى ليس أقلها شأنا ولا دونها قيمة ابداع المستقبل والتصادى مع أحلام الاجيال وأمل الجماهير ٠

وان المستقبل الذي تصبو اليه الجماهير وتحلم به الاجيال الصاعدة لا يكون ـ من حيث القيم الروحية والمنزع المذهبي ـ إلا تونسيا وعربيا إسلاميا ، بحيث يضمن لهذه الأمة المناعة ويحفظ لها ملامحها ومقوماتها الاساسية من دون ان يعني ذلك انزواء ولا انغلاقا ، بل ان التنمية الاقتصادية والحضارية الشاملة تقتضي النهضة العلمية والتكنولوجية والاخذ بأسبابها ٠ وانما الذى يجب الحرص عليه والاحتياط من الغفلة عنه ، وسط طوفان النظريات ، هو ان تبقى لهذه الأمة هويتها المتميّزة وكيانها الراسخ وطرافتها الذاتية بحيث تقدر على هضم خير ما تجود به الحضارات العصرية والعلوم والتقنيات الحديثة وامتصاص الوارد او المستورد سواء من الغرب أو من الشرق ، ثم هضمه وتحويله الى غذاء مستساغ وطاقة ايجابية خلاقة ٠

على أن شيئا من ذلك لن يكون اذا لم توجه برامج التعليم والتربية والحركة الثقافية ونشاط الشباب في البيئة الثالثة ٠٠٠ الوجهة القومية السديدة ٠ لذلك كانت اللائحة الاجتماعية الصادرة عن المؤتمر الثامن للحزب من

اوضح وأدق ما صدر في هذا المعنى عن كافة المؤتمرات السابقة . فقد جاء في مجال التربية بعد التعبير عن الاعتزاز بما حققته الحكومة التونسية منذ الاستقلال في خصوص نشر التعليم وتعميمه والتمعن في النتائج الكيفية .. « أن التعليم في تونس لا يمكن إلا ان يكون قوميا في الاسس الحضارية التي يستند اليها ، قوميا في الاغراض الثقافية والاجتماعية والاقتصادية التي يعمل على تيسير إدراكها ، قوميا في لسانه العربي ، وان يستمد أصالته من الحفاظ على مستنداته الحضارية ومن الاستفادة من الرقيّ الفكري في أشمل مظاهره .. يذكر المؤتمر بأن العربية هي اللغة الرسمية للدولة والأمة حسبما نص عليه الدستور ويوصي الحكومة بأن تسنّ في أقرب الآجال عقب هذا المؤتمر خطة قومية عامة يقع تحقيقها على مراحل ميسورة ترمي الى جعل العربية لغة التعليم والادارة والبيئة الثقافية والاجتماعية بالبلاد » ، كما أكد المؤتمر ان الاستقرار المنشود في التربية القومية انما هو « استقرار في اختياراتها واغراضها وفي محتوياتها وأساليبها » .

أما فيما يتعلق بالثقافة فقد أكد المؤتمر « ان الثقافة باعتبارها احدى الدعائم التي تقوم عليها عملية النهوض الشاملة لكل المقومات الاقتصادية والفكرية والروحية معا هي غاية في حد ذاتها تعبر عن ذاتية الأمة ، وتربط حاضرها بماضيها ومستقبلها .. » وأوصي خاصة

« بمواصلة العمل للمحافظة على الاصالة وابراز الذاتية والشخصية القومية احياء لحضارتنا العربية الاسلامية حتى تستطيع مواكبة العصر » ٠٠٠ كما أوصى ٠٠٠ « بالسعي الى إبراز ثقافة قومية لها مقوماتها الاساسية وخصائصها المميزة ودعائمها المتينة » ٠

وكذلك في خصوص الشباب فقد عبر المؤتمر عن إيمانه « بوجوب غرس جملة من القيم والخصال الاخلاقية السامية في شبابنا الطالع حتى يكون ذخيرة ، والتبصّر وقوة العزيمة والتجرد وتغذية عناصر الشباب بالاصالة القومية والمبادىء الحزبية والروح النضالية ليحتل المكانة الاولى ويقوم بدور المحرك الاساسي داخل المجتمع » ٠ ويرى المؤتمر وجوب تقوية شخصية الشباب و « جعل هذه الشخصية منبثقة من قيمنا الروحية والحضارية ومتماشية وواقع بلادنا المتجدد » الامر الذي يكفل « تكوين شباب ملتزم متطور ومؤمن بمستقبل الأمة » ٠

وقد يرى بعض المنبهرين ببضاعة الاغيار او المتأثرين الى درجة الانتماء بالمذاهب الاجنبية شططا في تأكيد القومية او خطرا يهدد بالتحجر والانغلاق وانسداد الآفاق ٠ ولا يسعنا الا الاشفاق على هؤلاء المنبتين ، ضحايا الاستعمار ، وأيتام الوطنية الصميمة ، والتأكيد لهم — ولغيرهم — بأن الاصالة كما وضحها المؤتمر عين ما تريده الأمة وينادى به الضمير القومي ويرنو اليه خيال

شبابنا الطالع الذى يأبى التفسخ ويرفض الاستهلاك السلبي ولا يريد شيئا كما يريد ان تكون له شخصيته المتميزة ولا يطمح الى شيء كما يطمح الى المساهمة في تجديد القيم القومية وتنمية الفكر التونسي وتجذيره واشعاعه ·

فاذا ما اتفقنا على الهدف البعيد وكانت لنا أرضية عقائدية ومذهبية مشتركة واتحدت مشاعرنا وتفطنا الى عوامل الضعف واخطار الزيف والزيغ واذا ما خرجنا من المؤتمر الثامن أوفر ثقة وأعمق محبة وأكثر التفافا حول بورقيبة ، الرجل الذي خلق الحزب وأيقظ الجماهير ونظم صفوفها ومكنها من أن تحيا وتجاهد في سبيل مثل أعلى هو الاستقلال السياسي ثم الكرامة والحرية وإذا بقينا على ايماننا بالوحدة القومية وتجدد رسالة الحزب ··· وجب أن نقوى على الانضباط والانسجام والانقطاع للصالح العام ونجتنب كل ما من شأنه ان يخلخل القيادة ويمس بهيبة الدولة التي من دونها ومن دون اشعاع رجالها واستقامتهم ونظافة يدهم لا يستتب أمن ولا يكون استقرار ولا حرية أو ديمقراطية ·

لقد صادق المؤتمر بالاجماع على ميثاق يتعين علينا جميعا ان نتمسك به وأقر برنامجا اقتصاديا طويل النفس حدد معالمه وضبط محتواه السيد الوزير الاول في تقريره الضافي الى المؤتمرين فمن الواجب أن نعمل على تحقيقه

ونوفر له اسباب النجاح ، وقد ذكر المؤتمرين ، كل المؤتمرين بدون استثناء ، بالأصول الحضارية والقيم العليا التي يجب أن تلتزمها سياستنا التربوية والثقافية حتى تنشأ الاجيال الصاعدة على الوفاء والتجدد فلا أقل من الاخلاص لما نادى به ضمير الأمة والاقدام على ما لا بد منه اذا أردنا لوطننا المناعة والسؤدد على المدى البعيد •

وهكذا تبدو قضية الاشخاص ثانوية عرضية ؛ انها لا تمت الى الديمقراطية بأدنى سبب لان الاحزاب تختلف باختلاف المذاهب وتتعدد بتعدد المنازع والنظرة الى الوجود • أما نحن في تونس فكل شيء يجمعنا : الدين ، اللغة ، التاريخ ، وحدة النضال ، الآلام والآمال المشتركة ، التصور الواحد للكرامة الانسانية والاتفاق الشامل على ضرورة الوحدة القومية • • واذن فيجب ان نجتنب التعددية الفئوية التي لا تقوم على الاختلاف في المبادىء بل تتفرع عن الانتماء للاشخاص والعصبية الطائفية او الجهوية والقبلية وهي شر من تعدد الاحزاب والنقابات لأنها عين الجاهلية والتخلف ، وأبعد ما تكون عن جوهر الديمقراطية ، والحياة السياسية السليمة •

واذا كان الطموح الفردي ــ في مجال السياسة خاصة ــ أمرا طبيعيا فعلى شرط ان يظل مدخلا لتحقيق غاية تتجاوز الافراد انفسهم وإلا أصبح مطمعا ورذيلة وشتان

بين المطامح التى تهدف الى مـا وراء الذات الفرديـة والمطامع التي تحركها الأنانية !

وعلى ضوء ما سبق وجب ان نتذكر مـا اوصـى بـه الرئيس الحبيب بورقيبة فى افتتاح المؤتمر الثامن للحزب من وجوب التحلّي بالاخلاق الفاضلة إذ السياسة طريـق الى الخير وبذل ونكران ذات ؛ والسياسي الاصيل المخلص إذ يحلم بالمستقبل ويسعى الى مغالبة التخلـف والسيـر بوطنه الى ما يحبه ويرضاه ٠٠ هو الذي يقدر على التمسك بالعقل وتسليطه على الهوى الذي هو آفته وجعله « متبوعا لا تابعا وزماما لا مزموما » كما قد يقول أبو بكر الرازي ٠

فعسى أن يكون القادة في مستـوى الامانـة القوميـة الخالدة وعند حسن ظن الجماهير الواعية حتى تـواصل الأمة مسيرتها نحو الكرامة والمناعة وعسـى ان ينهـض رجال الفكر والأدب برسالتهـم الخطيـرة في مجتمعهـم النامي التائق الى العزة والسؤدد والانسانية السليمة ٠

(I نوفمبر I97I)

أزمة الحضارة
والنظام التربوي المنشود

من اعراض الازمة الحضارية التي يشكوها عالـم
وتتجرع مرارتها الاجيال الصاعدة تفاقم الالتباس
ـل بالقيم ، والغموض المتزايد حول معنى الحيـاة
ـاها ، ومدلول التقدم وحقيقته ، ومفهوم السعادة
. الانسان منها ، وسيطرة البشر على أمـور العصـر
تهم على مواجهة مصيرهم ·

ـد اختلطت السبـل وحلـت الحيـرة محـل اليقيـن
ـلمئنان الى الغـد ، وانتشر الأدب المأسـوي ، وعمت
ـة التشاؤم في الانتاج الفكري ، او كادت ، فاعتصم
ـالماضي ـ على علاته ـ وتعصبوا له وهربوا من تبعات
ـر ومغامرات المستقبل ، فاستبدوا بذلك قيادة الاحياء
ـات ؛ واعتبر قوم آخرون أنفسهم في حل من قومهم
الانسانية التي ينتسبون اليها وعبدوا الذات ولاذوا

باللـذات ورددوا مع النواسي ان الدهـر لا يقصـر الا بالاقبال على الدنيا والانهماك فيها ، ولعل بعضهم وجد فى العنف والمخدرات والجنس تعويضا عن فشلـه وتسليـة لانهزامه فاستعاض بذلك عن الاعـلى بالادنـى ، وازداد عبودية من حيث أراد التحرر والانعتاق ٠

ولئن اتفق أكثر الملاحظين والدارسين على تشخيـص هذه الظاهرة واطنبوا في وصفها فانهم ذهبوا في ضبط أسبابها مذاهب شتى ، وتباينوا فى تبين نتائجها القريبة والبعيدة ٠

على ان الاجماع يكاد يحصل حول ملاحظـة احتضـار «الايديولوجيات» وأزمة الاديان وصمت المذاهب الفلسفية او عجزها عن الابلاغ والانارة والاشعاع في عصر طغت فيه الوسائل السمعية البصرية والطرق التكنولوجية على الشباب بالخصوص فأخذت بلبـه وصرفتـه عن المطالعـة الرصينة والتروي والتأمل ٠

وغير مجد ان ندخل في جدل لا طائل من ورائه لمعرفة ما اذا كانت الازمات التربوية التى تعانيها معظم البلدان ـ متخلفة كانت او متقدمة ـ ناتجة عن الازمة الحضارية أم هي مظهر من مظاهرها او سبب من اسبابها ٠ فإن الذي لا شك فيه هو انه لا يمكـن السيطـرة على الحضـارة ولا

تجديدها او تجاوز سلبيتها دون نظام تربوي أصيل متماسك ، متكامل ، ومتناغم مع نداء المضارع وأشواق المستقبل .

لذلك لا نرى طريقا أضمن ولا طريقة أنجع للسيطرة على هذه الازمة الحضارية ومغالبة عناصرها السلبية وتجنيب البشرية أهوالها ، من العناية بشؤون التعليم والاهتداء الى النظام التربوي الكفيل بتوجيه الناشئة الى الغذاء الروحي والعقلي والعاطفي المستساغ وإعدادها بحيث تنمي شخصيتها وترهف شعورها بالكرامة الذاتية والحرية الفردية وفي آن واحد تعمق انتسابها الى الجماعة وتضامنها معها وتقديرها لمسؤولياتها .

ذلك ان كل نظام تربوي شامل جدير بهذا الاسم ينطوي فى الواقع على مشروع لحضارة ما ، ويخطط لنمط بشري بعينه ويكيف في آخر الامر مصيرا جماعيا مضبوطا ولا تكاد فترة ثورية او انتقالية تمر بمجتمع ما ـ ماضيا وحاضرا ـ دون ان تصبح فيه التربية مسألة المسائل وحجر الزاوية بالنسبة لكل بناء جدّي وتخطيط محكم .

واذا كان ذلك كذلك فإن البلاد المتخلفة بسبب ما قاسته من ويلات الاستعمار واستهدفت له من ضروب المسخ والتسميم أدعى الى الحرص على وضع نظام تربوي ملائم ، يربط بين الماضي والمستقبل ويضمن حرمة الشخصية

الوطنية ورسوخ المقومات الذاتية ويؤهل الشباب في نفس الوقت الى المعاصرة والقوة على مواجهة مقتضيات الربع الاخير من القرن العشرين ٠

ولا شك ان تعميم التعليم وديمقراطيته من الضرورات الاكيدة وقد بلغت بلادنا فى هذا المجال شأوا بعيدا ممـا أوجب الاعتزاز والتنويه ، ولكن ذلك لا يكفي ولا يشفي من الفاقة الكبرى ولا يضمن السيطرة على الازمة الحضارية التى يشكوها العالم اليوم ٠

إنه التحدّي الكبير الذي لا مناص لنا من مواجهتـه اذا أردنا الحياة والمناعة ورمنا المساهمة فى تقدم الانسانية ٠ وهو الرهان التاريخي الكبير الذي يغرينا بالاقدام عليه ولا بد من الفوز به ، **ما أمسكنا عن استيراد ثمار الحضارة وعزمنا على زرع بذورها بانفسنا ٠**

(١ ديسمبر ١٩٧١)

اِقـــرأ ...

قد يذهب الظن ببعض الناس الى ان عهد الكتاب ولـى وانقضى فى هذا النصف الثاني من القرن العشرين حيث طغت الوسائل السمعية البصرية على سائر أساليب المعرفة والتبليغ الاخرى واستبـدت السرعـة بحيـاة الانسـان العصري فاصبح لا يكاد يجد متسعا من الوقت ليتغذى من الكتاب وهو وعاء « مليء علما وإناء شحن مزاحا وجدا » كما يقول الجاحظ ·

والواقع ان الكتاب ـ رغم منافسة الاذاعـة والتلفـزة والاسطوانة ـ لاتزال سوقه نافقة وصناعتـه مزدهـرة رابحة ولا يزال الاقبال عليه متزايدا مطردا ، ناهيك أن 500.000 كتاب جديد ينشر فى العالم كل سنة وأن ثمانية مليارات من النسخ تطبع في كل عام ، الى جانب الجرائد والمجلات بكل انواعها ، بل ان مستوى الامم اصبح يقاس

ـ فيما يقاس به ـ بالنسبة الموجودة بين عـدد سكانهـا وأهمية الاعتمادات المرصودة للمكتبات ٠

ذلك ان الكتاب هو الغذاء الضـروري وأداة التثقـف والرقي العقلي والروحي لجميع البشر منـذ ان انتشـر التعليم ولم تعد الثقافـة حكرا وامتيـازا او محظلوظيـة لطبقـة دون طبقـة و بـلاد دون اخـرى ، واقتضـت الديمقراطية أن تتقارب حظوظ الناس من المعرفة و تتكافؤ فرص النجاح والتفوق بينهم جميعا ٠

فليس من باب الصدفة إذن أن قرر المؤتمر العام لمنظمة اليونسكو ـ في دورته السادسة عشرة ـ أن يكون عـام 1972 « السنة العالمية للكتاب » وأن تشرع معظم الامم منذ مطلع هذا العام في العمل الايجابي بمقتضى التوصيـات الصادرة عن هذه المنظمة الدولية ومختلف اللجان والهيآت الفنية التابعة لها ، وان تتعاون مع اليونسكو الاتحادات الدولية لجمعيات المؤلفين والموسيقيين والناشرين و باعـة الكتب ٠٠٠

ولعل الغرض الاول الذى يريد الجميع بلوغه انما هو تشجيع التأليف والترجمة ورعاية حقوق المؤلفين والزيادة فى انتاج الكتب واحكام توزيعها وهذا يقتضي الحث على القراءة وتيسير الطباعة والتخفيض من اثمـان الكتب

لذلك كان شعار هذه الحملة العالمية التي تتزعمها اليونسكو « كتب للجميع » .

ونحن نريد ان نلاحظ في هذا الصدد انه اذا كان حظ العالم المتقدم من الكتب ــ تأليفا وصناعة ومطالعة ــ في تزايد متواصل فإن العالم الثالث يشكو ــ في هذا الميدان أيضا ــ تخلفا شديدا ويستهدف الى خطر كبير .

واذا بان التخلف لكل الناس بسبب قلة القراء الناتجة عن ضعف نسبة المثقفين وكساد صناعة الطباعة وفساد مسالك التوزيع ... فإن وجه الخطر كامن في فرض هذا العالم المتقدم بضاعته الثقافية على الشعوب الضعيفة واغتنام هذه الفرصة ــ التي له فيها مسؤولية تاريخية لا تنكر ــ لتكييفها وتوجيهها الوجهة التي فيها مصلحته ودوام هيمنته وسلطانه .

وازاء هذا الواقع المر لا يسعنا الا أن نستبشر ببادرة اليونسكو ونعلق عليها عريض الآمال لا لما ستحققه فقط من مزيد التوعية بفوائد الكتاب والتغلب على الصعوبات التي تعوقه عن النشر والتوزيع .. بل كذلك وبالخصوص لتصون ثقافات الشعوب وتأخذ بيدها كي تحقق نهضتها من دون ان تطمس طرافتها وتفقد شخصيتها وان تشجع أيضا الترجمة والاقتباس من كنوز حضارتنا الى لغات البلاد الغنية التي كثيرا ما تجهلنا او تتجاهلنا ، وانه علينا

في هذا المقام ان نقوم بجهد جبار كي نعرف بأنفسنا ونترجم آثارنا الأدبية والفنية والعلمية القديمة والحديثة الى اللغات الحية الواسعة الانتشار ·

لأنه بذلك يوجد الحوار بين الامم وتتلاقح الثقافات ويغنم الفكر البشري غنما كبيرا ·

وعسى ان يتواصل مجهود اليونسكو كامل هذا العام والاعوام القادمة لان الكتاب اصبح ضروريا للبشر ضرورة الماء والهواء ولان كل شعب محتاج في قوامه الروحي وفي انسانيته الى معرفة خصائص الشعوب الاخرى الثقافية والروحية · طالما أن أسطورة تفاضل الثقافات قد تبددت وبان زيفها كما تبددت اسطورة تفاضل الاجناس وظهرت بشاعتها من الوجهة الاخلاقية والحضارية ·

وبذلك تتضاءل العنصرية الناجمة عن التجاهل المتبادل والكبرياء والتعالي ويحل محلها التقدير والاحترام فتزداد حظوظ التفاهم والسلم والوئام بين الناس أجمعين ·

(I فيفري 1972)

على هامش زيارة إلى اليابان

أتيح لي في الشهر الفارط أن أقيم باليابان عشرة أيام بمناسبة مشاركتي في أشغال الدورة الثانية والسبعين للجنة الأولمبية الدولية ، ولم أشاهد من شتى مدنها العملاقة سوى طوكيو وسابورو ولم أكتشف من معالمها الا ما سمح لي به برنامج الاقامة المثقل ولقاءات المؤتمر الرياضي المطردة • الا أني وقفت على بعض خصائص هذا البلد البعيد وتحادثت الى نخبة من رجالاته واكتشفت في أهله جانبا بشريا مشرقا جذابا لم أتعرف عليه ولا تعاطفت معه من خلال ما سبق لي أن طالعته عن اليابان •

سألت موظفا ساميا في وزارة الخارجية اليابانية بعد أن حدثني عن دراساته الجامعية التي انهاها منذ عقدين هل تدرس العلوم الصحيحة من رياضيات وفيزياء وكيمياء وعلم حياة باللغة اليابانية في جامعاتهم ؟ فاستغرب سؤالي

وقال في لغة فرنسية سليمة : إننا منذ أول نهضتنا ولحاقنا بالعالم العصري لا نزال ندرس كل المواد بلغتنا القومية في كل درجات التعليم • وأضاف أنه إذا أسف لشيء فإنما يأسف لما يطرأ من بطء في نقل الاكتشافات العلمية والتكنولوجية من اللغة اليابانية ـ التي بها يفكّرون ويعبّرون ويسجلون ما يستنبطون ويبتكرون ـ الى اللغات الحية العالمية •

ورجعت بذاكرتي الى تاريخ هذا البلد فاستحضرت ما كان يعانيه منذ حوالي قرن من وحشة الانعزال عن العالم وغربة الانطواء على النفس ويشكوه من وصمة التخلّف وعار التحجّر والعقم ، وكيف تمّ الاصلاح بفضل امبراطور عبقري ووزير فذّ في أواخر القرن الماضي فزال الاقطاع ونشطت الفلاحة والصناعات وتحققت النهضة التعليمية والثقافية ولم يزل اليابان في مجهوده الجبار من اجل الكفاية والازدهار والمناعة حتى أصبح اليوم ـ رغم ما تجرعه من مرارة الانهزام في الحرب العالمية الثانية خاصة ـ أقوى بلاد العالم المصنعة بعد الولايات المتحدة •

على أن الذي يهمنا بوجه أخص من هذه النهضة هو أن اليابانيين عندما أفاقوا من سباتهم التاريخي الطويل لم يقلدوا الغير في لغته وحضارته واسلوب عيشه • إنهم أخذوا عن الدول المتقدمة الصناعات والاساليب الفنية

والمناهج الناجعة ولكنهم احتفظوا بروحهم وظلوا غيورين على شخصيتهم ، ولئن أوفدوا الطلبة الى الخارج واستقدموا البعثات العلمية الى بلادهم ، وتعلموا اللغات الحية الواسعة الانتشار فان شيئا من ذلك لم يركب فيهم عقدا ولا أورث فى نفوس أجيالهم الطالعة أمراضا نفسية وحضارية ليس أخفها وطأة ولا أقلها أثرا التنكــر للــذات والشــك فى الكفاءات القومية والاستهتار بأقدس المقومات الوطنية •

وبذلك يقوم الدليل مرة اخرى على أن ثمن المعاصرة وضريبة الخروج من التخلف ليسا ـ حتما ـ فى تقليــد القوى واستيراد مذاهبه وأساليب عيشه ، وأن الاصالــة لا تتضارب مع التقدم العصري والتطور التقنــي ، وأن الامر هو أولا وآخرا في معرفة ما اذا توفرت في أبنــاء الأمة الطموحة الى الحياة الحق إرادة البقــاء والثقــة في النفس والقدرة على الهضم الحضاري والايمان بحتمية المساهمة الطريفة الايجابية في إنماء الحضارة الانسانية •

ومن نكد الدهر ان نفرا من طلبتنا ومثقفينا لا يزالون يجترون الشعارات الاجنبية ويتحمسون للمذاهب الغريبة عن طبيعة الاشياء في بلادنا ويتعلقون بالتافه من القضايا الفرعية وهم في غفلة عن المعركة المصيريــة من اجــل الاستقلال الثقافي الحقيقي •

والحال ان التاريخ يتيح لشبابنا اليوم شرف المساهمة الفعالة في كسب المناعة الحق لهذا الشعب ويفسح أمام كل العزائم الصادقة والنفوس السخية والعقول الغضة طريق المغامرة الانسانية من أجل خلق حضارة أصيلة •

ان التاريخ يتيح لهم هذا الشرف كما اتاحه لأجيال الثلاثينات والاربعينات والخمسينات فكافحت وأبلت البلاء الحسن من أجل تحرير الوطن وتخليصه من وصمة العبودية السياسية وسرطان الاندماج والذوبان •

أما الذين يعلمون شبابنا التائه السحر لمرض في النفس او بدافع عقائدى زائف فأرجو أن لا يكون مثلهم كمثل جحا الذى بلغه يوما اشتعال النار في قريته فقال : أرجو ألا تكون في بيتى فلما قيل له إنها في بيته أجاب : أرجو ألا تكون فى غرفتي فلما أكدوا له أن غرفته تشتعل صاح : إذن أرجو ألا تكون في جسدى !!

أليس من الاجدى بأولئك وهؤلاء ــ عوض التقليد الاعمى وسلوك الببغاوات او اللعب بالنار •• أن يتأملوا في تجارب الأمم التي خلقت حضارات وبلغت أعلى مراتب الرقي العلمي من دون مسخ لعبقريتها الذاتية ؟ إن في مثال اليابان عبرة لمن يعتبر !

(I مارس 1972)

مع مجلة «التربية» الفرنسية

إن تفتحنا على الخارج وتطلعنا الى ما يكتشف وينشر ويذاع في دنيا التربية والثقافة والفكر ، واعتبارنا بما تتكشف عنه العبقرية الانسانية وتزكيه التجارب البشرية ٠٠٠ من الأصول القارة التي جعلناها ـ إلى جانب تمسكنا بأصالتنا والذود عن مقوماتنا وطرافة شخصيتنا ـ شرطا أساسيا للخروج من هوة التخلف التي تردت فيها شعوب العالم الثالث ، ومدخلا ضروريا الى التعاون الخلاق بين كافة الافراد والامم وبالتالي تحقيق إنسانية الانسان ٠

على ان هذا التّفتح لا يمكن ان يكون في اتجاه واحد ، تتمسك به وتسعى اليه الشعوب المتخلفة ، من باب « في بيته يؤتى الحكم » ! ، بينما تواصل قافلة الدول المصنعة التي حققت ثورتها العلمية والتكنولوجية سيرها

الحثيث غير مكترثة بمصير ثلثي البشرية التّعيس بل معتبرة اياهم سوقا رابحة لبيع منتوجاتها وما بار من أسلحتها وعتادها الحربي الرهيب !

ولئن امكن تعليل هذه الظاهرة الخطيرة بمنطق الكسب المالي والرأسمالي او حركية التوسع الايديولوجي الممهدة بدورها الى الامبريالية الاقتصادية والهيمنة السياسية ، فإن لرواسب التاريخ واتجاهات المذاهب التربوية ومحتويات برامجها دوراً تكمن خطورته بالضبط في ضعف الشعور بهذه السلبيات والرغبة عن معالجتها واستئصال جذورها .

وكم قدرنا حق قدرها المجهودات الكبيرة التي لا تزال منظمة اليونسكو تبذلها كي تحمل المسؤولين عن التربية والثقافة والمربين عامة على مراجعة برامج التاريخ لتطهيرها مما تورثه في نفوس الاجيال الصاعدة من تعصب وكراهية وحقد ومركبات استعلاء وغرور ، والتعريف بما ابتكرته مختلف الحضارات في شتى العصور من روائع الفكر والأدب وساهمت به في تقدم العلوم والفنون ، وكم اعجبنا بالنداءات الصادرة في هذا المعنى عن ثلة من كبار العلماء والمفكرين بالعالم المتقدم الذين يؤكدون على وجوب التقدير المتبادل لقيم الشرق والغرب ونشر كافة اللغات الحية والكشف عن عبقرياتها الذاتية ، إذ الحروب والشحناء ونزعة التفوق والسيطرة

كامنة فى عقلية البشر ونابعة من جهل واحتقار بعضهم لبعض فوجب ان تقاوم في هذا المستوى أي بواسطة التربية والثقافة أساسا ومن البداية • وفي هذا الاتجاه نبارك الانجاز الكبير الذي حققته منظمة اليونسكو والمتمثل في نشر « تاريخ الانسانية » في تسعة مجلدات بإشراف نخبة من كبار الاخصائيين الذين تمحّضوا للعلم والتحقيق وتنزهوا عن الهوى لإبراز جهد الانسان وسعيه مدى الاحقاب •

لذلك لا يسعنا إلا أن ننوه بما نشرته مجلة « التربية » الفرنسية الشبيهة بالرسمية فى عددها 132 المؤرخ فى 9 مارس 1972 حول ضرورة تعليم اللغة العربية فى المعاهد الفرنسية تحت عنوان « لماذا لا نتعلم اللغة العربية » •

وجاء فى هذا المقال بالخصوص : **إن بعض الارقام أكثر دلالة من الخطب المسهبة • وإذا انصرف أكثر من 75 بالمائة من تلامذة المعاهد الثانوية الرسمية الى درس اللغة الانقليزية فهذا أمر طبيعي لا تحتاج دوافعه الجلية الى مزيد تبسط في حدود هذا المقال • وكذلك الامر بالنسبة للغة الالمانية التى تاتي في المرتبة الثانية بل ان اقبال آلاف التلاميذ على اللغتين الاسبانية وحتى الايطالية أمر ندركه لاعتبارات شتى • واخيرا نجد مبررا لتزايد إقبال التلامذة على اللغة الروسية • لكن الذي يثير تساؤلاتنا هو ألا يتجاوز عدد الذين أقبلوا على درس اللغة العربية**

بكامل معاهدنا 400 تلميذ ! والحال انها لغة مائة مليون عربي واللغة الدينية لخمسمائة مليون مسلم ! ثم وجب أن نذكر أنه يوجد بفرنسا 200'000 طفل جزائري ـ دون التعرض الى غيرهم من الاقوام ـ بلغ 50'000 منهم سن الدراسة الثانوية ٠

ويلاحظ المقال ان تدريس اللغة العربية موكول أساسا الى مبادرات مديري المعاهد وطلبات أولياء التلاميذ ، وهنا تكمن المشكلة : « **ان اختيار اللغات يقع على أساس المصلحة والسهولة النسبية بحكم التقاليد وكذلك الجهل والافكار القبلية ، مما جعل لغات الغرب محظوظة !** »

وتذكر المجلة ان عدد اساتذة اللغة العربية بفرنسا لا يتجاوز الثمانية عشر ، عشرة منهم مرسمون وثمانية وقتيون ، وأن المترشحين لمناظرة التبريز لا يتسابقون منذ 1968 الا من أجل منصب واحد فى السنة مما لا يشجع اقبال الطلبة الفرنسيين على دراسة لغة الضاد ٠

وأعجبتنا صراحة المجلة وشجاعتها وكذلك أريحيتها عندما عبرت عن أسفها الشديد بل استنكارها لهذه الظاهرة ! ودعت إلى ان يدرك القوم ان المصلحة تملي عليهم أن يتصلوا بالعالم العربي ويدعموا علاقاتهم الثقافية به

و « **يوجدوا حوارا مع هذه الحضارة المجيدة التي طالما سطع نجمها في دنيا العلوم والرياضيات والآداب والفلسفة والشعر** » وان ييسروا كذلك الاتصالات التجارية والاقتصادية واخيرا عبرت المجلة عن تخوفاتها اذا ما استمر الحال على ما هو عليه من « أن تقع المبادلات في المستقبل بين فرنسا والعالم العربي عن طريق اللغة ... الانقليزية » .

وإن نشر هذا المقال في مجلة تربوية شبيهة بالرسمية وتحلية كامل غلافها بصورة من مخطوط عربي ذي خط مغربي جميل ، ليدعونا الى التفاؤل لاننا بقدر ما نؤمن بضرورة التعاون الخلاق بين بلادنا وفرنسا ، وبالحوار الايجابي بينها وبين المغرب العربي خاصة والعالم العربي الاسلامي عامة ، ونؤمن بضرورة تعلم اللغات الاجنبية وفي مقدمتها اللغة الفرنسية التي نقدر عبقريتها وفضلها على الفكر البشري عامة ، إيمانا منا بضرورة التفتح ومواجهة كذلك للتحدي العلمي والتكنولوجي الذي يفرض اليوم نفسه علينا فرضا ، نعتقد ان نشر لغتنا العربية بفرنسا يساهم في تأليف قلوب شبابها الصاعد نحونا ويهيئه الى التفتح على العالم العربي وييسر الحوار الايجابي بين شعوبنا ويمهد الى الصداقة الحق المبرأة من شوائب الهيمنة والعنصرية مهما كان مصدرهما ــ هنا او هناك ــ ويجعل من فرنسا أمة عظيمة في قلوب الشعوب وخاصة منها شعوب البحر المتوسط .

وما دمنا متمسكين فعلا بالتعاون الثقافي الا يمكن ان نتصور يوما يتم فيه انتداب ثلة من أساتذة المغرب الكبير للتدريس بمعاهد فرنسا على غرار ما هو موجود الآن بالنسبة للاساتذة الفرنسيين بربوعنا ؟ ان مقال « التربية » يؤكد ــ فى نظرنا ــ عزيمة المسؤولين على تلافي منزلة اللغة العربية « المتواضعة » في المعاهد الفرنسية ويبشر بيوم قريب تصبح فيه عبارة «التعاون» تدل على معنى المشاركة والتبادل في أسمى وأخصب معانيهما .

ولن نزال بحول اللّه نعمل من أجل الصداقة الحق والثقافة الحق والسلم الحق ، الى جانب اخواننا وزملائنا الاحرار حيثما كانوا ، فى الضفة الشمالية او الجنوبية لهذا البحر المتوسط ، مهد الحضارات الكبرى والأديان السماوية ومنبع القيم العليا الخالدة !

(I افريل 1972)

هل يجب نسف المدرسة ؟

هذا هو السؤال الذي أخذت تردده فئة من المنتسبين الى التربية والسياسة أصابتهم لوثة الثورية المحمومة ودهتهم داهية الهذيان المذهبي بدعوى بناء المستقبل على أنقاض الماضي والادبار عن الحاضر ·

وهو العنوان الذى قدمت به جريدة « لوموند » الفرنسية منذ ثلاثة اسابيع تقريبا ما سمته « ظاهرة إليتش » القسيس النمساوي الذي ألف في السنوات الاخيرة كتابين بعنوان « تحرير المستقبل » و « مجتمع بلا مدارس » فلفت اليه الانظار واستقطب اهتمام المسيحيين اليساريين من نزعة مجلة « اسبري » الفرنسية التي نشرت له ثلاث مقالات (1) ومجلة « توجيهات »

---

(1) ديسمبر 1970 وجوان 1971 ومارس 1972 ·

الكاثوليكية التي خصته بدراسة هامة في عدد جانفي الماضي ، كما اتفق ـ في آخر المطاف ـ مع رأي جماعة من علماء الاجتماع الفرنسيين المعروفين بنزعتهم الماركسية اللينينية المتطرفة وانبهارهم بالنموذج الصيني (2) •

وهو أيضا الموضوع الذي أصبح محور مناقشات المربين ومدار مؤتمرات رجال التعليم وفي مقدمتهم الداعون الى التكوين الذاتي والمؤمنون بالبيداغوجية العصرية وما تقتضيه من « مناهج نشيطة » وكذلك القائلون بنظرية « مدرسة من دون جدران » الذين يرون أن أنفع الدروس وأبقاها أثرا هي تلك التي تلقى بالنوادي والمعامل والادارات والمتاحف والمكتبات ودور الثقافة ، لا بين جدران المدارس •

وهو ـ أخيرا لا آخرا ! الدواء الذي يراه بعض السياسيين المحتكمين ـ في تسيير شؤون المجتمعات ـ الى نواميس الاقتصاد والارقام الجافة ـ لا الجوفاء ـ لعلاج أزمة ارتفاع تكاليف التربية والتعليم المتزايدة بصورة أصبحت تهدد النمو وتؤذن باختلال التوازن الاجتماعي وتنذر بالويل والثبور ! والادهى والامر هو أن بعض

---

(2) من أمثال بورديي (Bourdier) وباسرون (Passeron) (طالع كتاب الورثة (Les héritiers) وبودلو (Beaudelot) واسطابلي (Establet) (طالع المدرسة الراسمالية في فرنسا l'école capitaliste en France)

المتشائمين يعتقدون ان نتائج التعليم في كافة البلـدان وخاصة منها البلاد المتخلفة ليست في مستوى التضحيات المالية مما لا يبرر فى نظرهم التمادي في سياسـة هي الى العاطفة اقرب منها الى العقل •

إن أولئك وهؤلاء جميعـا يكـادون يتفقـون ــ رغـم اختلاف مشاربهم وفلسفاتهم فى الحياة ــ عـلى أن عهـد المدرسة في مفهومها المتعارف قد ولـى وانقضـى ! إنهم يرون ان التعليم فشل في تبليغ العلـوم والمعـارف الى الاجيال الصاعدة وأن الأنظمة التربوية تجمد الطاقـات وتئد المواهب وتدعم الواقع الموروث والهياكل الرجعية ، وتساند الانظمة القائمة الظالمة وانها بذلك تعرقل زحف الديمقراطية وتحول دون التقدم الاجتماعـي والتحـرر الفردي ، بل انها تفـرز دائمـا أقليـة من المحظوظيـن يواصلون السيطرة على الطريق الموصلة الى الحكم السياسي والنفوذ الاجتماعي والاقتصادي ، وهم الذيـن ينعتهـم « إليتيش » برأسماليي المعرفة ! » (Capitalistes du savoir) ويتهم الاساتذة بالغرور عندما يعتقـدون انهم يملكـون ــ وحدهم ــ الحق الشرعي فى تبليغ العلم (I) •

(I) تجدر الملاحظة فى هـذا الصـدد بأن الشيوعيين الكلاسيكيين ناهضوا أفكار « إيليتش » وردوا على كل من يـروم « إضرام النار فى المدرسة » واعتبروا هذا الاتجاه معـاضدا للـرجعية ومؤامرة على الديمقراطية ــ راجع مجلـة « النقـد الجـديـد » الصادرة عن الحزب الشيوعى الفرنسى (جانفى 1972) •

ونحن في تونس لا يمكن ان نساير هذا الاتجاه الغريب ، لأن المدرسة كانت منذ أواخر القرن الماضي ولا تزال الى اليوم الطريق الوحيدة للخروج من ظلام الجهل وغياهب التخلف ، والارتقاء الى أعلى المراتب العلمية والاجتماعية وتجاوز المنزلة الدنيا التي فرضتها عصور الانحطاط ودعمها النظام الاستعماري لبسط نفوذه على الجماهير الشعبية ٠

فقد ركز المصلح خير الدين النهضة على العلم وأسس خاصة المدرسة الصادقية التي ستحتفل سنة 1975 بمرور قرن على بعثها ، وناضل جماعة الشباب التونسي في مطلع القرن العشرين من اجل الاقبال على التعلم وضغطوا على السلطة الحاكمة حينذاك كي تمكن التونسيين من دخول المعاهد التعليمية وتسابق أبناء البلاد الى فتح المدارس القرءانية خاصة بعد الحرب العالمية الثانية فتمكن عشرات آلاف المواطنين من تغيير ما بهم وما وجدوا عليه وطنهم فكسبوا بذلك حريتهم وعادت لهم ولوطنهم الكرامة المفقودة ٠

وإن المجهود الذي بذلته الحكومة التونسية منذ الاستقلال فى سبيل نشر التعليم يكاد يكون فريدا من نوعه ، ناهيك ان ربع سكان الجمهورية تقريبا مرسمون اليوم بالمؤسسات التعليمية على مختلف درجاتها ، وان ثلث الميزانية مخصص للتربية ، وان عدد التلامذة أصبح

سنة 1972 خمسة اضعاف ما كان عليه سنة 1956 ، فهل يمكن أن يقال ان المليون والمائتي ألف فتى وفتاة الذين فتحت في وجوههم أبواب المدارس والذين سيأتون بعدهم أفواجا أفواجا سيحتكرون العلم وينفردون بالنفوذ ويدعمون المجتمع المتحجر الذي ينتسبون اليه وهل يجوز اعتبار هذا « الانفجار المدرسي » ظاهرة متنافية مع الديمقراطية معطلة لممارستها والعيش فى كنفها ؟

وإذا نحن مضينا فى الاستشهاد بالمثال التونسي لبيان تهافت اعداء المدرسة « التقليدية » ، أليس من الطريف أن نذكر بحقيقة نعتبرها مفخرة لهذا النظام ودليلا على أنه ديمقراطي وشعبي وتقدمي في جوهره وروحه واتجاهه ، وهو ان الاغلبية الساحقة لهؤلاء الآلاف المؤلفة من التلاميذ والطلبة ينحدرون من اوساط اجتماعية متواضعة جدا من الناحية الاقتصادية وانهم تمكنوا من مواصلة تعلمهم بفضل مجانية التعليم وتمتع الاكثرية منهم بالمنح ومختلف التشجيعات الاخرى ؟ ثم الم تخرج الفتاة التونسية بفضل المدرسة من القرون الوسطى وتستنير بنور المعرفة والعلم ، وتفرض وجودها فى مجتمعها وتنهض بواجباتها على قدم المساواة مع اخيها الرجل ؟ أليس فى كل ذلك « ثورة » اجتماعية حقيقية وتجسيم لما يسميه علماء الاجتماع « بالحركية الاجتماعية ».

بل ان الانظمة المعادية للديمقراطية والمعرقلة لسير التاريخ ونهضة الشعوب هي بالضبط تلك التي تقتر التعليم تقتيرا وتراهن على الجهل لاستبقاء امتيازاتها وضمان هيمنتها ولو الى حين !

انه اذا أتخمت بعض مجتمعات الاستهلاك ثروة واستهتارا وبذخا واورثتها المدنية المعاصرة سآمة وقلقا ، فانبرى بعض « المفكرين » فيها ينادون بالثورة والتمرد والكفر بالكائن والاستعاضة عنه بالاحلام او الفرار منه الى المطلق والمحال ••• فانه لا يحسن بنا ــ نحن ابناء العالم الثالث ــ في هذه الفترة الحاسمة التى نبني فيها حاضرنا ونخطط مستقبلنا ــ أن نكفر بنعمة المدرسة او نخل بهيبة المعلم الذي نعتبره فى مقام الرسول ، لان التفاضل لا يكون فى المجتمع العادل الا على أساس القيم الذاتية والاجتهاد والكفاءة ما دامت الحظوظ متساوية منذ البداية ولانه لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، ولان اللحاق بقافلة الدول المتقدمة لا يكون الا بطلب العلم ولو في ••• الصين •

علىأن المشكل بالنسبة الينا لا يتمثل فى معرفة ما اذا وجب تقويض أركان المدرسة أم لا ،اذ لو كان الامر كذلك لهان الجواب ولوقفنا من إيليتش وكل المتمردين على المدرسة موقف الاشفاق ولنظرنا اليه نظرتنا الى كافة « الطرفاء » ولو كانوا ظرفاء ، ولدعونا هذا الرجل ومن

لف لفه الى محاولة تطبيق نظرياته ببلاده وفى كافة الدول المزدهرة ــ اذا رضيت به ــ ، لا في المكسيك وبعض بلاد امريكا اللاطينية ، التي تتخبط مثل غيرها من بلدان العالم الثالث فى الوان من المصاعب والمصائب بسبب تقليد انظمة الغير والتشبه به والنسج على منواله ولانها رضيت بان تكون مخابر يجري فيها بعضهم تجاربه الغريبة ! (I)
بل ان القضية هى ان الحياة العصرية اصبحت تضايق هذه المدرسة وتضعف من اشعاعها ، وتنافسها فى حق ابلاغ المعرفة ، حتى ان الاختصاصيين يؤكدون ان الطفل لا يغنم اليوم من المدرسة الا نسبة 30% من معلوماته ، اما البقية فانها تفد عليه ــ بواسطة الوسائل السمعية البصرية والشارع و ... الصدف ...

واذا استطاعت الدول النامية التحكم في الانظمة التربوية وتكييفها بحيث تحافظ على خصائص القوم وآصالتهم وتأخذ بضرورات العصر وتقدم العلوم والفنون ، لكن هل هي قادرة دائما على ذلك وهل يتيح لها « الاذكياء » من الخبراء الاجانب والاغبياء من ضحاياهم

(I) راجع فى هذا الصدد ما أكده موريس قرنيي Maurice Guernier فى كتابه « آخر فرصة تتاح للعالم الثالث » الصادر سنة 1968 ، وخاصة ما ذهب إليه من أن مأساة البلاد المتخلفة تتمثل فى تبنى انظمة الدول المتقدمة التربوية التى لم تعد صالحة حتى فى هذه البلدان ، فهى لذلك تملك طبعا اطارات تحمل شهادات ولكن يعوزها رجال متصفون بالاقدام والايمان .

أن تنجح فى هذه التجربة ؟؟! ــ فانها قد تقصر دون مواجهة التيارات الاخلاقية والحضارية الوافدة اليها من الخارج وتعجز عن الوقاية الذاتية من الغزو الثقافي الزاحف عليها من كل صوب ٠

لذلك وجب في الوقت الذي نواصل فيه بذل اقصى ما في مقدورنا لتعميم التعليم ورفع مستواه وتأصيله أن نضاعف عنايتنا بالبيئة الثالثة ونشجع كل المبادرات الانشائية لنشر الثقافة الحق واشاعة روح التربية السليمة وتهذيب ذوق الناشئة وتدعيم شخصيتها وصقل أداة تفكيرها وتزكية ضميرها حتى تتحرر بنفسها وتتجاوز منزلتها وتبلغ أعلى درجات الرفعة الانسانية ٠

فالمدرسة الحية المتطورة والمتأصلة هى أداة التعلم الاولى والطريق الى الديمقراطية والعدالة والرقي ومهما رصدنا في سبيلها واحطناها بعنايتنا فلن نوفيها حقها لان النهوض بالانسان لا يعرف حدودا ٠

(١ ماي 1972)

الثقافة العربية بين الوحدة والتنوع

لا يسعنا إلا ان نسجل بكل ارتياح أنه في الوقت الذي تتجه فيه الانظار الى التخطيط الاجتماعي والاقتصـادي ، تحليلا وتقييما لما انجز ، وتصورا وتنسيقـا لـما يحسن إسناد الاولوية اليه وعقد العزم على تحقيقه فى السنوات القادمة ، وتنصرف الجهود الى استمداد العبرة والموعظـة من نتائج سياستنا التعليمية منـذ الاستقـلال وضبـط مقومات الانطلاقة التربوية الجديدة في العشرية الآتية ، لا تزال الثقافة ــ في هذا الظرف بالـذات ــ تحتـل من مشاغل المسؤولين وعنايتهم المرتبة المرموقة ·

فقد اكد **السيد رئيس الجمهورية** يوم 6 ماى 1972 في الخطاب الذى القاه امام ضيفه الكريم **رئيس الجمهوريـة المصرية الشقيقة** أن أمر النهضة الثقافية « **يهمنا جميعا**

في الدرجة الاولى ، لان على هذه النهضة يتوقف مصير الشعوب من الناحية السياسية والفكرية والروحية ، وعليها تبنى منزلتها بين الامم المتقدمة وطاقتها على التحاور معها على اساس الاخذ والعطاء دون تزييف » •

وذكر سيادته بحقيقة طالما غفل عنها بعض السياسيين والقادة وهى ان ما يقاسيه العالم العربي من تخلف اقتصادي وما تتجرعه بعض شعوبه من مرارة الانهزام وتتخبط فيه من أهوال الفوضى انما هو نتيجة لأزمة حضارية وبالتابع لفشل ثقافي يتمثل في التقهقر العلمي والقصور التكنولوجي والعجز عن الخلق والابداع والتحاور الايجابي الرائد مع سائر الثقافات •

لذلك وجب تصور الثقافة جانبا هاما من جوانب المعركة المصيرية فى سبيل التنمية والازدهار ، لا مجرد نشاط هامشي او كمالي يقبل عليه ويتفرغ اليه بعض المحظوظين والباحثين عن التسلية والترفيه •

والواقع ان هزيمة 1967 وتحديات الصهيونية المتوالية و « ضغط » الحضارات العصرية على العالم العربي ، فتحت العيون وايقظت النائمين الحالمين الى الواقع المر الصارم وحملت المسؤولين على التفكير العميق والعمل المجدي الناجع والجرأة على مواجهة المشاكل الحقيقية •
وفي الوقت الذي تواصل فيه بلادنا جهدها الجهيد من أجل

النهضة الشاملة ساعية ـ كما قال السيد وزير الثقافة بمناسبة تدشين الحملة العالمية لصيانة قرطاج واحياء معالمها والنداء التاريخي الذي توجه به في هذا الصدد يوم I9 ماي الماضي السيد مدير منظمة اليونسكو الى كافة الدول وهو حدث جدير بالتنويه والامتنان ـ الى « اقرار الثقافة في قلب المعركة من اجل التنمية » ، لا يمكن ان نغفل عما يجري في وطننا الاكبر ، فتبلغ بنا السذاجة حد الاعتقاد بانه يمكن ان ننهض فرادى دون حد أدنى من الشعور بالتضامن وضروورة التكتل والتنسيق والتعاون ، وحتمية البناء الجماعي للمصير المشترك •

وفي هذا السياق ومن بين المجالات التى يتعين فيها احكام التعاون وتضافر الجهود تأتي الثقافة العربية التي هي ـ كما قال السيد الرئيس في نفس الخطاب المذكور ـ « **ملك مشاع بيننا جميعا مشرقا ومغربا ، وكل قطر عربي يسعى الى المساهمة في تنميتها وتطويرها بحسب إمكانياته • ولكن هذه الجهود لا تزال مقطعة ، مبعثرة ، لضعف المبادلات بين الاقطار وانعدام التنسيق بين الخطط الانمائية في مجالات الفكر والعلوم والفنون** » •

ويضيف الرئيس الحبيب بورقيبة قوله : « **ونحن في هذا الصدد نعلق آمالا كبيرة على منظمة الثقافة التى انبثقت اخيرا عن الجامعة العربية ونرجو ان تتوصل الى إقامة اللحمة اللازمة بين الحركات الثقافية في كافة انحاء**

العالم العربى ، رغم بعد الشقة والفوارق السياسية والحواجز الديوانية ، وهي ولا شك تكون قامت بعمل رائد قد يفتح السبيل الى تعاون أوسع وأشمل اذ هي توفقت الى تنظيم سوق ثقافية مشتركة بين كافة البلدان العربية من الخليج الى المحيط ، على اساس التبادل المثمر والحوار المجدي فيما بينها مع التفتح الواعي على سائر الثقافات الناهضة في العالم ... » .

ونحن اذ نبارك هذا الاتجاه الذي يؤكد اصالة الشعب التونسي ويدعم حظوظ الدور الذي يستطيع ان يلعبه في إنماء الحضارة العربية والمتوسطية معا ، ويحدد خطوط الرسالة التى يمكن ان يضطلع باعبائها المثقفون في هذه البلاد ، فلا يتذبذبوا ولا ينبتوا ولا يهيموا مع المستورد والزائف من المذاهب والنظريات ، بل هم يتكشفون عن أبعاد منزلتهم العربية والانسانية معا ، نعلق ـ مثل سيادة الرئيس ـ الآمال العريضة على المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم التى يبدو انها تنحو منحى رصينا واقعيا من شأنه ان يجنبها ما وقعت فيه المحاولات السالفة وجل الملتقيات الثقافية السابقة من سخيف المهاترات وعقيم المزايدات ومحموم الاهواء ومر احلام اليقظة وسراب الخيالات ، وتبحث عن قضايا جوهرية على اساس العقل والحرية والموضوعية والرصانة .

وبالرغم عن ان تونس لم تنخرط بعد في هذه المنظمة

بصورة رسمية فقد شاركت بوفد هام في « مؤتمر الوحدة والتنوع في الثقافة العربية المعاصرة » الذي انتظم بالقاهرة من 6 الى 11 ماي 1972 ٠

وفي هذا المقام يحسن ان تتضح المفاهيم وتصفو الرؤية ويجتنب الالتباس فنبني المستقبل على أسس سليمة ثابتة ٠

فالثقافة العربية ليست كهنوتا فكريا ولا عقيدة نهائية جامدة او منظومة محددة من الافكار والمشاعر تتوارثها الاجيال جيلا عن جيل ، كما ان الاصالة لا تنحصر في عبادة القيم الجاهزة والوفاء للماضي على علاته ، والتمسك السلبي بالتقاليد والعادات والتصورات القديمة ٠

الثقافة العربية إخلاص لمثل عليا مستمدة من روح شعوبنا العربية الاسلامية ، ومتجددة عبر العصور بفضل اجتهاد كل الخلاقين والمنتجين في دنيا الفكر والعلوم والفنون بأنواعها ، منها أولوية الروح على المادة والايمان بالانسان وقدرته على خلق نفسه وتقرير مصيره ، ومنها ايضا التسامح والاعتدال والسعي الى استئصال اسباب البغضاء والشحناء بين البشر واستنبات عوامل الالفة والاخوة في قلوبهم تمهيدا الى ما سماه ابو نصر الفارابي « بالمعمورة الفاضلة » ، ومنها كذلك التمرد على الظلم

والعسف وتحدي الطغيان والتضحية من اجل الكرامة والتوق الى العدالة الاجتماعية التي تنتفي الحرمة البشرية بانتفائها ، ومنها عزيمة العمل والتأثير في الواقع والمبادرة والابداع •

فالثقافة العربية هي — إذن — إيمان راسخ وروح أصيل وعمل صادق ، لا يختص بها جيل ولا قطر دون آخر ، لانها اتسعت فشملت اقواما كثيرين يعيشون في بيئات مختلفة من حدود الهند والصين شرقا الى ضفاف المحيط الاطلنطي غربا ، تميزت فيها ضروب العيش واختلفت درجات المدنية ، فعبرت كل بيئة عن ملامحها وانفتحت على الثقافات السابقة عليها وتأثرت بالتيارات العقائدية والادبية المعاصرة لها ، فكان التنوع الخصب الذي اعتبره الاستعمار وتلامذته تضادا وتناقضا وارادوه تصادما وتفرقة ، وهو في الواقع عنصر تكامل واثراء وقوة ، على نحو ما كان من امر الحضارة العربية الاسلامية في العصر العباسي بعد ان انصهرت في بوتقها الثقافات الفارسية والرومية والهندية واليونانية •••

ولو حللنا تاريخ الحضارة العربية الاسلامية وتعمقنا في خصائصه وتياراته لادركنا ان التيار الثقافي العام انما هو تأليف لمختلف الثقافات المحلية المتميزة التي تعايشت وتعاقبت في المكان والزمان وتفاعلت وغذى بعضها بعضا ، فانسجمت آخر الامر وأصبحت احدى دعائم الفكر

العربى الاسلامى فى جوهره القار وشتى مظاهره وجوانبه المتطورة المتجددة ٠

وفي هذا المعنى يؤكد ت٠ س٠ اليوت : القيمة **المطلقة ــ فى مجال الثقافة ــ هي ان كل منطقة ينبغي ان تكون لها ثقافتها المميزة التي ينبغي ايضا ان تنسجم مع ثقافات المناطق المجاورة وتثريها ٠ وان الثقافة القومية حصيلة عدد غير محدود من الثقافات المحلية التي لو حللت هي نفسها لتبين انها مكونة من ثقافات محلية أصغر » ٠**

فالتنوع بهذا المعنى هو إثراء للوحدة وتثبيت لجذورها وضمان لبقائها ، وإذن فمن الواجب ان نواصل مجهودنا ــ كل فى قطره وحسب ملابساته وظروفه ــ من اجل الخلق والابداع والابتكار ، معيارنا الصدق فى الاستلهام والتعبير ورائدنا التقارب والتماثل لا التباين والتجافي ، وغايتنا المساهمة في بناء الحضارة الانسانية والحوار الواعي البناء مع كافة البشر ، لا اجترار الماضى او استهلاك الفكر المدخول ٠

فاذا كان التنوع هو الخصوصية والطرافة ــ لا الاقليمية المنطوية على نفسها او الشعوبية الضالة ــ فانه يكون اكبر دعامة للوحدة الثقافية العربية الاسلامية السليمة وخير مساهمة في تقدم الفكر الانساني المعاصر ٠

إن توضيح مثل هذه المفاهيم في هذه الظروف الانتقالية الدقيقة التي تجتازها الأمة العربية الاسلامية ، بعيدا عن ضوضاء المهرجانات المتسمة بسمة المظهرية والفوغائية ، ليعد إنجازا إيجابيا ، نرى من الواجب التنويه به ودعوة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم على المبادرة بتحقيق أمثاله ، حتى تتضح معالم الطريق ونحقق ما سماه الدكتور عبد القادر حاتم وزير الثقافة بالجمهورية العربية المصرية في الكلمة التي افتتح بها اشغال المؤتمر المذكور « بوحدة المشاعر وروح الاخوة الباقية مع الايام التي اودعتها في نفوسنا وحدتنا الثقافية » •

وبذلك نقوى ايضا على تجاوز « الأزمة الحضارية » التى يعيشها العالم العربي ونهضم « الحضارة الجديدة في اسلم مقوماتها مع تنمية طاقاتنا الاصيلة من أصفى ينابيعها فنصنع مجتمعات عربية جديدة توفر الازدهار للجماهير وتضمن لنفسها المناعة من كل عدوان وتساهم في خلق الحضارة الانسانية الرائدة » •

(I جوان 1972)

الصرح الثابت

شهدت عواصم المغرب العربي الكبير ـ في الاسابيع المنصرمة ـ نشاطا سياسيا زاخرا مركزا على تدعيم التعاون الايجابي الخلاق بين الاقطار الثلاثة في كل المجالات وعلى جميع المستويات • ولا شك ان زيارة رئيس الدولة الجزائرية الى تونس والمغرب ورئيس الجمهورية التونسية الى الجزائر والمغرب عامل حاسم لخلق الظروف الملائمة لمزيد التقارب وتعزيز إرادة التنسيق والاتحاد فالوحدة بين شعوب المغرب والجزائر وتونس ، التي يجمع بينها التاريخ والجغرافيا واللغة والدين والكفاح المشترك من أجل الحرية والكرامة وضرورة مواجهة تحديات الاستعمار المكشوف والمقنع ، ومغالبة التخلف الاقتصادي والاجتماعي والعمل المركز من اجل السلام والغد الافضل •

ولئن كانت الوحدة مطلب الجماهير وحلم الشباب وضرورة يفرضها عصر كثرت فيه التكتلات الاقتصادية والسياسية واصبحت فيه العزلة القومية والانانية ضربا من ضروب الانتحار ، فان تحقيقها يتطلب آجالا طويلة وعملا كبيرا ومراحل كثيرة وتنسيقا ذكيا وصبرا جميلا ، ويقتضي بالخصوص الانتباه والروية واعمال الرأي حتى نجنب أنفسنا الطفرات الفوضوية والانتفاضات المحمومة والنكسات الاليمة ، فلا ننساق مع العواطف المتأججة بل نتعظ — سلبا وايجابا — بما جرى ويجرى حولنا ، سواء فى الشرق العربي او في إفريقيا او في أوروبا الغربية .

لذلك لا نزال نؤمن بان بناء الوحدة الاقتصادية فالسياسية يجب ان يكون على أساس صحيح متين ، أي ان يبدأ — أولا وبالذات — من القاعدة وان يتوج أمرا واقعا فى مستوى الشعوب ومتجاوبا مع نفسياتها ونظرتها للدنيا وموقفها من الوجود ، وان ينطلق — بالتابع — من الاجيال الصاعدة ، وهذا معناه ان الاولوية يحسن ان تكون للعمل التربوي والثقافي الذي قد يبدو بطيئا خافتا ولكنه في الواقع عميق الجذور متين الاركان فهو الصرح الثابت الذي يجب ان يقام عليه مشروع المغرب العربي الموحد اذا اردنا له الاستقرار الحي والديمومة والصمود أمام العواصف وصروف الدهر .

وفي هذا المجال وجب ان نبارك العمل الكبير ـ والصامت ـ الذي شرع فيه منذ انعقاد الندوة الاولى لوزراء التربية لبلدان المغرب العربي الكبير بتونس فى فيفري 1967 ، والهادف الى ضبط رصيد لغوي أساسي وظيفي في مستوى المرحلة الاولى من التعليم الابتدائي ٠

فقد قام عدد من خيرة اهل الاختصاص في اللسانيات عندنا بتسجيل كلام تلامذة رياض الاطفال والسنتين الاوليين فى التعليم الابتدائي وضبط الالفاظ المقولة المشتركة بين المغرب والجزائر وتونس ، في قائمتين ، ألفبائية وتواترية ، فكان عددها 6777 ٠ ولم يكتفوا بذلك بل هم الى جانب الالفاظ الفصيحة فصحوا الالفاظ الدارجة وعربوا الكلمات الدخيلة ووضعوا للمفاهيم الحضارية الجديدة وللمعاني العصرية الحديثة الفاظا عربية مشتقة او الفاظا جديدة مع مراعاة قياس العربية واجتناب الالتباس بحيث يكون لكل دال مدلول واحد ، ومراعاة عدم تنافر مخارج الحروف وحذف الكلمات الهجينة المدلول في أحد الاقطار الثلاثة ، ومسايرة اللغة البسيطة التى يتكلمها الاطفال من دون تقعر ولا تحذلق ولا تزمت مع احترام روح اللغة العربية المتطورة وقواعد الصرف والنحو ٠

واذا عرفنا مدى تأثير اللغة في الاذهان والعقليات أدركنا أهمية هذا العمل الذي نرجو ان يتواصل ويشمل

كافة سنوات التعليمين الابتدائي والثانوي ، وان يستغل في اسرع الاوقات فتصدر التعليمات ليكون التأليف المدرسي بالاعتماد على هذا الرصيد الضخم ـ الاول من نوعه فى كافة البلاد العربية ـ والذي لا يسد فراغات المقول والمكتوب فحسب ، بل هو يسمو عن الاقليمية اللغوية ويمحو الفوارق المصطنعة ويتسامى عن اللهجات التي طالما عمل الاستعمار على تشجيعها وتركيزها بفضل برامجه التربوية عندما كان ماسكا بزمام الامور في هذه الربوع ، او بانتحال نفر من تلامذته النجباء ـ اليوم ـ الطرائق العلمية ولغة البحث للتمويه على البسطاء بأنهم انما يرومون خدمة العلم والمعرفة بتفرغهم الى مثل هذه الدراسات ... الموضوعية ! .

ثم إن هذا العمل الكبير ـ اذا ما تواصل ـ من شأنه أن يقرب بين المقول والمكتوب ويقضي على هذا الانشطار اللغوي ويدعم المجهود المشكور الذي لا تزال الاذاعة والتلفزة والصحافة تبذله في هذا الصدد ، كما يقضي على نوع من الازدواجية اللغوية ورثناه عن الاستعمار مما جعل عددا كبيرا منا ـ في كافة أقطار المغرب الكبير ـ لا يتكلمون لغة عربية سليمة ولا لغة فرنسية مستقيمة وانما يستعملون لغة مخلوطة ممسوخة « فرنكو عربية » .

إن هذا العمل اللغوي التربوي الاساسي لا يخدم اللغة العربية فحسب ولا يركز الاستقلال الثقافي فقط بل هو ـ على طول المدى ورغم صروف السياسة وملابساتها ـ صرح من الصروح الثابتة التي ستقام عليها ـ ان شاء الله وشاء أبناء هذا الشمال الافريقي البررة ـ الوحدة الصماء لشعوب المغرب العربي الكبير •

(1 جويلية 1972)

في الشعر...

تتوالى مهرجانات الشعر في العالم وفي بلادنا العربية بالخصوص وتنتظم ملتقيات هواة الادب ، وتطرد المعارك الادبية حول الشكل والمضمون ، الالتزام والحرية ، الشعر الحر والشعر التقليدي ، شعر الشباب وشعر الشيـوخ ، ويتهافت الأدباء وبعض المتطفلين والمرتزقـة على الشعر المعاصر ، ينقلونه الى العربية نقلا يتأرجح بين التوفيق والاخفاق والوضوح والاغماض ، وكثيـرا ما يقدمـون مدرسة شعرية غربية الى قراء العربية عندما يأفل نجمها ويخفت صوتها في العالم المتقدم ولم تعد مستجيبة لداعي التطور والارتقاء • فالقوم قلمـا يتعمقـون في حقيقـة الشعر ويستنبطون ماهيته واسلوبه في التعبير والتبليغ . وقلما يدركون أسراره وهواجسه وسحر وجوده •

ويذهب بعضهم الى القول بأن تطور العلوم وسلطان العقل والمنطق وصرامة نواميس الواقع وطغيان المادة تقضي على الشعر بالموت وتحكم على العاطفة بالتحجر، بل إن التقدم العظيم الذي سجله العلم هو الذي كشف عن حدود العقل من حيث هو الطريق الوحيدة الى المعرفة والجواب الشافي عن الاسئلة الرهيبة التي لا تزال تفرض نفسها على الانسان في سعيه الى معرفة ذاته وتبين منزلته في الوجود والاطمئنان على مصيره ·

فهذا عالم الذرة « انشتاين » ترتعد فرائصه لهول ما اكتشف ويدرك الخطر الكبير الذي يهدد الانسان فيتبرأ من العلم ويلوذ بالفن والشعر ويعتبرهما ملاذا اسمى من التفكير الآخذ بقواعد الرياضيات · وكم مفكر أو فيلسوف استنجد بالشعر أمام الكوارث المتتالية التي انتابت العالم والخيبات المتكررة التي منيت بها القيم التقليدية والرجات العميقة التي قلقلت التفكير الوضعي المنتحل للروح العلمية · فكأن الشعر أصبح الملاذ الاوحد لحرية الانسان وحاميه الاول،من عقارب الشك وغائلة اليأس وبحران الكفر، وسبيله المثلى لمعرفة ذاته، وترجمانه الامين على لانهائيته الاخلاقية وواقعه المطلق ·

وفي هذا الاتجاه نجد الشاعر الكبير « **سان جون بيرس** » Saint John Perse يحدد ماهية الشعر في الخطاب الذي ألقاه يوم 10 ديسمبر 1960 بمناسبة

تسلمه جائزة نوبل للآداب فيتساءل : « **حين نقدر أزمة العلم العصري وهو يكتشف حتى في المفاهيم المطلقة الرياضية حدوده المنطقية ، وحين نشاهد في الفيزياء نظريتين من أمهات النظريات تقرران الاولى مبدأ عاما للنسبية (1) والاخرى مبدأ « كميا » للايقين واللاحتمية (2) من شأنه ان يحد الى الأبد من دقة القياسات الفيزيائية نفسها ، وحين نستمع الى أعظم مجدد علمي في هذا العصر ذي العمل الطلائعي في ميدان دراسات الهيئة الفلكية الحديثة والشاهد لافسح تأليف فكري مستعملا لغة المعادلات ، حين نستمع اليه يستنجد بالحدس لمؤازرة العقل ويعلن « ان الخيال هو الحقل الحقيقي لانتاش المفاهيم العلمية » ويذهب به الامر الى المناداة بحق العالم في اللواذ « برؤية فنية شاملة » الى الاشياء ، حين نقف على كل ذلك أليس من حقنا ان نجعل للاداة الشعرية ما للأداة المنطقية من الشرعية ؟ »** .

ويشبه سان جون پيرس العالم والشاعر بشخصين ولدا أعميين يحاولان تحسس طريقهما في ليلة الوجود الازلية ، يتوكأ الاول على الاداة العلمية ويعتمد الثاني ومضات الحدس ، فأيهما يبلغ شاطيء اليقين ويمزق الحجب قبل غيره ؟

---

(1) من وضع : Einstein

(2) Le Principe quantique من وضع : Heisenberg

والأهم من الجواب هو أن ندرك تجانس المغامرتين وأصالتهما ووثيق ارتباطهما بالانسان • وهل عالم الانسان الباطني أقل اتساعا وادنى عمقا وأيسر فهما من الكون المحيط به ؟

واذا كان الشعر سبيلا الى المعرفة واستجلاء لاسرار الوجود فهو كذلك اسلوب في الحياة ، فالشعر لازم الانسان عندما كان يعيش في الكهوف ويلازمه اليوم في عصر الذرة لأنه جزء لا يتجزأ منه ، و جبلة فيه • والشعر الحق لئن استوحى الجمال وتغنى به واقتبس منه لا يتخذه غاية قصوى له اذ هو لا يفصل بين الحياة والفن ولا بين المحبة والمعرفة ، انه عمل وخلق وتوهج عاطفة ، وطاقة متدفقة • الشعر متجاوز للحدود ، متمرد دوما ، شيمته السبق والتنبؤ ، كفاه نبلا وأصالة انه الدواء الواقي من الجمود والرتابة والتعود لانه اندهاش إيجابي ، وصدمة منعشة يفضيان الى استكناه الكون ومعانقة جوهر الحياة المتدفقة • كفى الشعر فخرا انه وخز للضمير عبر العصور كفاه عظمة أنه في صميمه « تقصي وجود الجوهر في جوهر الوجود » !

فما أحرى أدباءنا وشعراءنا بالخصوص بتجاوز المناقشات الهامشية والقضايا الفرعية والغوص على جوهر الاشياء والنفاذ الى صميم الموضوع • ولن يكون ذلك الا

اذا اتسعت المدارك وانفتحت الآفـاق وصدقت الرؤيـا ووضحت الرؤية ودوت التجربـة بمعناهـا الاسمـى فى النفس الشاعرة ٠

بذلك فقط يكونون شعراء ، بهم يسطـع نجـم الأدب العربي وتشع حضارتنا في العالم ٠

(١ اكتوبر ١٩٧٢)

العالم الثالث أمام مصيره

من أهم القضايا التي طرحت على الدورة التاسعة عشرة للمؤتمر العام لليونسكو الذي أنهى أشغاله في أواخر نوفمبر المنصرم بباريس ، نمو التربية وتطورها وخطورة المشاكل الناجمة عن هذا التطور بالذات ومسؤولية الدول الكبيرة تجاه الدول الصغيرة ، على ضوء التقرير الضافي الذي اعدته لجنة من كبار الاخصائيين الدوليين يتقدمهم السيد (إدغار فور) ، الوزير السابق للتربية في فرنسا ٠

ولئن بذلت كل البلدان ــ سواء كانت متقدمة او متخلفة ــ مجهودات جبارة في سبيل نشر التعليم ورفع مستواه ، ورصدت من اجل هذه الغاية طيلة العشرية المنقرضة أضعاف أضعاف ما رصدته أثناء العقود السابقة ، واصبحت تعاني جميعها ــ رغم ذلك ــ أزمات

خطيرة فى الميدان التربـوي ، زالـت معهـا الطمأنينـة واندكت بسببها اركان اخلاقية وحضارية بعد ان صمدت القرون تلو القرون وارتجت هيـاكل اجتماعيـة عرفت طول الاستقرار ونعمت بشمول اليقيـن ، فان الواقـع التربوي في البلاد النامية يشكو اختلال توازن مريعا في الكم والكيف ويفرض على المسؤولين أسئلـة مصيريـة تتجاوز آفاق التربية الى حقيقة الكيان وخبايا المآل •

واذا نحن اعتبرنا الكم لاحظنا انه رغم الخطوات الجبارة التي قطعت والاموال الطائلة التي انفقت ـ ناهيـك ان نسبتها زادت بما قدره 150% في ثمانية أعوام فقط إذ كانت 54 مليار دولار فى 1960 فاصبحت 135 مليار دولار فى 1968 ـ فان عدد الاطفـال المحروميـن من الدراسـة في تزايد مطرد ويتوقع الاخصائيون انه سيبلغ 230 مليـون سنة 1980 ، كما يقدرون ان يبلغ عدد الاميين في نفس السنة 820 مليـون نسمـة اي بنسبـة 29% من سكـان المعمورة ، وينتسبون كلهم ـ طبعا ـ الى العالم الثالث •

أما ظاهرة الانقطاع عن التعليم فهي خطيرة ومثيـرة في آن واحد إذ نصف تلامذة التعليم الابتدائي لا ينهون تعلمهم في نصف بلدان العالم •

وغني عن البيان ان ظاهـرة الانقطـاع عن الدراسـة والامية المتفاقمة رغم الامـوال المرصـودة والتضحيـات المقدمة من خصائص البلدان الفقيرة التي تنهك قـواها

وتكلف اقتصادها فوق ما يطيق ، وتسرع الخطى للحاق بالبلدان المتقدمة ، وما هي ببالغة هدفها ، بل إن البون يزداد عمقا والتفاوت يتسع خرقه على الراقع ·

ذلك ان البلدان المصنعة لا يزيد مجموع سكانها عن ثلث سكان المعمورة ولا يتجاوز عدد شبانها ربع شبان العالم (إذ عدد من هم دون الخامسة عشرة يقدر بـ 22% فى البلاد الغنية وبـ 78% فى البلاد النامية) ـ ومع ذلك فقد أنفقت في شؤون التعليم والتربية 120 مليار دولار سنة 1968 بينما لم تنفق البلاد المتخلفة في نفس السنة إلا 12 مليار دولار أي انه يرصد اليوم في سبيل ربع شباب العالم عشرة اضعاف ما يرصد لبقية « إخوانهم » في الانسانية والمنزلة والمصير !

وإذا أردنا ان ندرك بالارقام ما لا يزال يفصل بين البلدان من حيث المستوى الاقتصادي ، بل ما لا يزال يباعد بينها ويزيد في عمق الهوة ، قلنا إن عدد طلبة التعليم العالي الجملي في امريكا الشمالية واوروبا يتجاوز عدد الطلبة فى بقية بلدان العالم جميعا !! وبينما نجد في الولايات المتحدة وكندا متعلما من بين ثمانية يزاول دروسه في الجامعة ، وواحدا على 20 في اوروبا ، فان هذه النسبة تنحدر فى آسيا الى واحد من 38 وفي البلاد العربية الى 1 من 45 وفي دول امريكا اللاطينية واحد من 49 وفي افريقيا 1 من 90 !!

أما اذا اعتبرنا الكيف فان الخبراء يكادون يجمعون على آن تكوين المتخرجين من المدارس ليس مناسبا في كثير من الحالات لحاجات سوق الشغل وان عدد البطالين من حاملي الشهادات المتوسطة والعليا في تزايد ، الامر الذي يورث في الشباب القلق والحيرة والشعور بالضياع ويحملهم على التمرد ويدفع بهم احيانا الى الانتحار او الانغماس في النسيان بواسطة المخدرات والعنف والمجون ، ويكادون يجمعون ايضا على ان مناهج التعليم الحالية تنفر من الاعمال اليدوية والاشغال التطبيقية ، وتدعم التفكير النظري المجرد ، الاجوف في كثير من الاحيان ، المنفصل عن الواقع ، وأخيرا - لا آخرا - تجتث الشباب من بيئته الطبيعية وتراثه القومي وتفرض عليه مقولات ومقومات وقيما ونماذج حضارية لا تساعده على التلاؤم مع بيئته ولا تؤهله الى الاعتزاز بنفسه وبقومه وبالتابع لا تمهد الى ازدهار الثقافات وحوار الحضارات وتكامل الانسانية ، وهي جميعا أساس الوئام والسلم والاخاء البشري ·

تلك هي قضية القضايا ! ومما يضاعف حيرة المسؤولين والمربين والمفكرين في هذا الصدد ما اصبح الان متأكدا من قرب إطلاق عدد من التوابع الصناعية Satellites artificiels في الفضاء لبث البرامج الاذاعية والتلفزية في مختلف جهات القارة بحيث يستطيع كل فرد ان يلتقطها من دون عناء ·

وبالرغم من أن هذا العمل يضفي على الاتصالات بين الدول والشعوب بعدا جديدا ويساهم في تعزيز التعارف ونشر العلوم والمعارف، وان الذبذبات اللاسلكية مورد طبيعي محدود تملكه ــ نظريا ــ كل الامم وان استخدامها لا يكون الا في نطاق الاتفاقات الدولية للمواصلات السلكية واللاسلكية فانه من الغباء ان نجهل انه لا يوجد فى الواقع إلا دولتان او ثلاث فى مقدورها استخدام هذه الوسائل العجيبة وفرض ثقافتها وفنها واخبارها واعلاناتها الاشهارية ... على كافة الشعوب ــ أحبت أم كرهت ــ مما يخشى معه سيطرة نموذج حضاري بعينه وبسط الدول القليلة الموغلة فى الثروة والرفاه المتقدمة أشواطا بعيدة فى التكنولوجيا ، على ما دونها من الامم سلطانا أين منه سلطان الاستعمار والامبريالية في صيغتهما المألوفة والمكشوفة .

وهو ما ادركته الوفود المشاركة في مؤتمر اليونسكو مما جعل اللجنة المختصة تؤكد بأغلبية ساحقة على ضرورة مراعاة حرمة الامم والتفاوض مسبقا قبل اذاعة هذه البرامج بواسطة الاقمار الصناعية ... إلا انه يخشى ان تكون هذه التوصية توصية جديدة تضاف الى توصيات افلاطونية كثيرة صدرت من قبلها سواء في الامم المتحدة أو غيرها من المؤسسات الدولية . ومن يدري ؟ فلعل مثاليتنا ونزعتنا الانسانية تحجبان عنا حقيقة مرة وهي

أن القانون ليس الا تعبيرا أمينا عن توازن القوى المتقابلة كما يذكرنا بذلك القوم الواقعيون !

وليست القوى التى نعنيها فى هذا المقام القوة المادية والعسكرية بل هي ـ قبل كل شيء ـ القوة التى تتفرع عنها كل الامكانيات الاخرى بما فيها القوة العسكرية ، واعني بها الطاقة الاقتصادية والسيطرة التكنولوجية !

والذي لاحظناه فى ميدان التعليم يمكن تشخيصه بواسطة صيغة اخرى اشد على النفس ولكنها أبلغ في الوصف والتعبير وأدعى الى التأمل والتفكير • ذلك أن 25% من مجموع سكان العالم يتمتعون بدخل معدله 2400 دولار ـ أى 1200 دينار ـ بينما لا يتجاوز دخل 75% الباقين 180 دولار ! والأدهى والأمر هو أن الهوة الفاصلة بين الشعوب الغنية والشعوب الفقيرة فى اتساع مستمر رغم كل المجهودات والمخططات والمساعدات •• إذ أفادت الدراسات أن ربع البشرية يكون دخلها سنة 1980 ، 3600 دولار بالنسبة لكل فرد بينما لا يبلغ دخل الفرد بالنسبة لثلاثة أرباع العالم الباقية سوى 280 دولارا !

فهل يواصل العالم سيره فى هذا الاتجاه الرهيب فيصبح عدد سكانه سبعة مليارات سنة 2000 ويكون الثلثان منهم عبارة عن حشود من الحشرات على حد تعبير احد المفكرين ؟ وهل يتفاقم اختلال التوازن ويستشري تفاوت القوى ويعم اليأس وتشتد الازمة وتزول اسباب السلم والوئام ؟

تلك هي مسألة المسائل وذلك هو السؤال الملح الذي أخذ يفرض نفسه على كافة المسؤولين ، يزيد من حدته ما اصبح يهدد حياة الناس من تلوث الهواء والماء وتناقص الطاقة والمواد الغذائية ...

على أننا لسنا من المتشائمين الذين ينادون بالويل والثبور ، لأننا لم نيأس قط من ذكاء الانسان وقدرته اللامتناهية على مغالبة الدهر والتكيف مع الاحداث والتلاؤم مع الطبيعة والجنوح الى الخير . ولسنا كذلك من المتفائلين الغفل نترك زمام الامور الى الطبيعة ونواميس الاشياء ، بل نحن نواجه منزلتنا بتبصر وشجاعة وننظر الى واقعنا وجها لوجه .

ولا بد من ان نضع الدول الغنية امام مسؤولياتها التاريخية ونحكم ضميرها وننبهها الى مصلحتها الآجلة ! إنها لن تعيش آمنة مطمئنة فى عالم تتوالى فيه الانتفاضات بسبب انتشار الجور والأنانية وجوع الملايين المادي وفاقتهم الروحية . فلا مناص من ان تراجع نظرتها الى العالم الثالث وتحدد علاقات تعاونية وثقافية جديدة مستندة الى التضامن الحي العادل الذكي الذي يجب ان يسود الربع الاخير من القرن العشرين .

إن أصواتا كثيرة تتصاعد مهيبة بهذه الدول ان تخصص واحدا فى المائة من دخلها القومي لفائدة الشعوب النامية ! وان نداءات متوالية ـ آخرها صدر عن السيد

(روني ماهو) المدير العام لليونسكو في سبيل إقرار تعاون ثقافي حقيقي بين الامم ، منزه من نزعة الهيمنة الايديولوجية ، مبرإ من نوايا السيطرة الفكرية ، مستجيب لآمال الأجيال الصاعدة فى العزة والكرامة والتقدير المتبادل • فهل من مجيب وهل يكتب للعالم ان يحقق التحول الذاتي المصيري من دون عنف وكوارث ؟

إن شعوب العالم الثالث مسؤولة هي ايضا على مآل هذا الصراع الرهيب ، لانها تستطيع اذا ما آمنت بنفسها واهتدت الى الأنظمة التربوية الملائمة الموفقة بين ترسيخ الذات والتفتح على التقدم والعلم وأسباب القوة ، ونجحت فى تكوين إطارات قومية بحق ، عصرية عن جدارة ، قادرة على تفجير قوى الخلق في نفسها وفي بيئتها وتغيير ما بها وما بمجتمعاتها ، تستطيع ان تخضع الاحداث لمشيئتها وتفرض نفسها فتربح الرهان ، رهان النمو والتربية فالمناعة والسلم •

فهل يستيقظ ضمير الاغنياء ويرهف شعورهم بالتضامن ؟ وهل يستوي الفقراء على سوقهم ويجابهون الحياة ؟ هل تكون سنة 2000 المنعرج الحاسم فى مسيرة الانسان نحو السؤدد والرفعة أم تكون بداية النهاية ؟ ذلك هو السؤال الكبير الذى يفرض نفسه فرضا فى هذا الربع الأخير من القرن العشرين !

(1 ديسمبر 1972)

تحدٍّ جديد؟

انتهت ـ بانتهاء رحلة أبولو 17 منذ أيام ـ مغامرة الانسان الفضائية عندما حاول غزو القمر ونجح نجاحا كبيرا تمثل فى صيحة نيل ارمسترونغ ذات يوم تاريخي حاسم من جويلية 1969 : « إنها خطوة صغيرة يخطوها الانسان (على سطح القمر) ولكنها خطوة عملاقة بالنسبة للانسانية ! » .

وبالرغم عن ان الثقة المطلقة ـ والساذجة احيانا ـ التى فاز بها العلم منذ مطلع القرن العشرين خاصة ، بوصفه طريق المعرفة الثابت ومفتاح السعادة البشرية الناجع ، قد تناقصت منذ مأساة هيروشيما وناڨازاكي ، اذ اصبح الناس يتساءلون هل ان العلم سيصبح أداة دمار وشقاء كلما تفاقم القلق واستشرى الرعب إزاء هول بعض التطبيقات العلمية ... فان غزو القمر قد بعث

ـ من دون منازع ـ النخوة في النفوس ودعم شعور الانسان بأنه سيد الكون وربما زاد في غروره ! والواقع ان هذا النجاح الباهر جولة إيجابية في تاريخ صراع الانسان مع الطبيعة منذ العهود الغابرة ، وسعيه المتواصل الى تجاوز ذاته ، ومغالبة جاذبية منزلته الارضية بعد التغلب على جاذبية الارض ، من دون ان نهمل الشحنة الشاعرية والقشعريرة الماورائية اللتين لا يعدمهما الشاعر الملهم والفنان الحساس والفيلسوف المعتبر والعابد المتبتل ورجل السياسة المخلص الأصيل ... إزاء جمال الكون وروعة فضائه اللامتناهي والظفر .. « بالقمر » بعد فرط شوق وطول حنين !

نعم ، قد تكون مقابلة التحدي الروسي بعد إطلاق أول مركبة فضائية وجولة « ڤاڤارين » المظفرة في الطبقات العلوية ، بتحد امريكي يماثله ويتجاوزه هي المحرك الحاسم في هذه المغامرة الكونية التي لم تخل من واعز قومي وغاية سياسية هادفة .. لكن ليس هذا هو الأهم . اذ يجب ان نتصور مدى ما أنجز الانسان من اختراعات وحل من مشاكل نفسانية وحقق من مكاسب في دنيا الفنون والتكنولوجيا ، وعندئذ ندرك ان قصة « أبولو » ـ آلهة الحكمة والاعتدال عند قدماء اليونان ـ إنما هي في الواقع صفحة مشرقة من ملحمة « بروميثيوس » الانسان .

ذلك أن عملية « أبولو 17 » ، كسابقاتها منذ 1969 ، وغيرها من التجارب العجيبة التي يقوم بها الانسان يوما بعد يوم ، إلى جانب ما ستثرى به معلوماتنا فيما يتعلق بعلم الجيولوجيا وفيزيا الكون وأصله ، وما وفرته بعد من امكانيات لا تحصى ولا تعد في خصوص استغلال الادمغة الالكترونية ومختلف تطبيقات التكنولوجيا ، من شأنها ان تقنع الانسان ــ أكثر من أي وقت مضى ــ بأنه هو المسؤول الاول عن مصيره ، وان العلم ليس خيرا ولا شرا في حد ذاته ، وأنه ليس قيمة أخلاقية بل هو وضوح رؤية ، وانه في آخر الامر لا يخدم صالح الانسان الا بقدر ما يريد ذلك ، الانسان ذاته ، لان الاختراع ليس له اتجاه ولا ميل ، بل الفكر البشري هو المسؤول عن النتائج الحاصلة ، صالحها وطالحها · ومعنى ذلك ان العلم لا يخدم الانسان خدمة نافعة الا بقدر ما يكون هذا الانسان خيرا ، فاضلا ، ذا ضمير أخلاقي حي · ولعل الفيلسوف **برقسون** قد أشار الى هذه الحقيقة عندما قال منذ أكثر من نصف قرن : « **الآن أصبح للانسان جسم في مقدوره ان يرتقي حتى الى النجوم ولكن هذا الجسم يترقب اليوم مزيدا من الروح** » (*) ·

لذلك عندما يتحسر بعضهم ــ مخلصين ــ على تبذير 26 مليارا من الدولارات لإنجاح عملية أبولو وتمكين بعض

(*) «Avec la science, l'homme a maintenant un corps qui va jusqu'aux étoiles. Mais ce corps attend un supplément d'âme »
(Henri Bergson)

الرواد من قطع أربعمائة ألف كيلومتر للقيام بجولة عابرة على سطح جرم سماوى خال من الحياة والرجوع منه ببعض الحجارة ··· في الوقت الذي يقاسي فيه مئات الملايين من البشر ويلات الجوع والجهل والمرض وتزداد ثروة الشعوب الغنية ويستفحل بؤس الشعوب الفقيرة ··· لا يسعنا الا ان نذكر بعضنا بعضا بأن المتهم ليس العلم ولا عملية أبولو بالذات وانما هو الانسان الذي يعاني أزمة ضمير ويتجرع غصص تناقض ذاتي وجودي ، اذ هو بقدر ما يغزو الفضاء ويكشف من اسرار الطبيعة يبدو جهله بنفسه متفاقما واعراضه عن معرفة ذاته مستفحلا وقصوره في تزكية ضميره متزايدا ·

ولو فرضنا أن عملية أبولو لم تنجز وان الاعتمادات الضخمة لم ترصد للبحث العلمي ـ النظري والتطبيقي ـ في شؤون الفضاء فهل نحن واثقون من انها كانت تنفق فى سبيل مقاومة الفقر والقضاء على الأمية والاخذ بيد الشعوب المستضعفة ؟ لا أعتقد ذلك · ويكفي ان نتذكر ما لا تزال غالب الدول الكبرى الى اليوم ترصده لصنع الاسلحة الفتاكة ونعيد الى الاذهان حجم الطاقات المادية والبشرية المنصرفة اليوم الى الحروب السخنة والباردة وما تخصصه بعض الشعوب المستضعفة ـ هي ايضا ـ من اعتمادات في ميزانياتها لشراء عتاد حربي كثيرا ما تتجاوزه الاحداث ، غفلة منها وتصورا زائفا للمناعة والحفاظ على السيادة !

يكفي ان نتذكر كل ذلك لندرك ان الازمة هي أزمة حضارة قبل كل شيء اي أزمة الضمير الانساني ٠

وعلى هذا الصعيد فان المتأمل فى شؤون الانسان في هذا الثلث الاخير من القرن العشرين لا يمكنه ان لا يبصر الغيوم المتراكمة في الافق اذ اصبحت ظاهرة التلوث والتفكك الايكولوجي في مقدمة مشاغل الانسانية التي آدركت ان الجنس البشري نفسه أصبح مهددا بخطر المحق نتيجة عدم اهتدائه الى السيطرة على اختراعاته وتقدمه الصناعي العظيم ومغالبة جشعه وانانيته ٠

ثم إن خطرا باطنيا يهدد هو ايضا الاجيال الطالعة اي مستقبل البشرية ، نتيجة أزمة التربية في كل البلدان منذ نهاية الحرب العالمية الثانية خاصة ، واختلاط القيم عند الاولياء والابناء وترك اولئك هؤلاء وشأنهم بدعوى الحرية ومقتضيات العصر ، والتضحية بكل شيء في سبيل الظهور بمظهر العصري المتفتح ! كأن المعاصرة الحق لا تقتضي التشبث بسلم قيم ثابتة ورياضة النفس حتى تعطي صاحبها المقادة وتذعن للعقل فيكون الضمير زماما ، متبوعا ، هاديا ٠

ولو اقتصرنا ــ فى هذا الباب ــ على ظاهرة واحدة من الاعراض التي تهدد الشباب في الصميم ووقفنا عند سبب من الاسباب التي تهوى بالمرء الى درك الانحطاط لقلنا ان

طلب الغيبة ومناهضة المجتمع والتوق الى الافلات من الوسط الاجتماعي وما يفرضه من جدل بين الحقوق والواجبات ... أدت الى الاقبال على المخدرات بوصفها مخمدات وستارا سميكا يحجب الحقيقة عن المدمن المحموم ، الامر الذي حدا بالمنظمات الدولية الى تحليله والتعرف على أسبابه والبحث عن انجع الاساليب لمقاومته ، من ذلك الملتقى الدولي الذي انتظم بين رحاب مبنى اليونسكو في ديسمبر الفارط .

ألم يقل رئيس الولايات المتحدة الاميريكية : « **إن الافراط في تناول المخدرات لهو عدو الولايات المتحدة الالد . واذا لم نتوصل الى القضاء على الخطر الذى تسلطه علينا المخدرات فانها هي التي ستقضي علينا لا محالة ؟** » .

ولقد أكد أخيرا ناطق بلسان حكومة ألمانيا الفيديرالية ان الخطر يتهدد صحة ما ينوف عن ثلاثة ملايين من الشبان الألمان وكشفت البحوث عن فداحة الخطب . ففي مدينة كولونيا اعترف 34% من بين 400 تلميذ بالمدارس الثانوية تتراوح اعمارهم بين 13 و21 سنة انهم تناولوا مخدرات ولا يستبعد ان يكون 23 قد أقبلوا هم ايضا عليها .

واتضح من خلال بحث مماثل أجري بجميع المدارس الثانوية بمقاطعة Schleswig Holstein ان 21،7% من التلاميذ

ذاقوا « الحشيش » مرة واحدة على الاقل وان 9،7% ينوون الاقدام على تجربته في أول فرصة سانحة ٠

ولوحظت الظاهرة نفسها بسويسرا حيث تتراوح نسبة من تناولوا المخدرات بين 20 و30% من تلاميذ ثانويات لوزان ، كما لوحظت بهولاندا حيث استجوب 11000 تلميذ باحدى وعشرين مدينة فاعترف 11% أنهم تناولوا المخدرات مرة واحدة على الاقل ٠

أما في الدانمارك فيقدر عدد المتناولين لمشتقات القنب بمائتي ألف من بين 1.200.000 يمثلون عدد السكان الذين تتراوح اعمارهم بين 11 و25 عاما ٠ وفي فرنسا فان 90% من بين المدمنين الذين وقع ايقافهم سنة 1971 ـ وعددهم 1878 ـ لا تبلغ اعمارهم 25 عاما ٠

ولا يمكن ان نحلل أسباب هذه الظاهرة المقلقة تحليلا أوجز ولا أوفى بالغرض مما جاء في تقرير أحد الخبراء الدوليين :

« نحن نشهد أكثر فأكثر كيف توضع الهياكل العائلية والتربوية والدينية المحيطة بالفرد والموفرة للامن والطمأنينة موضع الشك وكيف يتزايد الشعور بالقلق والعزلة وانعدام الامن فيصبح سائدا وذلك لفقدان الحوافز الشخصية او الجماعية ففقدانا يؤدي الى رفض الالتزام تجاه عالم ومجتمع لا يرى لهما معنى او غاية

وكذلك لفقدان الضمانات الكافية في ميدان الشغل واخيرا لما يطرأ على أهداف التعليم وغاياته من مراجعة جذرية » .

ولئن توسعنا في الحديث عن ظاهرة تفشي داء المخدرات في أوساط المراهقين فذلك رغبة في التأكيد على المخاطر التى تتسرب الى القوى الحية الطالعة وتهدد المستقبل ، واستشهادا على الازمة الاخلاقية المستفحلة التى استبدت بالانسانية وعلى التناقض الوجودي الغريب الذي جعل الانسان يسيطر على العالم الكبير الذى حوله ويضعف ايما ضعف فى السيطرة على الكون الذاتي الصغير ، فكأن إنسان اليوم ، ازاء ما ملكت يداه وما كشف عقله وأمام بحران وجوده الباطني وخفوت صوت ضميره ، يناجي نفسه قائلا : أشكو منك اليك .

وان هذه الغيوم المتراكمة في الافق ليس الانسان عاجزا عن مجابهتها إذا ما غير ما به ونزل المربين والفلاسفة ورجال الدين وعلماء الاخلاق المنزلة اللائقة بهم وأصغى اليهم ووازى في سياسته بين شؤون الروح ونواميس المادة .

وليست المعركة ميؤوسا منها اذا ما اتفق أولو الامر وهداة البشرية على ضرورة التحدي الجديد ، ألا وهو غزو الانسان عالمه الذاتي بعد ان غزا القمر وأخذ يفكر في غزو المريخ ... وهو وجه من وجوه الثورة الثقافية !

وليس هذا التحدي الجديد « فرارا الى الامام » بل سعيا ذكيا وعزما حديدا وجهودا منسقة ومحبة خالصة من آجل تزكية النفوس وارهاف الضمائر وطلب الحقيقة والخير معـــا ٠

فهل يصدق الامل ويحالف الجنس البشري التوفيق كما حالفه عندما ٠٠٠ طلب القمر ؟

إن منادي المستقبل ينادينا ، نحن معشر البشر ، وقـد « وضعنا القمر في يسارنا » ، : لنكن واقعيين ، لنطلب المستحيل !! ٠٠٠

(I جانفي 1973)

دعم الشروح العلمية

لا نزال نناضل ـ خاصة منذ ان أسسنا مجلة الفكر سنة 1955 ـ في سبيل استقلال الوطن اقتصاديا وفكريا ، بعد الفوز بنعمة الحرية ونخوة السيادة الكاملة ، ونساهم في توجيه الاجيال الصاعدة حتى تثق في نفسها وتستهدف سلم قيم سامية فى حياتها وتلتحم بحركة الابتكار العلمى والخلق الثقافي والفتوحات الفكرية ، فتتخلص من منزلة المستهلك المستجدي الى مستوى المنتج المبدع ٠

ولئن ركزنا جميعا معركة المصير على ضرورة الخروج من التخلف الاجتماعي والتقهقر الاقتصادي وحققنا إنجازات باهرة في نشر المعرفة وتوفير اسباب الصحة وبناء المسكن اللائق وايجاد التجهيز الاساسي فانه علينا اليوم ـ كما نبه الى ذلك السيد رئيس الجمهورية في الشهر المنصرم ـ مع مواصلة المجهودات المبذولة في

نطاق التنمية ، أن نعنى أكثر من ذي قبل بواجب تركيز الروح العلمية وتدريس العلوم والفنون والتكنولوجيا ، والتشجيع الاقصى على البحث العلمي ، وتوخّي كل السبل الموصلة الى هذا الهدف ، لان الشعوب لن توفق في اجتياز منعرج عام 2000 بسلام ، ولن تضمن لنفسها المناعة والكرامة الا اذا هي أخذت بأسباب العلوم الصحيحة وساهمت في الانتاج وتقدم المعرفة الانسانية ·

وفضلا عن ان البلاد تسير في هذه السبيل خطوات مباركة اذ يوجد اليوم عندنا ما يقرب من 400 عالم وباحث يعملون كامل الوقتاو نصفه فى أكثر من كلية ومعهد عال ومركز بحث ··· منتسبة إما للجامعة او تابعة لوزارتي الفلاحة والصحة او لغيرهما ··· وان الدولة التونسية تنفق في هذا الصدد حوالي مليونين من الدنانير سنويا ، فانه لا بد من مزيد الاحكام لتنسيق هذه الجهود على الصعيد القومي وتشجيع الباحثين والعلماء باصدار قانون أساسي للبحث وايجاد هيئة قومية لتوجيه نشاطهم ، ولا بد كذلك من برامج لتكوين عدد كبير من الفنيين السامين والاختصاصيين المهرة لا يتيسر للباحث مواصلة عمله الا بالاعتماد عليهم والتعاون معهم ·

وهذا يعني ان برامج التعليم يجب ان تراجع على أساس تشجيع مواد الرياضيات والفيزيا والكيميا والشعب التقنية ويعني ان يوجه أكبر عدد ممكن من التلامذة الى

هذه الاختصاصات ، حتى يبرز من بينهم أفذاذ العلمـاء ، ونخلق مناخا ايجابيا موضوعيا مناسبـا يطهـر بعـض العقليات مما لا يزال عالقا بها من اشباح الخيال المريض والاوهام الضالة ويروض الشبـاب على مجابهـة الواقـع والتعرف الى نواميسه ، للسيطرة عليه وتغييره ٠

ذلـك ان نشـر العلـم وتشجيـع اهـل الاختصـاص التكنولوجي يقتضيان ايضا اشاعة الروح العلمية التي لا تتناسب دائما تناسبا تاما مع حجم المعارف ذات الصبغـة العلمية البحتة بل هى عقلية يحتاج اليها الى جانب العلماء كل المواطنين وخاصة الادباء والفلاسفة والشعراء حتى لا يهيموا في كل واد ٠٠٠

ومن جهة أخرى كم عالم بحاثة وطبيب مبرز ومهندس عبقري ورجل سياسة ألمعي حنوا الى الشعر وولعوا بالأدب وكان لهم خيال مجنح وحدس مرهف وومضـات نورانيـة ونفحات قدسية ، ربما أعانت البعض منهم على رؤية مـا رأى واكتشاف ما اكتشف ؟ ٠٠ ألم يكتب افلاطون الحكيم على باب هيكله « من لم يكن مهندسا فلا يدخل علينا » ؟ أو لم يكن فاليري الشاعر الكبير من اكبـر المختصيـن في الرياضيات والاديب دوهاميل والشاعر ابراهيم ناجي من كبار الاطباء ؟ على أن لهؤلاء جميعا تكوينا عامـا متينـا وروحا علمية حقة اكتسبوهما منذ دراستهم الثانويـة ٠ لذلك وجب مراجعة برامج التعليم وتطوير مناهجه حتى

يتكون الشباب الطالع هذا التكـون الاساسـي الصحيـح المتكامل الذي يراعي كل ملكات الانسان ، ويهيئـه فـي نفس الوقت الى الانسجام مع روح العصر والتزوج بـه والقدرة على مسايرته وتسييره •

ثم إنه لا بد إذاما رمنا ـ صادقين ـ ايجاد مناخ ملائم للعلم مشجع على البحث ، من ان نغرس الثقة في النفس ونؤمن بقدرتنا الفردية والجماعية ونحيط كل المحاولات ـ مهما كان مآلها ـ بالعطف والمساعدة ، لاننا ورثنـا الشـك في أنفسنا والتحقير من شأننا ، علاوة على ما يثيره العالم كلما اكتشف جديدا وصدم معاصريه وحتى زملاءه من لامبالاة ومعارضة في البلدان المتقدمة ذاتها •

فان خطأ نظرية **إقليدس** حول الخطوط المتوازيـة قد برهن عليه **قـاوس** سنة 1805 **ولوباتشفسكي** سنة 1825 ولكنهما ـ خوفا من عدم تسامح الناس وادراكهم لما وفقا اليه ـ لم يتجرءا فيصدعا به جهارا الى ان فعل ذلك **ريمان** بعد ما يقرب من خمسين سنة ناسبا فضل السبق اليـه • وهذه نظرية المجال المغناطيسي ل **فاراداي** اعتبرت كنزوة شيخ عالم نالت منه الشيخوخة لم تؤيد وتتأكد عـلى يـد **أنشتايـن** الا بعد ان كان مضى عليها عشرون سنـة • أما قانون **أوم** Ohm الذي كان قانونا أساسيا للكهرباء وتم اكتشافه على يد هذا الاستاذ الالماني الخـامل الذكـر فانه لم يعترف به مواطنوه الالمان الا عندما أكده علماء

الانقليز بعد عشرين سنة • وان الاكتشاف الجوهري للكيمياء من طرف **لافوازيي** سنة 1770 قد قوبل من لدن آكادمية العلوم والاوساط العلمية بعداوة ضارية وتطلب إقراره ما لا يقل عن عشر سنوات ، وبالرغم عن ان **هارفي** الطبيب الانقليزى الشهير اكتشف الدورة الدموية سنة 1622 فان كلية الطب بباريس رفضت الاعتراف بذلك ولم يكتب لهذا الاكتشاف ان يعترف به الا سنة 1657 • وهل نحن في حاجة الى التذكير بان نظرية **كوبرنيك** (1540) لم يتقرر تدريسها بالسربون الا عند قيام الثورة الفرنسية (1789) ، وان مذهب النشوء والارتقاء **لداروين** لا يدرس الى اليوم في بعض الجامعات الامريكية ؟ ! • • •

وعلى هذا الاساس فان شباب علمائنا لا يمكن ان يكون حاجزا دون مساهمتهم الايجابية في انماء العلوم وعليهم ان يؤمنوا هم قبل غيرهم بذلك • فهذا **كبلير** Kepler يكتشف المدار الاهليلجي لمارس ellipticité de l'orbite de Mars وهو في الرابعة والثلاثين من عمره ، وهذا **إ. قالوا** E. Galois يبتكر نظرية المجموعات la théorie des groupes في العشرين من عمره ، وكان **ميكلسون** Michelson في الخامسة والثلاثين عندما برهن على ثبوت سرعة الضوء ولم يتجاوز **أنشتاين** السادسة والعشرين لما وضع نظرية النسبية ، وأقر **ل. دى برولى** Louis de Broglie قواعد الميكانيكا التموجية la mécanique ondulatoire وهو في

الثانية والثلاثين وهذا الشيخ الرئيس **ابن سينا** يقول : « فلما بلغت ثماني عشرة سنة من عمري فرغت من هذه العلوم كلها ، وكنت إذاك للعلم أحفظ ولكنه اليوم معي آنضج ، وإلا فالعلم واحد لم يتجدد لي بعده شيء » وهذا **محمد بن جابر البتاني** (850 ـ 929) بطليموس العرب (انظر الفهرست لابن النديم) بدأ يسجل نتائج ارصاده وله من العمر 27 سنة فأصلح نتائج بطليموس وحرر الميل الكلى (inclinaison de l'ecliptique) وضبطه بقدر 23°5I ، ويقول الفلكي الفرنسي الشهير **لالند** في ذلك : « اذا آضفنا الى هذه القيمة ،،4 التي هي مقدار انكسار الاشعة النورية على طبقات الجو refraction atmosphérique وطرحنا ،،3 لاختلاف المنظر erreur de parallaxe كانت القيمة التى ضبطها **البتاني** ،،23°35،4I بينما كانت عند **بطليموس** ،،23°5I،I9 وبينما هي في الحساب المعاصر ،23°27 » وتم ذلك **للبتاني** سنة 879 م٠ اى حين كان عمره 29 سنة ٠

والواقع ان هذه الامثلة تدل على أن السن ليست حائلا دون الاكتشافات الرائعة مع العلم ان عددا كبيرا من الاختراعات ابتكرها اصحابها في سن الكهولة وحتى الشيخوخة ٠

ولكن المهم هو ان نكون مقتنعين بان البحث العلمي لا يزدهر الا اذا وجد الى جانب التجهيزات الضرورية

والتشجيعات الأدبية والمادية للباحثين والتنظيمات الملائمة المناخ المعنوي الضروري ، وآمن الشعب بنفسه وبقدراته وكان له هدف في الحياة ونشأ ابناؤه معتزين بوطنهم محبين له ، غيورين عليه ، اعتزازهم بأنفسهم وبالانسانية ومحبتهم للحقيقة وغيرتهم على العلم ٠

فلنلائم برامج التعليم والثقافة ـ اذن ـ حتى تعم الروح العلمية كافة اصناف الشعب وتستأصل الشعوذة وتزول العقلية الخرافية وتتركز ارادة الحياة والبقاء فى أجيالنا الصاعدة وحتى نقلع عن الاستهلاك والاستجداء ونخلق ونبدع كما تفعل الدول المتقدمة ٠٠٠ اذا اردنا ان نخرج من التخلف حقا ونساهم فى بناء الحضارة ٠

(I فيفرى 1973)

بين الأمل والفعل

لئن كانت احدى المهازل المحزنة في عصرنا هذا انبعاث دولة ثيوقراطية ـ بدون إله ! ـ على أساس عنصري ، عرقي ، يعتمد تغذية الجوهر اليهودي وإعلاءه ، في وقت تعالت فيه صرخات الضمير الانساني في كل مكان ، محتجة على الفاشية والنازية اللتين قامتا ردحا من الزمن على قاعدة المفاضلة بين الاجناس واستعمال الظلم والابادة وسيلة لبلوغ غايتهما ، فكان من بين ضحاياهما ملايين من اليهود أنفسهم ، فان « مظلمة القرن العشرين » تتمثل في انتصاب هذا « الكيان » في قلب فلسطين العربية بالذات بعد تشتيت أهلها بالحديد والنار والارهاب واحلال شتات من اليهود محلهم ، والنزوع الى التوسع الاقليمي بدعوى استرجاع ارض الميعاد .

انها الصهيونية لا يزال سرطانها يسرى في جسم **الأمة** العربية والشعب الفلسطيني خاصة ، منذ ان تصورها اليهودي الروسي **ناثان بيرونبوم** سنة 1893 ، ثم بلورها **هرتزل** وحدد أهدافها وخطط لها ضمن كتابه « الدولة اليهودية » فى أوائل هذا القرن ... حتى اصبحت اليوم واقعا مفروضا وكابوسا جاثما يهدد ابناء البلاد بالعدم ، والشرق الاوسط بالفاشية والاستعباد ، رغم استنكار الضمير العالمي وأبسط ما يقتضيه احترام المواثيق الدولية .

وليس فى نيتنا ــ فى هذا المقام ــ الاغراق فى التحليلات السياسية او الهيام فى اروقة الدبلوماسية ، ولا ــ من باب اولى واحرى ــ المساهمة فى تعاظم الاحتجاج اللفظي حتى تشتد نبرته ، فالصهاينة ختم على قلوبهم واصبح في آذانهم وقر ، وليس لهم سوى منطق الخداع والقوة ... انما منواجبنا ان ننظر الى القضية الفلسطينية من وجهة حضارية وثقافية وانسانية وان نضع المشكل فى مستوى الوجود ــ او اللاوجود ــ الفلسطيني ، ونتعرف الى حقيقة هذا الشعب المشرد المغبون ، ونسعى الى ابراز مقوماته الاساسية والدفاع عن شخصيته الاصيلة ، لا فقط لما يربطنا واياه من وشائج القربى الروحية والوجدانية ووحدة المصير ، بل كذلك تمسكا باقدس ما تفرضه حرمة الانسان من حيث هو انسان ، ووفاء لما تقتضيه البشرية المتمدنة من احترام

حق كل شعب من شعوبها في الحياة والحرية ، وصيانته من داء العنصرية وآفة الاستعمار .

وان اكبر سلاح نملكه ـ نحن المثقفين ـ انما هو الحقيقة ! فلنفضح الجوهر الصهيوني أمام الرأي العام ولنكشف عن سوءاته ولنبرز مغالطاته وبهتانه عندما يحاول التظاهر بمظهر القوم المضطهدين ويدعى اقامة نظام اشتراكي عادل واحياء أرض موات ... ثم لنعبر ، بكل ما في الحرف من طاقة تحويلية للواقع ، عن كثافة الحضارة الفلسطينية ، ولنعقلن مفهوم الثورة الفلسطينية ، ولنساهم في تجذير شخصيتها وابراز خصائصها واظهارها في مظهرها الانساني النبيل : مغامرة من اجل الكيان وتحرير الانسان ، وشمولا لحركة القوى الطلائعية العالمية في تحديها للعنصرية والامبريالية ، وبذلك نتقحم على الصهيونية في اعز معاقلها اي الرأي العام العالمي والضمير الدولي .

*

ومن الصدق ان نقول ان تبعة هذا العمل تقع اولا وبالذات على الفلسطينيين أنفسهم . كفاهم وصاية ونصحا وارشادا ! انهم اولى بالجهاد الذى أقبلوا عليه من غيرهم واجدر من يفرض وجوده بالعنف ، لان الثورة عنف كالمخاض ، كالحياة في صراعها مع العدم ، مع العبث ، وان الادباء الفلسطينيين مسؤولون قبل غيرهم على بث الوعي القومي وتعميقه واقامته على افتقاد الارض

والحنين الظامىء الى الوطن السليب ، ومرافقة هذا الوعي برؤية نظام اجتماعي واقتصادي ذي أبعاد مستقبلية سخية ، وهم مطالبون ايضا بالشهادة على عزيمة الشعب الفلسطيني فى الحياة وعلى الموت من اجل الحياة ٠

والحقيقة ان الاديب الفلسطيني أخذ يضطلع بهذا الواجب منذ حرب الايام الستة بالخصوص ، كما تحمل الشباب الفلسطيني مسؤولياته منذ 1967 في ساحات الوغى ، واصبح لدينا اليوم أدب « حزيراني » فحل يعبر عن عزيمة فولاذية ذات ابعاد مصيرية ، ويعكس معاناة قاسية ولكنها غير « سيزيفية » ـ كما ذهب البعض الى ذلك ـ ، اذ الهزائم والنكسات ومظالم ذوي القربى ٠٠٠ تحمل فى طياتها بذور المستقبل بالنسبة لمن أرادوا الحياة ، ولان الثورة المقدسة تلسع وجدان الاديب وتلهمه وتبرز ملكات الابداع فيه وتكشف عن ذاته فاذا به ينتج آدبا ذا مجالات انسانية يمهد الى حركية تاريخية جديدة منطلقها الامل ومآلها الفعل ٠

(1 مارس 1973)

تحية إلى الأدباء العرب في مؤتمرهم التاسع

انه ليوم أغر هذا الذي نفتتح فيه على بركة الله مؤتمر الأدباء العرب التاسع ؛ وانه لمن حسن طالع هذا اليوم ويمن بهجته أن يتفضل قائد هذه الامة فيشرف فيه بنفسه على مؤتمرنا هذا ، ويبرز بذلك ـ مرة اخرى ـ مدى تقديره لرجال الفكر والادب ، وشديد حرصه على الرفع من مستوى رسالة الأديب ؛ وإنه إذ يطيب لي أن أشكر لكم ، سيدي الرئيس ، باسمي الخاص وباسم كافة الأدباء العرب الحاضرين هنا ، هذه اللفتة الكريمة وهذا التشجيع الصادق الذى ما فتئتم تغدقونه على الشعراء والكتاب ورجال الفكر ، ليسعدني ان ارحب بضيوفنا الكرام الميامين في وطنهم الثاني تونس الخضراء ، أرض اللقاءات والمحبة ، وأن أتوجه اليهم بتحية مخضلة العبير ، فواحة الاريج ، تعبق بأجمل ما نكنه لهم في نفوسنا من خالص الود وصادق التعبير .

وعسى أن يتيح هذا الملتقى الفرصة لكافة الأدباء العرب ليتعرفوا الى نهضة تونس ومدى ما تشارك به من جهود في خدمة الثقافة العربية والرفع من شأن الانسان ، بعد أن توج جهادها الطويل بالفوز المبين إثر كفاح تحريري مرير دام الطور الحاسم منه ما يزيد عن ربع قرن واستشهد في سبيله آلاف التونسيين البررة ٠

وإن من ابغاد هذا النضال الذي اضطلع به الحزب الاشتراكي الدستوري وقاده الزعيم الحبيب بورقيبة أنه فرض إرادة هذا الشعب العربي المسلم الذي أنشد شاعره أبو القاسم الشابي منذ حوالي خمسين سنة :

اذا الشعب يوما اراد الحياة
فلا بد ان يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلي
ولا بد للقيد أن ينكسر

فاستجاب القدر ونجونا من الفرنسة والمسخ والذوبان التي كانت سياسة نظام الحماية المفروضة بالحديد والنار تسخر من أجلها قواها المادية والبشرية ٠

على أن النضال لم ينته بالحصول على الاستقلال والفوز بالسيادة وتحقيق الجلاء العسكري ثم الجلاء الزراعي بل إن معركة البناء والتشييد وإقامة نظام اجتماعي حر وعادل لا تقل خطورة ولا صعوبة ، لان العدو كامن فينا نابع من تخلفنا الحضاري ٠

وإذا نحن أفردنا القول في الجانب الثقافي من هذا النضال قلنا اننا حريصون على اقامة صرح ثقافتنا على أساس ذاتية قومية سالمة من مستعار النماذج ودخيل الأنماط والأساليب ، وذاتية قومية سالمة بالخصوص من التحجر والتقليد واجترار الماضي المحنط ، فمن الوفاء ما يكون نضوب حياة واختناقا ، ومن أشنع صيغ الاحتماء من ملابسة الغير بدعوى اتقاء شره ما يكون معناه ونتيجته إمساك الظمآن عن الماء · بل إن مطمحنا تجديد ثقافتنا كأحيا ما يكون التجديد وأصدق وأخصب ، بحيث لا تبقى جاثمة في موقف الاستهلاك السلبي والاستجداء المشين ، بل تفرض نفسها وترد الفعل ويكون لها من الطرافة والانفساح والتدفق ما يبوئها مكانة مرموقة في عالم يقتضي الصحو الفكري ويتجه نحو التحاضن الثقافي ، واصبح المثل الاعلى في كافة ارجائه امتلاء الانسان بالذات الانسانية · بذلك نلتحق بالركب ونساهم في خلق المصير الانساني وبذلك نعرف لمنزلتنا قدرها في كيان هذا الكون ·

وليس بلوغ هذه المقاصد البعيدة بالتمني وانتظار المعجزات ، بل بوضع خطة تربوية وثقافية شاملة ، وطويلة المدى ، لخلق عقلية تعتمد الروح العلمية والتفكير الموضوعي لفهم الحقائق والالمام بنواميس الاشياء قصد التأثير فيها والملاءمة بينها وبين مطامحنا في الحياة ، وهذا يقتضي عقيدة دافعة وثقة في النفس

راسخة اذ الافكار والمبادىء التى عاشت وغيرت مجرى التاريخ انما استمدت حياتها وحيويتها وطول نفسها من قلب انسان كبير وتغذت من طاقة مناضل صامد ٠

على أن الدرب طويل وشائك ، اذ نحن لا نزال فى العالم العربي نعاني رواسب قرون الانحطاط وعهود الاستعمار ولا نزال نتجرع غصص الهزائم ونقاسي مرارة التأزم والقلق والتيه ، والصهيونية تتحدانا وتمعن في النيل من معنوياتنا وتشكيكنا في انفسنا ومستقبلنا ٠

ويحسن أن نكون صادقين متشجعين عند تحليل الواقع اذ لا دواء بدون تشخيص للداء ٠ فقد كنا منذ سنوات قليلة نستعيض عن واقعنا المر بالخيال والخرافة ونتسابق فى مؤتمراتنا الى الحماسة كأننا نافرون الى غزو المريخ او قاصدون ساحات الوغى ؛ وفعلا سجلنا انتصارات باهرة فى استديوهات الاذاعة وأبدنا أعداءنا على شاشة التلفزة ! ثم رجنا الواقع رجا فصحونا من غيبوبتنا فكانت الصدمة وحل الانكسار والفشل وكاد ان يعم اليأس ٠

ولكن الانسان العربي ينهزم ولا ينسحق ، ويكبو ولا ينبطح ، بل يستلهم من ذاته التاريخية العريقة وارادته الفولاذية فى الحياة ما يقوى به على النظر الصحيح للواقع ويوفق بفضله الى تبين طريق الشرف والنضال والصمود والمساهمة الايجابية في مغامرة الانسان يقرر مصيره في هذا الربع الاخير من القرن العشرين ٠

وإن الأدب العربي في السنوات الاخيرة اذ يعكس هذه المتناقضات ويعبر عن تلك الحيرة ، يحمل تباشير وعي جديد ونظرة حصيفة وموقف مسؤول ·

وإنما يتجلى ذلك بالخصوص فى الانتاج الادبي المستلهم من الثورة الفلسطينية المباركة التي أغتنم هذه المناسبة للتوجه الى كافة ابطالها بالتحية الصادقة والتقدير الكبير ، إذ هي لا تحمل فقط آمال الشعب الفلسطيني في استرجاع ارضه المغتصبة وتشييد كيانه بل تبلور آمال الامة العربية قاطبة فى التخلص من الظلم والتبعية والاستغلال وتستجيب الى مطامح الانسانية فى القضاء على العنصرية والاستعمار ، وتوفير أسباب السلم والتآخي بين كافة البشر ·

وفي هذه المرحلة المصيرية التي تجتازها الشعوب العربية نعتبر ان للأديب دورا حاسما في كسب الرهان · وأرجو أن تتضافر جهودنا جميعا للنهوض بما يحملنا التاريخ من تبعات وما تعلقه علينا أمتنا من آمال ·

ويقيني أننا سائرون في الدرب الموصل وان شعورنا بالمسؤولية سيعيننا على تجاوز الجزئيات والهامشيات والاعراض بل يحملنا على النفاذ الى الجوهر والتمسك بالصدق في القول والاخلاص في العمل ·

والله أسأل أن يلهمنا الى الواجب ويمدنا بالقوة على الاضطلاع به وعسى ان يكون هذا المؤتمر عامل تقارب وتآخ وأن تكونوا معتزين بوجودكم في وطنكم الثاني تونس التي تتشرف اليوم بلقائكم وترجو لكم إقامة طيبة وعملا صالحا (*)

(1 أفريل 1973)

(*) افتتح مؤتمر الأدباء العرب التاسع بتونس يوم 18 مارس 1973

نتائج مؤتمر الأدباء التاسع

لكي نعرف هل كان مؤتمر الأدباء العرب التاسع ناجحا وجب ان نتفق على اغراضه ونتبين مطامحه ، حتى لا نتجرع مرارة الشعور بالفشل أو نعاني أزمة خيبات الامل ·

والحقيقة التي تفرض نفسها على كل ذي ذوق سليم وتفكير مستقيم هي ان اجتماع الادباء العرب وشعرائهم ، مهما كان مستواهم واخلاصهم ، لايمكن ان يسفر عن قرارات حاسمة او يضمن تنفيذ ما يصدرونه من توصيات ــ وقد مر على انعقاد اول مؤتمر لهم حوالي عشرين سنة ــ لسبب بسيط هو أن الحكومات هي التي تملك وحدها القدرة على ذلك في نطاق دساتير البلدان المعنية وبعد مصادقة البرلمانات والهيآت الاستشارية · وكان يحسن بالرأي العام العربي ان يطالب باجتماع

وزراء الثقافة والتعليم العرب لوضع استراتيجية للنهضة بالثقافة العربية المرتجاة وتحرير الفكر العربي مما يكبله من شتى الرواسب والعراقيل المادية والمعنوية ، واستشفاف مصير الأمة العربية في سنة 2000 والطرق الكفيلة بجعلنا نسهم في الحضارة الانسانية •

وحتى لو التأمت مثل هذه الاجتماعات وتوفر لها من صفاء الجو ورسوخ العزم ما لم يتوفر في مؤتمرات عربية على « مستويات »أخرى ، لوجب ان ننتظر سنين طويلة نظرا للتفاوت الحضاري الموجود بين البلدان العربية والمتناقضات الاجتماعية والاقتصادية التي ورثتها عن تاريخها البعيد والقريب والخصومات الايديولوجية التي تبدد طاقاتها وتشتت شملها ونظرا بالخصوص للخطة الاستعمارية والصهيونية التي تحرص على صرف اهتمام القوى العربية الطلائعية الى التناحر والتشكيك وزرع بذور التخاذل واليأس من المستقبل •

وانما يتجلى دور الادباء ورجال الفكر في التوعية وتجديد القيم والمساهمة في رفع مستوى الجماهير وتبصيرها بواقعها ، في اطار الكيان القومي واحترام المقومات التي تكون بها الأمة أمة متميزة منيعة •

ولا يكون هذا الا اذا توفر ـ لدى رجال الفكر ـ المستوى الثقافي والاخلاقي بالخصوص ومن مقتضياته الصدق في القول والتضحية من أجل المبدإ والتعلق

بالحرية لا التي تقرها المجتمعات المتمدنة وتجود بها الأنظمة وتضمنها الدساتير فقط ، بل الحرية الذاتية التي تجعل الاديب ورجل الفكر متحررا من الانانية والطمع والوصولية والانتهازية والانتماء المذهبي الاعمى وهي حرية نابعة من الذات ومكتسبة في الآن نفسه بالمران ورياضة النفس والعزيمة ، إذ ليس بطل الحرية ــ دائما ــ ذلك التي يتخذها شعارا يردده في المناسبات ، أو سبيلا الى الزعامة الادبية التي يعتقد البعض ان استمالة الشباب وتملق أهوائهم سبيل اليها •

كما ان أدق المواقف وأصعبها ــ وأنجعها أيضا ــ لا تتمثل دائما في الرفض والحقد والمواقف المانوية والوقوف على ربوة التطرف اللفظي والملاوذة « بالغرنطة » الثقافية بل تتجلى ــ أحيانا ــ في الحوار مع الواقع البشري والجدل معه قصد تغييره تدريجيا وفي إيثار الحلول الوسطى الثورية بحق ، وتتجلى كذلك في المحبة والتفاؤل وعزيمة التعاون وارادة الخير والملاءمة المتواصلة المضنية بين الممكن والمؤمل ، بين القول والفعل •

لكل ذلك لم ننتظر من مؤتمر الادباء العرب التاسع الا ما كان في وسعه ان يحققه • ومن أهم مكاسبه انه مكن عددا كبيرا من الادباء والشعراء من التعارف والتوادد وتبادل المعلومات والتجارب ومكن أكثر من مائة أديب عربي من زيارة تونس لاول مرة والوقوف على نهضتها

والاعتزاز بانجازاتها في شتى الميادين وصرح الكثير منهم انهم كانوا يحملون عنا وعن وطننا صورة مشوهة ، ولذلك نقصت العزلة الفاصلة بين شرق الوطن العربي وغربه ، وقطعت خطوات في سبيل الوحدة التي تقتضي أولا المعرفة الصحيحة والتقدير المتبادل والعزيمة المشتركة على بناء المصير الواحد ·

وإن « الجو الهامشي » الذي اعتبر احد الصحفيين الاشقاء ان اتحاد الكتاب التونسيين أغرق فيه المؤتمر والمؤتمرين هو بالضبط أحد مكاسب هذا الملتقى لأن « السياحة » وزيارة المعالم الأثرية ومشاهدة المسرحيات ومعارض الكتب والاجتماع بالمسؤولين والحوار معهم ، والتجول عبر البلاد من العوامل التي تدعم الصداقة وتوطد الاخوة وتزيح العراقيل عن طريق المستقبل ·

وإذ نأسف لسوء التفاهم الذي ظهر بين بعض المؤتمرين ــ بل بين وفد واحد عزيز علينا وبقية الوفود ــ فقد حرصنا ــ بوصفنا مسؤولين عن التنظيم ــ على أن نكون محايدين وواجهنا في سبيل ذلك صعوبات جمة ولم تصدر مواقفنا عن انحياز لوفد دون آخر بل كنا ملتزمين بقرارات الأغلبية ولعل ذنبنا يتمثل في اننا آثرنا العمل الجدي والتنظيم المضبوط وحصول الاتفاق ولو على ما هو دون المرتجى اجتنابا للفوضى والقطيعة وشماتة « الملاحظين » واعداء الأمة العربية ·

وليعلن من يشاء ان يعلن انه غير مرتبط بالسلطة وانه حر ، تقدمي ، غيور على الحرية ! فان الارتباط بالسلطة لا يعني حتما الخضوع اليها بل قد يكون احيانا توجيهـا فعالا لساستها وتسخيرا ذكيا لها في سبيل خدمة ما يؤمن به المثقف الشريف من مثل ومبادىء ، اذ السياسة الحـق اخلاق واختيار وصدق ، وقد يكون الارتبـاط بالقـوى المالية او المذهبية أشد عبودية وبشاعة وإن تقنع بقناع التقدمية والتطرف في خدمة المبادىء ٠٠٠ والمستقبـل كشاف ٠٠٠

ومهما يكن من امر فانه من واجب اتحاد الكتاب العرب ان يراجع قانونه الاساسي ونظامه الداخلي على ضـوء تجارب العشرين سنـة المنصرمـة وان يبحث عن طـرق أنجع لتنظيم المؤتمرات المقبلة ويسعى الى اتخاذ قرارات جدية وعملية من شأنها ان ترفع من منزلة الكتاب العرب وتضمن اشعاع الفكر العربي في العالم ٠

فهل يتحقق ذلك؟ ان ما نلتزمه من واقعية وموضوعية وما نتوسمه في مستقبل الأمـة العربيـة من إمكانيـات وطاقات ، رغم استهتار الصهيونيـة ودعـاة الانهزاميـة وأقزام الكتاب وتجار القلم وضحايا الدعايـات الضالـة وتسميم الافكار ٠٠٠ لا ينفي الامـل بل يشـد العـزم ويضاعف الايمان ٠

(I ماي 1973)

الاتجاه القويم

طالعنا بكل اهتمام وارتياح الخطاب الذى القاه في شهر فيفري الفارط السيد « **روني ماهو** » المدير العام لمنظمة اليونسكو بمناسبة تسلمه جائزة « مونتاني » لسنة 1973 من طرف مؤسسة ألمانية مستقرة بمدينة « همبورغ »

ولئن عبر السيد روني ماهو في هذه المناسبة عن افكار قيمة جديرة بالتمعن ، كعادته في مثل هـذه المـواقف ، فان ما قاله حول تعدد مراكز الاشعاع الثقافي وتكاملها ، وتحذيره أوربا من مغبة الهيمنة الفكرية ومعرة السيطرة العقائدية والامبريالية الايديولوجية ، لينسجم مع مـا لم نزل ندعو له وننبه الى ضرورتـه منذ اعـوام طـوال ، احتراما للذات البشرية ، ووفاء لـروح الثقافـة الحـق وخدمة للاتجاه الانسانـي السليـم ، الـذي لا يسمـح بالاعتداء على الثقافات القومية بدعوى التفـوق المـادي

والسبق التقني وحتى الحضاري ، بل يقتضي ان تساهم كل امة بخير ما تجود به عبقريتها فى اثراء التراث الفكري البشري ، واعلاء شأن القيم السامية ، ورعاية طرافة الشعوب ، من دون انحياز الى نموذج جمالي او نمط حضاري ٠

بل ان التسامح والاريحية وسمو الاخلاق ومقتضيات التعايش السلمي تعني جميعها التفتح على الغير ، أي الاستعداد النفسي لحسن الظن به والاصغاء اليه والتواضع القبلي والمبدئي ازاء آرائه وانتاجه وترقب الجديد الطريف منه ونشدان الحوار الايجابي معه ٠

يقول روني ماهو مخاطبا رجال الفكر في اوربا والعالم المتقدم عامة : **ان التفتح الحق على عالم اليوم لا يمكن ان يتم الا اذا أدركنا تمام الادراك ان هذا العالم يرفض السيطرة ـ مهما كان نوعها ـ في ميدان الثقافة ، وان العلاقات بين الدول لا يمكن ان ترتكز الا على قاعدة الاعتراف بتعدد المراكز القادرة على الخلق بل تزايدها تزايدا لا يقف مبدئيا عند حد ٠**

ان اوربا لم تفقد ـ ولا شك ـ شيئا من قدرتها على الخلق ٠ والعالم شاعر ازاءها بذلك ، معترف لها بما تقوم به في توجيه مصير الانسانية من دور لا يمكن ان يوجد له بديل

ومع ذلك فانه يتعين على أوربا أن تتخلص نهائيا من خناس الكبرياء الذي ما زال ـ بعد انقراض هيمنتها ـ يوسوس في صدرها ·

ان نجاة اوربا رهين هذا التخلص واشعاعها الروحي المحرر متوقف عليه · وهذا ما يفرض عليها ان تتخلى نهائيا عما كانت تعتقده من صلاحية طرقها وانماطها لكل زمان ومكان ، وأن تقتنع بأن تلك الطرق والانماط ينبغي ان تعرض ، لا أن تفرض ، وأن تقدم من حيث هي امكانيات قابلة للاستثمار بعد ان يدخل عليها من التكييف والمراجعة الجذرية أحيانا ، ما يجعلها ملائمة لواقع البلد الذي يروم اتباعها ·

وقبل هذا وذاك يتحتم ان يندرج كل استيراد ثقافي وتقني في نطاق عملية تبادل للخدمات لا في بوتقة اعانة مزعومة منطوية حتما على الوان من الذل والاهانة ، ومكتسية مظهرا من التجرد لم يعد ، لاسباب واقعية ظاهرة ـ ينطلي على أحد ·

وثقوا ان العلاقات بين اوربا وبلدان العالم الثالث اذا هي لم تستجب لهذه المقتضيات ، ولم تعتمد مبدأي الشمول والتبادل ستبوء بفشل ذريع ، لايكون في صالح أحد » ·

ونحن اذ نعبر عن أملنا في أن يجد هذا النداء الحار الصادق ما هو جدير به من صدى في الأوساط الثقافية والتربوية بأوربا وأمريكا ، وننوه بما لا يزال يبديه المدير العام للمنظمة الدولية للتربية والعلم والثقافة من علو همة وبعد نظر واتساع أفق وسداد رأي ، فاننا نهيب برجال الفكر والادباء والفنانين في العالم الثالث عامة ، حتى يمعنوا النظر فى هذا الموقف ، لعلهم يفوزون بمزيد الثقة من انفسهم ، ويصبحون لرسالتهم أشد وعيا وبشعوبهم أقوى التحاما ، وعلى اشعاع قيمهم الاصيلةاكثر تصميما ومن اجل المساهمة فى الحضارة الانسانية ارسخ قدما واطول نفسا وابقى اثرا .

وكلمة اخرى لا بد من ان نقولها . اننا نقلنا فقرة طويلة من خطاب روني ماهو باعتباره من اقطاب رجال الفكر وكبار المسؤولين عن حظوظ التربية والثقافة منذ آكثر من عشر سنين حتى نقيم الدليل مرة اخرى على أن مواقفنا في خصوص ضرورة تعدد الثقافات وحتمية تكاملها ليست صادرة عن تعصب او ضيق نظر او هي نابعة من عقلية جيل لم يهضم بعد الاستقلال ولا تحرر من كابوس الاستعمار التحرر الكامل ، بل انما أملاها تأملنا في تاريخ الفكر وتحليلنا الموضوعي لحقيقة الثقافة ورسالتها المقدسة وتشبعنا بالاتجاه الانساني السليم .

فهل تساهم أقوال المدير العام لليونسكو فى فتح البصائر وتوجيه الجهود الوجهة السديدة ؟ هذا ما نأمل ان يكون من دون صراع وفي مأمن من التوتر والبغضاء والاحقاد ، بل في كنف التقدير المتبادل والمحبة وعلى أساس التباري النزيه ، خدمة للسلم والتآخي البشري ونصرة للقيم الانسانية الخالدة •

(I جوان 1973)

رسالة إلى أديب شاب

إني أحسن بك ظنا وأتوسم فيك خيــرا وأرجــو لــك مستقبلا أدبيا زاهرا ، وان كنت أشفق عليك من الغرور والادعاء فاني أعوذ بذكائك وعزمك من الكبر والخيلاء .

ومع اني اعلم أن نفسك هي أخص النفوس بك وانك أدرى بها من سواك ، واعرف أنك بطبعك عن النصيحة راغب ، إذ أنت الى استقــلال الذات تائــق وبالتجربــة الوجودية الفردية متمسك ، فاني أذكرك ببعض الحقائق المستقاة من التجارب والمستقراة من تاريخ الفكر البشري عسى ان تتأمل منها وتعتبر بها في هذه الفترة التي تتوق فيها الى الراحة بعد مشقة الدرس وعناء الطلب .

اعلم ـ علمك الله الحكمة وبصرك بنفسك وقواك على أخذ زمام أمرك ـ أنك مهما أوتيت من العلم ورزقت من

الفطنة فانك لا تزال فى أول الطريق ، فاياك ان تتـرك للتمذهب الأعمى اليك سبيـلا وللانحيـاز الآلي عليـك سلطانا ، واجتنب تغييب القضايا او اختزالها ، والهروب منها الى التجريدات والتهويمات ، والاستعاضة عن الواقع الحي المتطور بالشعارات ، بل تيقظ الى ما حولك ومحص الصحيح من الزائف ، وعبد طريقـك الى الثقافـة الحـق والحرية الحق والكرامـة الحق بالجهـد الـدائب والطلب الدائم ، والشوق الى الافضل والتـوق الى الاعلـى ، اذ انسانية الانسان لا تعرف حـدا بل هى تجـاوز للـذات متواصل وكسب مستمر وتجديد وخلق ؛ فى عالم سيطرت فيه الوسائل السمعية البصرية ايمـا سيطـرة ، وعمدت أنظمة كثيرة الى تكييف الجماهير وتسخيرها رغم ادعائها التقدمية والديمقراطية والاشتراكية ··· وضيقت الآلة والدعاية وأنماط السكن وضـروب التعفـن من حريـة تصرف الافراد فاذا أكثرهم يساقون سوقا الى متعة وهم وسعادة سراب ·

فليس التمرد السفيه ولا السباب المجاني ولا امضـاء العرائض ولا القول بالمانوية المذهبية والدعوة الى حرب الطبقات أو جدلية تنازع الاجيال ولا العنف او الرفض الكلي ـ وحدها ـ بحلول حتمية ناجعة او ضمانات فعالة لحماية الذات الانسانية والذود عن الحرية او اقرار العدل والسلم واحلال المحبة محل الشحناء والبغضاء ·

إن الثورة الثقافية – في مستوى الفرد ثم على صعيد المجتمع – هي الطريق المستقيمة ولكنها تقتضي الايمان بالانسان بوصفه غاية الغايات ، وبأنه يخلق نفسه خلقا ويتجاوز ذاته ويصنع التاريخ ولا يصنعه التاريخ ، فلتعرف نفسك – كما قال **سقراط** – ولتتحرر من الافكار القبلية والنظريات البراقة ولا تكن كلبي النزعة ، تصيح وتهتف وتتحمس ، سجينا للمجردات والقبليات تبيعا للفئات والتكتلات ، وذاتك فارغة وقلبك جاف وعقلك مقيد ، وفكرك مكبل !

هي الطريق الصعبة أدعوك الى اختيارها واطلب اليك جهدا وبذلا وطموحا للسير فيها · وهي التجارب الصادقة المتواصلة احضك على الاقبال عليها من دون ان تخشى ما قد تتعرض اليه بسببها من المآخذ والمآتي ، فبذلك تتحرر من منزلتك المادية وتعيش حقا ، ولا يصح فيك ما قاله الفيلسوف اللاتيني **سيناك** Sénèque في شخص بلغ أرذل العمر : « **تقول إنه عاش ثمانين سنة ؟ لا ! بل ان العمر امتد به ثمانين سنة !** » Il a vecu 80 ans? Non ! il a duré 80 ans (فى رسالة الى لوسليوس Lucilius) ·

واعلم اني لا أعيب عليك طموحك بل اني اقدر فيك الهمة العالية والحرص على بلوغ اعلى المراتب الادبية · الا انه من واجبي ان أذكرك بان قيمة الاديب والفنان ليست بالضرورة في الرفض والتمرد والتنكر والهجوم ·

ولا شك أن أغلب الكتاب والفنانين عاشوا في حالة تأزم ضمن مجتمعهم وعصرهم ، وتمردوا على القيم الموروثة وضاقوا ذرعا بالعادات والقوانين وتحدوا الاوامر والنواهي الاخلاقية والجمالية والسياسية ، ونالهم – في حالات عدة – الضيم وباؤوا باللعنة او لاذوا بالعزلة ٠

ولكنهم فرضوا انفسهم وكانوا عظماء بحق – لا بمجرد الرفض والتحدي والصياح والضجيج والفوضى الفكرية ٠٠٠ – بل لأنهم أبدعوا وتخلصوا من قيود مكانهم وزمانهم ، اي انهم تحرروا من جاذبية مركباتهم وحسدهم وغرورهم وعجبهم وتجاوزوا « تاريخيتهم » وحلقوا في ذرى الفن ، اذ انتجوا انتاجا أجزل مادة من غيرهم واينع ثمرا وأوسع إشراقا ، ونفذوا الى الجوهر وأصابوا الواقع في الصميم فأثروا فيه وغيروه وطبعوه بطابعهم ٠

ويشترك في هذه المنزلة من رجال الفكر والفن من تمرد وكفر وسخر ورفض ومن آمن وتعايش ونافح وتضامن ، لا فضل لواحد على الآخر الا بما أبدع وخلد ٠

عندما نتأمل اليوم هندسة الاهرام الفرعونية ونعبر عن اعجابنا بها لا نفكر في اتهام المهندسين والنحاتين ، المعروفين منهم والمغمورين ، بتخليد آلهتهم وعظمائهم ،

ولا نغمطهم حقهم في التنويه والتمجيد او ننكر عليهم حظهم من العبقرية بدعوى أنهم تعاملوا مع الحكم القائم في مصر القديمة او خضعوا الى قيم عصرهم الدينية ؛ وكذلك الامر بالنسبة لمن صمم الاكروبول بأثينا ولمن شيد المساجد والمآذن والكنائس ورسم بديع الصور وروائع الفسيفساء ...

وسواء زاغ **أرسطوفان** عن اتجاه الحكم القائم في آثينا القديمة وتمرد الصعاليك على قومهم وكشفوا عن سوءات قبائلهم او انصرف **سوفوكل وآشيل** الى التغني بمآثر مدينتهما فيما ألفاه من المسرحيات ، والتزم شعراء الجاهلية وصدر الاسلام الدفاع عن ذويهم والمنافحة من أجل عشيرتهم ونصرة عقيدتهم ، فان الذي يهمنا منهم جميعا ، من حيث انهم أدباء مبدعون ، هو أدبهم وروائع شعرهم وخالد مسرحهم .

وبينما لا يزال النقاش متواصلا في بعض الاوساط لمعرفة مقاصد **شكسبير** ، هل قصد التشهير بأخلاق عصره وإدانة الحكم المطلق عندما أمعن في وصف الخبائث والجرائم التي حفل بها تاريخ انقلترا على تعاقب عهوده ، أم هل انه تفنن في تشخيص عاهات هذا التاريخ للتنويه بعهد الملكة أليزابيت السعيد ، فان مؤلف « هملت » و « مكبث » و « الملك لير » لا يزال في قمة المجد المسرحي يمتع النفوس ويحرك الخيال ويلهم الاجيال .

وشبيه به **موليــار** الذي أضحك الملك لويــس الرابع عشر وأغضب نفرا من المحظوظين ، وشهر بعيوب بعض رجالات عصره • ولكنه دخل في التاريخ من بابه الكبير لأنه سبر أغــوار النفس البشريــة وأسبــغ على وصفــه وحواره من جلال الفن وشفافية المعنى ولطافة المبنى ما جعل الناس في كافة أنحاء العالم يكلفون به ويتسابقون الى مشاهدة رواياته منذ ثلاثة قرون •

فلتقبل على البحث والمطالعة ولتتمعن فى الرأي قبــل الاخذ به او رفضه ولتتدبر الخبر قبل تصديقه ولا تكونن لشيء أشد ضنا منك بحرية الرأي ولا أشد تعلقا منــك بملكة التمييز •

ومهما تثقفت وجربت وعاشرت الناس ، ووعيت أخبار من قبلك فأضفت ـ حسب قول الشاعر القديم ـ أعمارا الى عمرك ، ومهما بلغ يقينك بالمذهب الذي اليه تدعــو وبه تبشر إياك والتعصب والانسياق مع الهوى ، الذي هو بلية البلايا ، يحجب عنك الواقع الحي ويجعلك عاجزا عن التفتح الى الجديد والتطور مع الحياة ، بل يفقدك أدب النفس من حيث أنك تسعى الى أدب القلم •

وإني أقدر طموحك وإرادتك السبق والتفــوق ، بل ألتمس لك عذرا اذا أردت أن تملأ عصرك وتشغل الناس ـ مثل **المتنبــي** ـ الا أن أيسر الطرق وأقصرها لبلوغ

ما تحلم به وترنـــو اليه ليس في تحطيـــم من سبقـــك او الازورار عمن عاصرك ولا ــ من باب اولى واحرى ــ في الهجوم على من أخذ بيدك وأرشدك فى خطواتك الاولى ، ولا تغتم مما سبق ان صدر عن أولياء نعمتك من تعطف عليك واحسان اليك ولا تؤاخذهم اذا كانوا بك أرأف من سواهم واليك أكثر تطلعا ورنوا ولك أحب وأوفى ٠

واعلم ان أقوم المسالك وأضمنها ان تبني مجدك بنفسك دون تطاول على الغير او ضياع في متاهات الجدل العقيم ، وان تتمسك بالجوهر وتترفع عن الاعراض والاغراض ، وتتوخى الصدق والاصالة ، وتعيـــش حقـــا ، وتعانـــي مغامرتك الوجودية ، فتستولي على الامد ويكـــون الدهـــر عمرا لك ٠

ذلك قصاراك فخرا وحسبي جزاء ٠

(I جويلية 1973)

الرهان على الانسان

لعل ابرز ظاهرة نشهدها منذ الحرب العالميــة الثانيــة بالخصوص ، كلما حاولنــا تبيــن خصائــص الحضــارات الكبرى ، فى العالم المتقدم وفى البلــدان المتخلفــة التي كثيرا ما تحاكيه نخبتها المكيفة بثقافته فتتبنــى همومــه ومآسيه ، شك الانسان في نفســه ، وشعــوره بالحقــارة والانسحاق والعجز ، ويأسه من السيطــرة عــلى العــالم وتقرير مصيره الذاتي والجماعي ٠

ويتسابق المسرح والسنمــا وشتــى فنــون الادب الى تصوير عبث الوجود والتأكيد عــلى استحالــة الاتصــال الانسانى الصميمي ncommunicabilité foncière والاغراق في وصف حس الافراد والجماعات بالظلم الكوني المسلط على الانسان ، حتى اصبحت قيمة الخلق الادبي والفنــي

تقاس بالقدرة على تشخيص الجانب الغريزي ، والمادي ، للبشر والبراعة في الدعـوة الى التحـرر من « العقد » والجمالية المألوفـة والانهمـاك في الملـذات والنـزوات الفردية ، والهروب من تبعات الحيـاة وتعبهـا بواسطـة الافيون والعنف وحتى الانتحار ٠

وقد يكون الذى مهد الى شهرة شيخ الوجودية ج٠ ب٠ سارتر ، ما ذهب اليه في اعقاب الحرب العالمية الثانية من أن الانسان نذل (Salaud) أساسا ، لا تورث معاشرته الا الغثيـان ، وبالرغـم من انه القـى بعد ذلك محاضرتـه « الوجودية مذهب انساني » أكد فيها حرية الانسـان ، كأنه اراد ان يكفر عن قصته « الغثيان » La nausée فـان « جهنـم ــ بالنسبـة للفـرد ــ أي فـرد ــ ، تتمثـل في الآخرين » ! حسب قولته الشهيرة ٠

وهذا احد دعاة الهيكلية ، م٠ فوكو يدعـى أن « كل الابحاث المتمثلة فى العلوم الانسانية لم تقض فقط على تصورنا الكلاسيكي للانسان والمذهب الانساني ، بوصفه مرجعا لكل حضارة ، بل هى تنزع الى التأكيـد عـلى لا جدوى معنى الانسان ، بالنسبة للبحث والتفكير ٠٠٠ »

وهكذا تقضي العلوم الانسانية على الانسان او تجهله على الاقل بدعوى الموضوعية والحيطة من الذاتية ، بل ان بعض العلماء او مبسطـي العلـم لا يترددون ــ تطرفـا

طبعا ! ـ في إتحاف بعض الجرائد والمجلات بمقالات تحاول هتك هالة القداسة التى ظلت تحوط الانسان قرونا طوالا · وقد سبق ان ذكرنا بعض الامثلة على ذلك ، (1) وخاصة النظرية القائلة بأن عناصر « البلاسما » (الدم) الكيمياوية هي التي « تلهم » الانسان الذكاء وحس الالم وملكة الجمال وقابلية التدين ··· وأنه بالتأثير على تلك العناصر يمكن تكييف الحب والحقد والحماسة والفرح ··· فى ذات الانسان ·

وهذا طبيب انقليزي يدعى « لوسون » نشر أخيرا « دراسة » عن المواد الأولية التى يتألف منها جسم الانسان (2) فيفيدنا بالارقام التالية : 45 لترا من الماء ، مواد دهنية كافية لصنع سبعة ألواح من الصابون ، فحم يكفي لصنع تسعة آلاف رصاصة قلم ، فوسفور لعمل رؤوس 2200 عود كبريت ، حديد يسكب فى مسمار كبير ، كلس كاف لتمليط سقف غرفة مربعة عادية ، كبريت ينظف كلبا من البراغيث ، ماغنزيوم يضيء لحظة واحدة !! ···

---

(1) راجع بالخصوص مقال : « أدب الشباب وشباب الادب » ، الفكر عدد 2 ، السنة 18 (نوفمبر 1972)

(2) نجاة قصاب حسن : « الثقافة الاسبوعية » دمشق 1973 ·

وكذلك العالم « بنفلد » فقد بين فى كتابه « اللغة، وميكانيزم الأدمغة » (3) انه بمجرد الضغط على زر مربوط بسلك كهربائي متصل بنقط معلومة من الدماغ يمكن اثارة المشاعر اللطيفة العميقة التي تفنن « بروسط » مثلا في تصويرها ضمن صفحات له خالدة .

وتبنى « دلڤادو » نفس النظرية اذ بين في كتاب صدر له سنة 1969 (4) بعنوان (مراقبة الفكر الطبيعية) ان الطاقة الكهربائية المسلطة على الدماغ قادرة على جعل الانسان يشعر بالغضب والخوف والجوع والعطش ... من دون ان يعرف أن ذلك من تأثير الكهرباء ...

وان مثل هذه النظريات تحطم معنويات الشباب وتصرفه عن النضال والصمود وتحقره فى نفسه وتنقص له من شأنه فيفتر عزمه ويكل ، ويقصر عن مواجهة الحياة وطلب المعالي .

والواقع ان الانسان ـ منظورا اليه من وجهة علم التشريح او الوظائف او بالمقارنة مع قوى الطبيعة ونواميس الاقتصاد ... ، كائن ضعيف ، وأية صدمة بالطبيعة العمياء والقوة المادية الهوجاء ... قادرة على

(3) Penfield : Lãngage et mécanismes cérébraux, Puf, Paris, 1963

(4) Delgado : Phisical control of the mind. Harpers Editeurs, Londres 1969

الفتك به والقضاء عليه ، ولكنه ــ على ضعفه المادي ــ يملك عقلا وشعورا ووعيا وعزما ، ويملك بالخصوص قدرة عجيبة على تجاوز منزلته الارضية وتكسير أصفاده الاجتماعية والتخلص من حدوده الحياتية ، فيبدع ويتحرر ويكيف نفسه ومجتمعه بما يراه خيرا وحقا وجمالا .

ورغم ما يقال عن الحتمية المادية والعبثية الوجودية والجبرية الماورائية ، فان بشرا صمدوا في فترات كثيرة من تاريخ الانسان ، ولا يزالون ، وغيروا ما بهم وما حولهم ، وارتفعت بفضل جهودهم وتفانيهم منزلة البشرية فاستشرفت آفاقا جديدة من الرفعة المعنوية والكرامة الحق .

ألم يصنع رجال رجال التاريخ ؟ الم يتمردوا على اوضاعهم ويسيطروا على اجسادهم ومشاعرهم وأبوا أن يجثوا على اقدامهم أمام الطغاة رغم الاغراء والعذاب والجوع والوحدة وحتى الوسائل الكيمياوية وشتى الاساليب الجهنمية المستعملة للتأثير على معنوياتهم ؟ فكانوا بذلك قدوة لغيرهم وضميرا لعصرهم ؟ ألم يحدث أفذاذ من الرجال ثورات على ما ألفه معاصروهم واعتبروه قضاء وقدرا قرونا طوالا ؟

لذلك لا نزال ــ رغم انسياق الكثير مع ما يعتبرونه تجديدا او واقعية ــ نراهن على الانسان الصغير العظيم ،

الفاني الدائم ، المتحول الثابت ، ولا نزال نؤمن بانه حر وان حياته ليست مأساة بل هي ملحمة رائعة وكسب متواصل وخلق ذاتي مستمر • ولا نزال ـ كذلك ـ ندعو الى أدب فحل تتجلى فيه كثافة عالم الانسان بكل ابعاده ، أدب يتلبس بارادة الفرد يبني مصيره بعقله وقلبه وجوارحه ويعيش مغامرته الوجودية بكل اوساعها ، أدب يتحدى المادة ، وينشد الحرية الحق ويرفض الرفض •

ومنذ اكثر من ثلاثة قرون قال باسكال : « **ليس الانسان الا قصبة ، وهو اضعف قصب الدنيا ، إلا أنه قصبة تفكر ولا تحتاج الدنيا الى مزيد التسلح لمحقه بل قليل من البخار أو قطرة ماء تكفي للقضاء عليه • ولكن لو محقته الدنيا لبقي أشرف منها ، لانه يعي موته وتفوق الدنيا (المادي) عليه ، أما الدنيا فلا تشعر بشيء من ذلك** » •

بل تأمل في قولة « **نيتشي** » : « **كم فجر لم يلح نوره بعد !!** » • (Que d'aurores qui n'ont pas encore lui !

تدرك ان الانسان لم يقل بعد كلمته الاخيرة في هذا الوجود ؟

(I اكتوبر 1973)

يا لَلعار بعض الكُتّاب...!

يؤسفنا ـ ولا يفجؤنا ٠٠ ـ أن نطالع على صفحات بعض الجرائد والمجلات الغربية ، فى هذه الايام بالـذات حيث يمر الصراع الجبار القائم بيـن الامـة العربيـة ، وفى طليعتها الشعب الفلسطيني ، وبين الكيـان الصهيونـي المفروض بالحديد والنـار ، بمنعـرج حـاسم ، مقـالات وتعليقات مغرضة ، ينحو فيها اصحابها منحى الانحيـاز وحتى التعصب ، ويذهبون مذاهب تكشف عن جهلهم او سخافتهم وتورطهم ـ أحبوا أم كرهوا ـ مع قوى الظلـم والعدوان ٠

ولئن تعودنا من بعض الادباء والفنانين والصحفييـن الصهاينـة ، او الموصوميـن بخدمتهـم ركاب اسرائيل ، مواقفهم العدوانية وملت اسماعنا شنشنتهم فلم نعد نقيم لترهاتهم وزنا ، الا ما نخشاه من وسواسهم على ناشئتنـا

المولعة بفنهم وانتاجهم ، فا ن الذي لا نستسيغه هو ان تسف صحفية محترمة مثل فرانسواز جيرو فتكيل للعرب وبعض رؤسائهم من الشتائم وضروب السخرية ما ينبو عنه الذوق ويتعارض مع ما عرفت به مديرة « الاكسبرس » من تقدمية ونصرة للشعوب المكافحة ضد العنصرية والاستعمار ، كما لا نستسيغ مواقف كاتب معروف مثل « تيارى مونيي » الذى لم يهضم شن العرب معركتهم الحاسمة على جبهة النفط ، وتصرفهم فى ثرواتهم بما تمليه عليهم مصلحتهم وكرامتهم ، محرما عليهم ما حلله للدول الكبرى التى طالما تحكمت فى موارد العالم الثالث ولا تزال ٠

بل إن عالما جليلا مثل « لوى لوبرانس رنقى » تورط هو الاخر وانبرى يتهجم على « ملوك الصحراء » ويزدري إله المسلمين ويتظاهر بحمده اياه لان حرمان اوروبا من النفط من شأنه ـ في نظره ـ ان يقرب بين الاجيال ويحمل الشبان على الاقتصاد والانضباط مثلما كان يفعل آباؤهم ، ولسان حاله يقول : وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ٠ (راجع مقاله بجريدة لوفيغارو المؤرخ في 15 نوفمبر المنصرم بعنوان : نعمة من الله ! un bienfait d'Allah

أما ج ٠ ب ٠ سارتر وصديقته سيمون دي بوفوار فانهما لا يزالان على مذهب الذبذبة ، بل انهما فى الواقع أشد مناصرة لاسرائيل وامتن تضامنا معها ، رغم أنهما شاهدا

آلام الفلسطينيين عندما زارا قطاع غزة ومخيمات اللاجئين فى مارس 1967 وعبرا عن تأثرهما للمنزلة الفظيعة التى وجدا عليها — آنذاك — آلاف المشردين الصامدين لاسترجاع وطنهم السليب وفرض حقهم فى الحياة • وما ان اندلعت حرب جوان 1967 حتى وقفا موقفا معاديا للعرب هما ورفيقهما فى مجلة « الازمنة الحديثة » كلود لانزمان الذي صرح أثناء حرب الايام الستة أنه فرنسي الجنسية والتربية — لا محالة — ولكنه يهودي ويعتقد انه لو زالت اسرائيل من الوجود لاصبح يشعر بنفسه كأنه عار تماما ! •

وانضم هذه المرة الى انصار اسرائيل مؤلف مسرحي مشهور هو « أوجين إيونسكو » ، ويعرفه المولعون بالمسرح الطلائعي بأنه أحد متزعمي نظرية انسحاق الانسان وعزلته في عالم مصطنع وشعوره بعبثية الوجود واستحالة التوصيل او التبليغ la communication ورغم تشاؤمه فى هذه الحياة المقفلة ، وركونه الى الرمز فى مسرحياته العديدة فانه — هو ايضا — يؤكد — في وضوح هذه المرة — على ضرورة وجود اسرائيل باسم تعايش الاديان وحرية المعتقد اولا ، كأن المسلمين واليهود والنصارى لم يتعايشوا من قبل ، وكأن الصهيونيين لم يحرقوا المساجد ويعتدوا على الحرمات ، وثانيا لتبقى اسرائيل شاهدا ونموذجا لما يجب ان تكون عليه دولة دمقراطية حرة !!

مشيرا بذلك الى ان الدول العربية ترزح تحت الطغيان ! وهو بعد ذلك يعلن انه لم يفهم لماذا لم يهضم العرب وجود دولة يهودية ما دام مطمح اليهود الاخير هو خدمة الارض واخصابها وكأني به لم يدرك الى اليوم لماذا تحررت شعوب شمال افريقيا مثلا واجلوا عن اراضيهم المعمرين ! ومن الحسرة ما يعبر عن حنين دفين الى بعض العهود الغابرة !!

ويذرف « إيونسكو » دموع التماسيح على ما اصاب الشرق العربي عندما اضاع الروحانيات والتقاليد الاصلية وتشبه بالغرب الذى استعمره ! وهو تناقض غريب من رجل يريد ان نتمدن وان نحيا حياة الديمقراطية على منوال الغرب ثم يأسف عندما يلاحظ ان الشرق تمغرب وخرج من جلده ولعله يقصد التأثر بالمذاهب الفلسفية التى يعتبرها هدامة مثل الماركسية • اذ يقول : أن الغرب قد ربح الجولة فهو اذن الخاسر ! •

والاغرب من ذلك ان إيونسكو يتألم مما يصيب الشباب في بعض البلدان مثل السويد من قلق وما يعتريهم من يأس وما يميلون اليه من رغبة فى الانتحار بسبب تضاؤل الايمان وصمت السماء وهو من الادباء الذين اغرقوا في وصف عبث الوجود ولا تكاد تجد نسمة منعشة من نسمات الانسانية في مسرحياته •

واننا اذ نحترم هؤلاء المفكرين لما قدموه من الاثار وما بلغوه من شأو في عالم الفكر فانه لا يمكن ان نسكت عن

انحيازهم وتعصبهم وترهاتهم وتناقضاتهم عندما ينتصبون ضميرا للعالم ، وقادة للفكر ، يصدرون الاحكام ويستغلون رصيدهم الادبي وشهرتهم الفنية لاستبلاه الرأى العام ودس السم في الدسم ، بينما الامانة العلمية وحرمة الفكر والموضوعية تقتضي منهم الاناة والعدل والتخلص من براثن الدعاية الصهيونية التي نعترف لها بالبراعة والدهاء ·

واذا كان سارتر مصابا ، هو وسيمون دي بوفوار ، بداء التناقض الذي تجلى فى مواقفهما من قضية الشرق الاوسط كما تجلى منذ نهاية الحرب العالمية الثانية فى تأرجحهما ــ حسب الظروف ــ بين نصرة الحزب الشيوعي الفرنسي ومعاداته ، فان أديبا مثل « إيونسكو » وعالما مثل « لويس لوبرانس رنقى » وكاتبا مثل « تيارى مونيى » ليسوا الا ضحايا ثقافة تغذوا بها فاذا هى مقامة على النزعة الصليبية وكراهية الشرق والمقابلة بين الساميين والآريين ، وضحايا مدنية تصورت انها أم المدنيات والمحتكرة للقيم الخالدة ، لم تمس منها الحربان الكبيرتان الا السطح ، ولم تنل من غرورها الحركات التحريرية واستفاقة العالم الثالث وتقدم العلوم الانسانية الحديثة ··· الا بمقدار ! ·

وان ركنا من اركان رسالة المثقفين في العالم النامي ــ والامة العربية خاصة ــ يتمثل فى ضم جهودهم الى

جهود المفكرين الاحرار فى أوروبا والعالم الغربي عامة وهم موجودون-والحمد لله - للتعريف بحقيقة العالم العربي والكشف عن خصائصنا الحضارية واجراء حوار بناء مع كل ذوى النوايا الصادقة لاقناعهم بان الانسانية لا تنحصر فى حيز جغرافي ، ولا تقتصر على التراث اليوناني المسيحي ، وانها تكامل وتناغم مع كافة الحضارات والثقافات لا فضل لاحداها على الاخرى الا بما تقدمه للانسان من فرص لتجاوز ذاته وتحقيق كماله .

ومن أركان رسالة المثقفين فى بلادنا ايضا ان يكشفوا عن سوءات اسرائيل ويفضحوا كيانها الاستعماري ويساهموا مع زملائهم في كل أنحاء الدنيا للعمل على التحول الضروري الذى لا بد أن يتم في اسرائيل بالذات ، حتى تتوفر اسباب التعايش والتآخي بين كل الاديان من دون هيمنة او استعمار وهو عمل ضروري لتستتب السلم ويرتفع مستوى كل الشعوب ماديا وادبيا .

وانما اوردنا بعض الامثلة لنؤكد على الهوة التى لا تزال تفصل بعضنا عن بعض على المستوى الحضاري والعقائدي ، رغم تجانس انماط العيش وتقارب المسافات وفاعلية وسائل الاعلام ، ولنبين مرة أخرى أهمية برامج التعليم والتربية في كافة انحاء العالم - من دون استثناء - اذ على محتواها والقيم العليا التي تستوحيها ،

يتوقف التعارف المتبادل بين البشر ، والتقدير المشترك والرغبة الصادقة في التعاون •

ومهما يكن من أمر فلا يمكن ان يكون الحوار مجديا الا اذا تكافأت قوى كل الاطراف ، وقد توفر لنا من القـوة بفضل استبسال جنودنا وفدائيينا وتنسيق جهودنـا فى معركة النفط واتحاد كلمتنا في ايام الشدة مـا يحمـل الأطراف المقابلة على التفكير والاقدام على تغيير بعض المفاهيم المتوارثة ، والعقليات البالية ، واقامة تعـايش دائم على أسس جديدة قوامها الحرية والعدالة والكرامة •

(I ديسمبر 1973)

وقفة مع "سيمون" و "فرانسواز"..!

لا تزال الايام ـ من سوء الحظ ـ تؤيد ما ذهبنا اليه وكشفنا عنه من المواقف المزرية التي يتورط فيها عدد كبير من الكتاب وأهل الفكر في أوروبا ، ممن اشتهروا بالتقدمية والتحرر والاشتراكية والتمسك بالمذهب الانساني ، وانبروا طوال حياتهم يدعون الى عالم أفضل ، مطهر من العقلية النازية ، منزه عن منطق القوة والاستبداد ، فاذا بهم ينحازون انحيازا غير مشروط ، بل أعمى ، لفائدة الصهيونية ، وتنطلق كتاباتهم حول الوضع بالشرق الاوسط وخاصة بعد حرب السادس من اكتوبر وأزمة النفط ، بما لا يطاق من معاني الاحتقار للعرب والمسلمين ، والازدراء بأنظمتهم وتشويه حضارتهم .

وقد تعرضنا الى نفر منهم وفضحناهم كما شهر بهم غيرنا في تونس وبلدان أخرى كثيرة ، ولكنهم مصرون في اتجاههم معاندون في آرائهم • فهذا الروائي « إيونسكو » ينال جزاء ما قدمه من خدمات لاسرائيل فيحظى بشكر سفيرها بباريس ويتلقى دعوة رسمية لزيارة تل أبيب وكتابة السيناريو لفيلم يمجد ما تنجزه بلاد غلدا مايير ودايان •••

وهذه ـ خاصة ـ « سيمون دي بوفوار » المتزعمة ، صحبة ج• ب• سارتر ، للمذهب الوجودي تنشر منذ اسبوع بجريدة « لومند » الفرنسية مقالا تشهر فيه بموقف سوريا التي أبت ان تسلم الاسرى او تعلن عن اسمائهم وتنعت الشعب السوري المناضل الصامد بالوحشية (Barbarie) ولكنها لم تشهر بهمجية اسرائيل ووحشيتها عندما قذفت طائراتها دمشق واللاذقية وحمص ••• وقتلت الامهات والاطفال والمواطنين العزل الابرياء ، واغارت على المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية التى يعيش بفضلها ملايين البشر •

وعندما تؤكد الكاتبة ان الاسرى العرب عوملوا معاملة إنسانية خلافا للاسرى اليهود نسألها بكل احترام عن مصادر إعلامها ونريد ان نعرف هل اجرت بنفسها التحقيقات الضرورية أم اكتفت بتصديق ما تردده الدعاية الصهيونية وتكذيب ما يقوله العرب ؛ هل هذا هو المنهاج العلمي ـ او الديكارتي ـ الذي تعلمته عندما

درست الفلسفة وانتهجته في كتبها ؟ أم هل انها كانت ـ هذه المرة ايضا ـ غرة (كريمة أم لئيمة ؟) كما اعترفت انها كانت غرة فى مذكراتها «قوة الاشياء» ـ الصادر منذ سنوات قلائل ـ عندما بلغت الستين من عمرها فكانت آخر جملة وردت فى كتابها المذكور : (J'ai été flouée !)

وقد نرثي لها رثاء صادقا عندما تبوح بان الدنيا خدعتها وذهبت بزمانها فى غير طائل وقد نسليها ونؤنس وحشتها فنقول لها بأسلوب التوحيدي : آنظري حفظك الله الى كثرة الباكين حولك وتأسي ، او الى الصابرين معك وتسلي ... ! اما ان تؤكدي بالكلمة وحشية السوريين وتنزهي الصهاينة وتغالطي فيهم عقلك وثقافتك ومذهبك ، فهذا ظلم وتجن على الحقيقة اذ الكلمة ـ كما قال صديقك وشيخك سارتر ـ إثبات لواقع بل خلق لهذا الواقع ، وكم من آلاف القراء الابرياء سيتأثرون بمقالك ويتوهمون مثلك ان الامة العربية لا تزال بدائية غير متحضرة . الا اذا صح فى كلامك قول الله تعالى : ... مثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة ، اجتثت من فوق الارض ما لها من قرار ! ...

وهذه « فرانسواز جيرو » تؤكد ان العرب ليس لهم الحساسية الحضارية الكافية للتأثر بحادث مطار روما المؤسف الذي ذهب ضحيته اكثر من ثلاثين مسافرا وتلتمس العذر للعرب فتتساءل هل كان الفرنسيون يتأثرون بمثل هذا الحادث لو وقع في القرن السابع

عشر ؟ ! ٠٠٠

وهكذا تكشف هذه الكاتبة مرة اخرى على مركب الغرور الذى يكيف مواقفها ويحملها على احتقار العرب ومعاملتهم معاملة الدون لان ثلاثة قرون كاملة تفصل حضاريا بين الشرق العربي وأوروبا فى زعمها ٠

أما ان تتذكر ما اصاب اليهود في أوروبا المتقدمة المتحضرة المنغمسة فى « القرن العشرين » من أذى واضطهاد ونفي وابادة وان تفتح عينيها لترى العنصرية المستشرية في بلادها وفي بلدان مجاورة لها وتسجل تقتيل العشرات من ابناء شمال افريقيا وضرب قنصلية الجزائر في مرسيليا بالمتفجرات ٠٠٠ فهذا ما قد لا تقوى عليه او ما لا يمكن أن يحملها على الاعتقاد بان جانبا من امثالها لا يزالون يعيشون فى القرون الوسطى ٠

الم تتعلم منذ نعومة اظفارها ـ كما تعلم كثيرون قبلها وبعدها ـ ان الغرب متفوق على الشرق حضاريا وان الآريين أعلى منزلة من الساميين ؟ الم تتغذ ـ كما تغذى الملايين قبلها وبعدها ـ بالعقلية الصليبية وتقتنع بانها تنتسب الى القوم الذين حملهم التاريخ مسؤولية التمدين والاشعاع ؟

انها تتذكر ـ ولا شك ـ ما قاله باسكال حول الحقيقة ونسبيتها وقد تردد فى صحوها ، اي فى غفلة من تكوينها ومناخها الثقافي ! ٠٠٠ : لنا حقيقتنا ولمن وراء جبال البيريني حقيقتهم ! وربما اعجبت ببعض اقوال فولتير

الانسانية ودعوته الملحة لمزيد من التسامح والتحابب ·
ولكن هيهات ان تتحرر وان يتحرر امثالها مما ترسب عبر القرون فى عقلياتهم ولا شعورهم من غرور وادعاء وشعور بالتفوق ·

ثم هل من سخرية ألذع من تلك التي يرشح بها مقال بعض أهل الرأي بأوروبا عندما يلاحظون ان تنبؤات علماء المستقبل Les Futurologues بملامح القرن الواحد والعشرين أفسدتها احداث تنتمي الى القرن الثاني عشر وهم يشيرون الى ما عبر عنه عاهل المملكة العربية السعودية من شوق الى زيارة المسجد الاقصى كأن مصير الامة الفلسطينية المشردة بالحديد والنار واحتلال شتات من اليهود لأراضيها بمنطق القوة يجوز تلخيصها بهذه الصورة كأن مئات الملايين من المسلمين يتوقون هم أيضا الى زيارة بيت المقدس ؟

ونحن مع ذلك لا نيأس من هؤلاء « المفكرين » و « قادة الرأي » فى أوروبا ، ولا نضمر لهم الحقد بل نسعى الى فتح بصائرهم وايقاظهم الى غلطاتهم وتناقضاتهم وسنواصل بمعية الكتاب الاحرار والمفكرين الشرفاء فى الغرب وفى كل انحاء العالم ــ وهم كثر والحمد لله ــ النضال المقدس من أجل محو آثار الأحقاد الدفينة الماضية و التنبيه الى وحدة المصير الانساني وروعة العمل من أجل كرامة البشر في كل مكان ·

(I جانفى 1974)

الانسان هو الذي يصنع تاريخه

ما أسرع التاريخ أحيانا عندما تحركه عزيمة الرجال الرجال وتوجهه عبقرية الافذاذ في الاتجاه الذى ترنو اليه الشعوب وتتجسم فيه المثل العليا التي يؤمن بها الانسان ويكافح من اجل نصرتها في كل مكان ·

فمن كان يظن أن « توازن القوى » بين العرب واسرائيل وبينهم وبين البلدان المتقدمة سيتغير على النحو ، والعمق والمدى ، التي تغير بها منذ حرب السادس من اكتوبر الى اليوم ، أي في فترة لم تتجاوز أربعة أشهر ؟ !

* * *

موقفان « بلورتهما » الاحداث فظلا جامدين طيلة ربع قرن ، يعتمد كلاهما على « سنن التاريخ » و « طبيعة

الاشياء » و «منطق » القوة ، سريعا ما انكشف زيفهما وتعرى باطلهما :

موقف هذا « الكيان » العنصري الصهيوني العدواني الذى صور له غروره انه في الامكان اقامة دولة ثابتة الاركان في جسم الامة العربية بالعودة الى مملكة سليمان بن داوود وبالاعتماد على العرق والدين وقوة السلاح !

وموقف هذه الاصوات المخذولة التى طالما جرحت آذان المؤمنين وحزت فى نفوس الاباة ، لانها رغم تشنجها الكلامي وهستيريتها الخطابية او انتحالها الموضوعية والعلمانية ، لم تزل منذ 1948 ــ خاصة ــ تعتم الواقع على الشعوب العربية عامة والشعب الفلسطيني خاصة ، وتغوى الجماهير وتميع الالتزام الحق فتحمل بذلك على دعم الاحتلال الروحي للشعوب العربية والقضاء على معنوياتها مما يقر احتلال الارض ويؤكد تفوق العدو ماديا وحضاريا •

وكانت حرب السادس من اكتوبر فغسلت عار الهزائم وحطمت اساطير العدو وخرافات الانهزاميين وتبخرت تكهنات الراسخين فى فلسفة التاريخ !

بلْ ان هذه الحرب وتصاعد الثورة الفلسطينية والنضال على جبهة البترول حررت النفس العربية فمهدت بذلك الى

تحرير الارض واسترجاع الاوطـان السليبـة ، وبصرت الامة العربية بقدرتها وامكانياتها وقابليتها للاخذ باسباب العلم والتكنولوجيا بسرعة عجيبة ، لان الزمان ــ في مثل هذه القضايا ـ لا يسير سيرا موضوعيا كانه خاضع لقضاء وقدر ، بل ان الروح المعنوية وارادة الحيـاة والثقـة في النفس والاستعداد الفعـلي للتضحيـة هـي التي تخلـق التصميم الصخري وتعين على العمل الايجابـي وتيسـر اختصار المراحل بحيث تنفذ المخططات التي كـان يحسب لها « العارفون » بالاجيال ، على مدى أشهر واعـوام •

وفي هذا المعنـى يقـول « ادوارد • ر• ف• شيهـان E. R. F. Sheehan» في احدى افتتاحيات جريـدة « نيـورك تايمس New York Times » الامريكية : « قد تؤكد الايام ان الحرب العربية الاسرائيلية الرابعة يمكن عدهـا من بين الاحداث الخمسة او الستة التي طبعت تاريخ العرب كله • ولا اقصد طبعا انهم انتصروا عسكريا اذ هم ما زالوا دون هذه النتيجة ••• بل الذى أقصد هو انهم قطعوا مرحلة حاسمة قد تسجل نهـاية انحطاطهـم الـذى دام خمسـة قرون ••• » وأضاف : « ان العرب نجوا من الهوة التي تفصل بين التخلف وروح العصر » •

* * *

ثم من كان يظن ان البلدان العربية ، وبلدان العـالم الثالث بوجه عام ، المنتجة للبترول والفوسفاط والنحاس والاورانيوم والبوكسيت ••• وغيرها من المواد الاولية

الخام ، ستغير علاقتها السياسية والاقتصادية والنفسانية مع البلاد الغنية الى هذا الحد وبهذه السرعة ؟

الم يكتف بعض الخبراء وذوي النفوس « الخيرة » و « الحساسة » في الدول المصنعة بذرف دموع التماسيح ، رأفة بنا وتخفيفا مما اراده لنا « التاريخ » من تخلف ؟ الم ينصحونا بالتشبه بهم والازورار عن ذواتنا الاجتماعية ، والتحرر من مركباتنا القومية ومشاعرنا الوطنية ، بدعوى ان المستقبل للأممية والاندماج ، فمكثنا نهرول وراء قافلة الامم المتقدمة ، نتوسل اليها بالمبادىء الاخلاقية والانسانية السامية التي تدين بها وتنتسب اليها ونخاطبها بلغة العقل التي اشاعها فلاسفتها ، ونحتج لديها بمنطق العلم والارقام التي تستسيغها فنقيم لها الدليل تلو الدليل على ان السلم لن تستتب ما دام الاثرياء يزدادون ثروة على ثروتهم والفقراء يستفحل فقرهم ويتفاقم يأسهم ، ونسائلهم كيف تستقيم الامور اذا ما واصل I5% من سكان المعمورة استغلال 65% من موارد الارض كلها ٠

وكان العالمون بنواميس الاشياء والمستقرئون لسير التاريخ وغيرهم من العرافين يتسابقون لاقناعنا بان اللحاق بالعالم المتمدن ان لم يكن ميؤوسا منه ، ـ اذ لا بد من خيط يشدنا الى الامل ليكون « للحوار » معنى ! ـ فهو رهان لا يمكن ربحه الا بعد اجيال واجيال ٠

وهكذا ينهزم الكثير منا معنويا قبل الانهزام السياسي والانكسار المادي ويستفحل العقم الثقافي ويضيق العيش لان الامل أصيب فى الصميم ٠

وكانت حرب السادس من اكتوبر ! وبدأت معركة البترول وأومض الوعي !

لقد ادركت البلدان العربية المنتجة للبترول واخذت تدرك معها البلدان « الفقيرة » الغنية بموادها الخام ، أية قوة هذه التى تملك إكسير الحياة وسر النمو الاقتصادى والرفاه الاجتماعي في الدول المتقدمة ٠ فاذا نحن تغاضينا عن النزيف الذي منينا به في ثرواتنا ما بقي الاستعمار جاثما على اوطاننا ، بله القهر والنيل من الكرامة والغبن في الذات البشرية ، واردنا حصر « سرقة » خيراتنا من البترول في سنة 1973 فقط وجدنا أن عائدات الذهب الاسود زادت ابتداء من 1974 بما قدره خمسون مليارا من الدولارات ! ، وليست « التضحيات » المالية الجديدة هي وحدها التى ارتجت لها اركان اوروبا وأمريكا واليابان ، بل ان هذه البلدان ادركت بعد حرب السادس من اكتوبر واتحاد كلمة بلدان الشرق الاوسط وافريقيا انها ٠٠٠ غير مستقلة لانها لا تملك الطاقة ولا المواد الخام التى تقوم على تحويلها واستغلالها معظم صناعاتها ، مما حمل الملاحظين الغربيين على التاكيد بان

مجتمعات الاستهلاك اكتشفت تداعي نظامها مثلما اكتشفت سنة 1968 تهافت هيكلها الاخلاقي ·

ولئن استخلص عدد كبير من رجال السياسة والاقتصاد والفكر في الغرب العبرة من هذه الظاهرة ورضوا بما ليس منه بد ، فاخذوا يبتكرون علاقات تعاون جديدة ويتهيأون نفسانيا الى قبول نتائج توزيع جديد للتضحيات والمجهودات والفوائد على الصعيد العالمي ، فان قسما كبيرا من الرأي العام لاتزال تعبث به الصهيونية وتسممه بعض النفوس المريضة التي لم تهضم استقلال الشعوب ولا استأصلت من مناخها الثقافي والحضاري مركبات الغرور وعقارب العنصرية · وقد اشرنا الى هذه الظاهرة وشهرنا بموقف نفر من الكتاب والصحافيين الذين ردوا الفعل ازاء وقفة العرب وتحديهم ـ بدورهم ـ « التحدي التاريخي » فانبروا يشوهون الاسلام ويظهرونه في مظهر الطقوس والتعاويذ والتمائم للاساءة اليه ، واظهار العرب في مظهر ابطال الف ليلة وليلة بل عمدوا الى السخرية اللاذعة وكشفوا عن ترسبات لا شعورهم ، من دون ان يفقهوا انهم لا يجنون من ترهاتهم سوى الاوهام وان دورهم لا يتعدى دور الصديق الجاهل ·

ومن دون ان نزج بأنفسنا في منطق القوة او ننساق مع الخيال والخيلاء وجب ان نستمد العبرة من هذا الحدث التاريخي العظيم الذي جدد طبيعة العلاقات الاقتصادية

والسياسية بين البلدان العربية خاصة والبلدان السائرة في طريق النمو عامة ، وبين البلدان المتقدمة صناعيا ، ونكون في مستوى المرحلة التاريخية الجديدة التي سماها توفيق الحكيم مرحلة التعمير الحضاري ونعتها محمود أمين العالم بأنها معركة التحضير العربية ·

اليوم وقد ايقظتنا صيحات النصر واكتشفنا امكانياتنا واصبح العالم يحسب لنا حسابنا ، يجب الا نغتر او نجتر كما اغتررنا واجتررنا في السابق، بل علينا ان نحلل أسباب تخلفنا وقعودنا ونشرع في تخطيط نهضتنا على اساس تاكيد الذات وارساء قيم جديدة في مجتمعاتنا وبلوغ مستوى النضج والتألق في الاخذ بالعلم والتكنولوجيا ، على أساس الايمان بان احقاق الحق واخذ البشر نصيبهم من نور الشمس لا يكونان بحد السلاح فحسب بل يعتمدان القوة الاقتصادية المتكاملة والنظام السياسي الشعبي المحكم والقوة المعنوية الصلد التي نعبر عنها بالعقيدة والتي من دونها لا يكون للحياة معنى ولا هدف ·

* * *

ان التاريخ تحرك بسرعة طيلة الاشهر الاربعة الماضية ، حركته عزيمة الرجال ، فعلى هؤلاء الرجال ان يكونوا فى مستوى التاريخ ، اي ان يبنوا بمعية شعوبهم وبالتعاون مع كافة القوى الحية فى العالم المصير الافضل الذي سيكون ما يريدونه ان يكون ·

اذ التاريخ ليس تعبيرا عصريا جديدا عن القضاء والقدر ونواميس الاشياء ، وانما هو جماع جهد الرجال الذين يعيشون من اجل هدف أسمى ويضحون في سبيل مثل أعلى ، وهو ثمرة جهادهم ودليل حريتهم وعنوان مجدهم وسر عظمتهم •

* * *

(I فيفري 1974)

من عبر 2 مارس 1934

يحتفل الشعب التونسي ، في مطلع هذا الشهر ، بذكرى تأسيس الحزب ، واستمراره في الاضطلاع برسالتـه منذ أربعين سنة بقيـادة الرئيس الحبيب بورقيبـة • ولئـن شعرنا جميعا بالاعتزاز والنخوة كلما استعرضنا مراحل الكفاح منذ مؤتمر قصر هلال في 2 مارس 1934 الى اليوم ، اذ حققنا الاستقلال الكامل ، وأقمنا دولة ثابتة الاركان ، وقطعنا خطوات مرموقة فى طريق التقدم وبعثنا مجتمعا قوامه الكفاية والعدل والازدهار ، فلا بد فى مثل هـذه المناسبة من استخلاص أبلغ العظات واجل العبر ، ونحن فى غمرة الاحتفال بهذا الحدث التاريخي المجيد •

ذلك ان اعادة الاحداث التاريخية المعاصرة الى الاذهان ليس من باب التبجح المجاني ، او مجرد التباهي الظرفي ،

بل هي تعميق متجدد لوعينا بالتاريخ القومي ، واثـراء واذكاء ــ معا ــ للذاكرة الجماعية التي منها يستمد الافراد أهم مراجعهم الوجدانية والفكرية ، وعليها تعتمد ارادتهم الحياة المشتركة ، وبها تصبح مغامرتهم الوجودية اوضـح بصيرة واهدى سبيلا ، وهي دعم للوحـدة القوميـة التي تحتاج دوما الى حماس سليم يغذيهـا ، وعاطفـة نيـرة تزكيها ، وتحتاج ايضا الى تأمل متواصل وجهاد متلاحـق لتركيزها في مدارها الطبيعي السـوي ، وابقائهـا فـي اتجاهها القويم نحو المد المشرق ، والبناء الحضارى الفذ ، وصيانتها من شتى انواع الزيغ والانحـراف ، وضمـان مناعتها بحيث لا يستبيح احد ذمارها او تنـال صـروف الدهر من كيانها ٠

والشباب ــ خاصة ــ في حاجـة مستمـرة الى مـرهف الشعور بانتسابهم الى وطنهـم ، وعميق التجـاوب مـع بطولات أمتهم ، والاستواء على الأفق الرفيع الذي وضعها فيه شهداؤها الابرار ومناضلوها الاوفياء ، ممـا يربـي نفوسهم على الأنفة والكرامة ، ويأخذها بالوفاء للقيم التي نصرها جهد الاجيال وجهادهم ، ويملؤها اعتزازا بهذا الشعب الذي تمرد على منزلته بعد ان دحرجه الانحطـاط في هاوية التخلف وحاول الاستعمار الفرنسي طيلة ثلاثة ارباع قرن تجريده من كل مقوماته الاساسية حتى يفنى فناء في امبراطوريته ، بل ان الشباب لن يقـدروا عـلى

تبين ملامح المستقبل وتخطي طريقه بين منعرجاته ، اذا هم لم يستمدوا من ملاحم شعبهم وبطولاتـه وعبقريـة قيادته وفتوحاتها القوة الروحية التي تكسب الثقـة في النفس وتهب الطاقة على العمل وتعطى الطموح مبـررا وبعدا انسانيا سخيا ٠

ان الحركة الدستورية الجديدة التي انبثقت عن مؤتمر قصر هلال وتجسمت في الزعيم الحبيب بورقيبة او جسمها في شخصه وسلوكه وتعاليمه الزعيم الحبيب بورقيبـة ، قامت ـ أولا وبالذات ـ على اساس الايمان باصالة الشعب التونسي والحفاظ على مقوماته ووضـوح الرؤيـة التي جعلت الزعيم يدرك هول المصير الذي ينتظرهـا اذا مـا سارت الامور على النحو الذي اراده لهـا الاستعمـار وهو ـ بالضبط ـ جوهر خطاب الحبيب بورقيبة يوم مؤتمـر البعث كما لخصه فقيد الادب والصحافة سعيـد أبو بكـر لقراء جريدة « النهضة » آنذاك اذ قال : « وقد اختاروا (أي بورقيبة ورفاقه) للوصـول الى غاياتهـم المنشـودة المصارحة بالحقيقة من غيـر تضليـل ، مظهريـن للامـة الدولاب الذى يطحنها والمستقبل الذي ينتظرها اذا هي ما زالت في سكوتها وجمودها ٠٠٠ » فكان جهادهم يهدف لا إلى نيل المساواة مع الفرنسيين والتمتـع بمـا كانـوا يتمتعون به من امتيازات قانونية وادارية وسياسية ، كما ذهب الى ذلك بعض المثقفين ، صرعى الغـزو الروحـي

والفكري في تونس وغيرها من البلاد المجاورة ، او كما كان يدعوهم اليه نفر من الاشتراكيين والشيوعيين التونسيين والاجانب بدعوى وحدة مصير الشغالين ، والتقدمية والثورة على القيم البالية ، والانسجام مع مقتضيات العصر ، بل استهدفوا قبل كل شيء الذود عن الشخصية التونسية والابقاء على أخص خصائصها ، اذ الاهم هو اثبات الكيان القومي وصونه من الازدواجية ، والفرنسة ، وهو موقف يحق ان تعتز به البشرية جمعاء ، لا الاجيال التونسية الصاعدة فحسب ـ لانه انقذ مجموعة بشرية من الفناء المحقق وأنعش الحضارة العربية الاسلامية بانعاش أحد معاقلها الصامدة منذ I3 قرنا ، رغم تهوين العقيدة في نفوس حماتها الرسميين ، ومساعي النزعة الصليبية الحاقدة الحالمة بالانتصار في حرب تاسعة على ربوع افريقية حيث قضى لويس التاسع نحبه قرب أطلال الرومان بقرطاج ، مما رمز اليه الجمع بين الاحتفال بمرور خمسين سنة على انتصاب الحماية الفرنسية بتونس (I93I) واقامة المؤتمر الافخارستي في موكب رهيب حضره عدد كبير من سراة القوم ـ كما كانوا يسمون أنفسهم ـ ورجال الدين ان صح أن ننعتهم بالرجولة بينما كان خنوعهم ونفاقهم وانبطاحهم أمام المستعمر يعادل خواءهم الروحي وشيوع نفسية الانهزام الفكري فيهم ٠

ومن اغـرب الامـور ان هـؤلاء الخونـة والرجعييـن والمحظوظين كانوا يلصقون بالمجاهد الاكبر ورفاقه تهمة المروق عن الديـن والازورار عن الملـة بينمـا الحركـة الدستورية الجديدة هي التي أنقذت الدين واللغة وطهرت الايمان مماعلق به من بدع وخوارق عبر قرون الانحطاط كان المستعمر يتظاهر بحمايتها خشية ان ترجـع للديـن الحنيف صولته فيثور المسلمـون ويستميتـوا فى سبيـل الكرامة والعزة ٠

وميزة اخرى امتازت بها الدعوة البورقيبية عما سبقها من الدعوات هي الايمان بالشعب والعمل عـلى توعيتـه ورفع مستواه وتشريكه في العمل السياسي المنظم ، من دون غوغائية او تملق يدلان على احتقار الشعب لا عـلى محبته وخدمته ، حتى يضطلع هو نفسه وبنفسه ، من دون وصاية ، بحمل المسؤولية وتغيير ما به وتكسير أصفاده وبناء مستقبله ؛ بينما كان « القادة » يتعالون عن الجماهير ويحتقرونها ولا يتنازلون للاتصال بها والتحاور معها ٠

وما كـان ذلـك ـ والحق يقـال ـ بالامـر الهيـن لان الاستعمار لم يكن يخشى شيئا خشيته من الشعب اذا وعى منزلته واصبح له سلم قيم جديد واهتدى بهـدي زعمـاء مخلصين ، فقد حاول علي باش حانبة الاتصال بالناس بعد

الاضراب على « الترامفاي » وخاطب طلبة جامع الزيتونة عندما اضربوا عن التعليم مطالبين باصلاحه فنفته السلط الاستعمارية سنة 1912 ، بينما هي لم تحرك ساكنا طالما اقتصر على تحبير المقالات و « التحرك » في نطاق نخبة « الشباب التونسي » ؛ وكذلك حاول الزعيم النقابي الاول محمد علي الحامي تأسيس حركة عمالية تونسية صميمة واتصل بعملة الرصيف والمناجم ·· فاضطرت فرنسا الى ابعاده عن تونس سنة 1925 وايدها في ذلك جماعة الدستور القديم والشيوعيون والاشتراكيون !!! · ولكن الزعيم الحبيب بورقيبة لم يبال بالخطر وكان يتجول في البلاد من اقصاها الى أقصاها ، لم تثنه الاتعاب ولا مناوءة جماعة اللجنة التنفيذية ، ولم يتراجع عن محبته للشعب والاتصال به رغم نفيه في سنة 1934 وسجنه سنة 1938 طيلة 5 سنوات وابعاده يوم 18 جانفي 1952 لمدة سنتين ونصف تقريبا ، الى ان كلل كفاحه بالنجاح وعاد من منفاه الثالث مظفرا منصورا يوم غرة جوان 1955 ·

هذه الصبغة الجماهيرية للنضال الوطني التي بدأت منذ 40 سنة لم تكسب الكفاح الحيوية والنجاعة فقط بل هي راضت الشعب على الديمقراطية الحق ، وربته على الطموح الى المشاركة في تسيير شؤونه ، وأهلته ـ غداة الاستقلال ـ الى التحرر الاجتماعي والثقافي والدخول في مغامرة جديدة لعلها أعمق غورا وأطول نفسا ، هي ملحمة البناء الحضاري وشرف المساهمة في خدمة الحق والعدالة

والسلم فى العالم والعمل على الوئام والاخوة بين كافة البشر .

واذا نحن نظرنا الى هذا الرهان الذي ضربه الحبيب بورقيبة يوم 2 مارس 1934 مع التاريخ يوم ان كان شابا يتحسس رسالته في الكون ويرنو الى مثل أعلى يقف حياته من أجله ، يغالب الشك واليأس ويتألم من لداته وأمثاله الذين غرتهم المادة وشاعت في نفوسهم روح الانهزام اوعتوا عن امر وطنهم ، او اقبلوا على الدنيا اي اقبال لانهم عجزوا عن تزكية النفس وخلطوا بين الواقعية والوقوع وبين الرفاهية والعظمة ... ، اذا نحن تأملنا في حياة الحبيب بورقيبة التي تحولت الى مصير امة كاملة ، وتذكرنا ما قاساه من آلام الوحدة والحرمان ، وما تجرعه من مرارة خذلان الرفاق و « الاخوان » ، وما شعر به من ثقل المسؤولية وهولها عندما اضطر المرات العديدة الى ان يأخذ موقفا ، ويحدد اختيارا ، بمفرده بينه وبين ضميره وهو يمسك بيديه مصير شعب كامل وهبه ثقته واحبه حبا جما ، ثم ننظر الى النتائج الايجابية التي لا نزال نجني ثمارها ... ، عندما نستعرض كل ذلك لا نعترف للرئيس الحبيب بورقيبة بالجميل فحسب ولا نطمئن الى المستقبل فقط ، بل نعتبر هذا النجاح الباهر الذي جعل من حياته ــ كما يقول جوريس ــ حلما من احلام الشباب تحققه الكهولة ! خير مثال للشباب واصدق مرجع ، منه

يستمدون العبرة ، وبه يقتدون في مواجهة الحياة ليتبينوا رسالتهم في تونس الجديدة ويهتدوا الى اقـوم المسالـك لتنمية شخصيتهم ورياضة نفوسهم على الجهاد الصادق من اجل الغير والتفاني والسعي الدائب الى صيانـة امتهـم والنضال من اجل نصرة الانسان ٠

(I مارس 1974)

الانسان أول الحضارة وآخرها

إن المتأمل فيما ينشر هذه الايام بمختلف بلاد الغرب ـ خاصة ـ يلاحظ وعيا متزايدا واهتماما متعاظما بأزمة الحضارة وتمزق الضمير فى تلك البلدان ، نتيجة لفقدان التساوق او التوازي بين التقدم العلمي والرقي الانساني ، بين اطراد الاكتشافات واكتساح الفضاء والسيطرة على المادة ومعجزات الحاسبات الالكترونية ٠٠٠ وبين « تواضع » معرفة الانسان لنفسه ، وادراكه مدى وعمق المناطق المجهولة من « إنيته » في وعيه ولا وعيه ، في معقوله ولا معقوله ، في تفاهته المادية وعظمته المعنوية ، بين التنمية الاقتصادية والازدهار المادي وطغيان مجتمع الاستهلاك وبين تفاقم المآسي الاجتماعية واحتداد أزمات الاجيال الصاعدة ، وافتراق المبادىء والافعال وتناقض الاقوال مع الاعمال ٠

ويعترف ــ اليوم ــ رجال الثقافة وعــدد من العلمــاء بأنهم كلفوا العُلم فوق وسعه عندما طالبوه بالكشف عــن واقع الاشياء وضبــط أسبــاب الظواهــر ومسبباتهــا ، وطمحوا فوق ذلك في أن يكسبهم السعادة !

إن العلــم افســح مجــالات شاسعــة أمــام التقنيـــة والتكنولوجيا ؛ فتمكن الانسان من السيطرة على الطبيعة (بقطع النظر عن مضاعفات تلــوث المحيــط واستنفــاد المدخرات الطبيعية من مواد التغذية والماء ...) واكتسح الفضاء (من دون ان نثير هنا مسألة أولوية رصد الاموال الطائلة للوصول الى القمر مثلا بينما مــآت الملاييــن من البشر يهددهم الجوع والمرض ويبقيهم الجهل في منزلــة مزرية من الوجهة الانسانية التضامنية) ... ولكن هذا الانسان فشل ــ او كاد ــ في السيطرة على نفســه ، لان العلوم الانسانية ليست « صحيحة » مثل الفيزيا والكيميا والرياضيات ... ولأن الانسان تأكد اليوم ، أكثــر من أي وقت مضى ، أنه « جــرم صغير وفيه انطــوى العــالم الاكبر » ! ولان العديد من العلماء وذوي الضمائر اليقظة أدركوا منذ انفجار القنبلة الذرية على ارض هيروشيما (1945) ان التقدم العلمي وارتفاع مستــوى الانســان الاخلاقي ليسا متوازيين بالضرورة ! ...

لذلك أصبح من اوكد مشاغل العلماء ورجــال الفكــر ــ في العالم المتقدم خاصة ــ النظر في نتــائج التقــدم

العلمـي وتقييـم انعكاساتـه الاجتماعيـة والنفسانيـة و « الايكولـوجيـة » Conséquences écologiques وتحديـد مسؤولياتهم إزاء البشرية ٠

ولئن مال فرانسوا دي كلوزي (*) في كتابه الذي صدر منذ اسابيع قليلة بعنوان « والسعادة ايضا » الى ضرورة مواصلة منح العلم الثقة التامة لانه ينطوي على مدخرات عظيمة من « الخيال الخلاق » ، واعتبـر ان العلـم اهـدى الانسان « لعبا كثيرة ، فعليه اليوم ان يرفـه عن نفسـه بها » ، فان الذى نخشاه هو ان يتمادى الانسان فى مطالبة العلم بأكثر مما يطالب به نفسه ، فهذا الدكتور روبـر يونغ R. Yungk الالماني ، صاحب كتاب : « بدأ المستقبل بعد » le futur a déja commencé، والذي يعتبره شباب بلاده « استاذ الخيال ! » ، يكتب منذ ايام : « كما ان هيروشيما كانت نهاية عهد ، لانها بددت ثقتنا العمياء في تكنولوجيا بريئة تضمن التقدم ــ آليا ــ فكذلك أكتوبر 1973 ! (وما استتبعته أزمة الطاقة البترولية من مضاعفـات) ٠ إنـه مكننا من ادراك ما يشكوه التقدم المبنـي على الفتوحـات التكنولوجية والمادية وحدها من ضعف وقصور » ٠

وهكذا تتطور الافكـار ويثـوب الكثيـر من العلمـاء والمثقفين الى رشدهم ، بعد ان بلغ بهم الصلـف مبلغـه ،

(*) F. de Closets - le Bonheur en plus

وبعد ان دفعهم خيلاؤهم الى الكلف بالارقام وتقديس الآلة ، والخلط بين الذكاء وسلطان التكنولوجيا • وهكذا يتراجعون عن الاختصاص المتطرف الذي مزق الانسان وأقام بين مختلف جوانبه الحواجز السميكة فأضاع كنهه وتنكر لاشواقه الدفينة •

ولعل أبلغ ما طالعته في هذا الصدد كتاب صدر حديثا (1973) للعالم الفيلسوف « ألدوس هكسلى » بعنوان «القيان» les Call Girls ويقصد بهذه العبارة المشوقة العلماء الذين أصبحوا يتجولون بين عواصم الدنيا بعنوان المشاركة في الملتقيات الدراسية والمؤتمرات العلمية ، ويتباحثون من دون حوار حق ، أي من دون ان يتم بينهم الاتصال الحقيقي والتعاون المثمر ، فكل يتبرج بآخر ما اكتشف ، وكل يختال في محدث نظرياته ومغرب تخميناته ، وكل يحاول إغراء الآخر لايقاعه في حبال منطقه ! وكل قينة باختصاصها وخاصياتها معجبة ! • • •

ويقر ــ اليوم ــ عدد كبير من المفكرين بضرورة اكتشاف التسامح والتواضع من جديد والاعتراف بان المستقبل لا يمكن التكهن به في بساطة وسهولة ، بل إن هذا المستقبل قد يتجه اتجاهات مختلفة ويمر بمنعرجات متباينة ، قد تكون نهايتها السلام والوئام والازدهار وقد تكون الحرب والدمار والانحطاط ، وانه يتعين ــ بالتابع ــ الاتجاه للانسان بوصفه اول الحضارة وآخرها

وعلى أساس ان تغيير الانسان ما بنفسه ضروري لتغيير الاشياء ، ولتوجيه العالم المحيط بنا والمتفاعل معنا ، الوجهة المنسجمة مع ما نرتضيه من القيم العليا اساسا لحياتنا وما نعتبره منها قواما لحضارتنا وما نستنير به من انوارها للتثبت فى مسيرتنا نحو المستقبل الافضل ٠

ان الاصالة الحق لتتمثل ـ الى جانب التمسك بالجذور الحضارية التي ينتمي اليها الفرد والغيرة على المقومات التي يعتصم بها من غوائل الدهر ، في محاولة الفكر الحي تقييم النفس ومراجعتها باستمرار ، وتغذية المشاعر والاندفاعات بالرجوع الدائم الى صفاء النبع الانساني المتجدد ٠

وان اصالة المرء تحسس متواصل لمنزلته الفردية والجماعية ، وسعي الى التلاؤم مع الواقع والنضال الصادق للسيطرة عليه وللسمو به الى مستوى طموحه ٠

لان الانسان الحق الذي استخلفه الله في الارض وحمله الامانة فحملها يخضع كل شيء لارادته الحرة ولا يخضع هو لأي شيء ؛ أما ما عدا ذلك فهو تخاطب مع ٠٠ الصمت !

(I افريل 1974)

مسؤولية النخبة

عندما نتساءل هل الحضارة الانسانية مهددة بالتدهور والتلاشي وهل انسان الربع الاخير من القرن العشرين مصاب في الصميم ، ليس ذلك لاننا متشائمون فلسفيا ، فنحن من المؤمنين بسيادة الانسان على الكون ومن المقتنعين بقدرته العجيبة في تجاوز ذاته وتغيير منزلته وإعلاء شأنه اذا ما زكى النفس وصح منه العزم ، ولا نعبر فقط عن الحيرة الوجودية التي لا مناص للمفكر الاصيل من المرور بتجربتها المرة عندما يتأمل في متناقضاته ويتعمق معاني الموت ويتساءل عن كنه الحياة وسر المصير ...

بل ان التساؤل عن مآل حضارتنا سببه الاول ـ الى جانب الناحية الماورائية للمشكلة ـ تفاقم البون الفاصل بين الامم المتقدمة اقتصاديا التي لا تزال ثروتها في ازدياد

مطرد والامم المتخلفة التي تزداد فقـرا على فقـر بسبب تزايد سكانها المهول وعجزها عن السيطرة على مواردهـا الخام ـ ان كانت ـ واستغلال الاقوياء للضعفاء ، مما ردد صداه منذ ايام قلائل تقريـر رسمـي صدر عن البنـك الدولي للتنمية ، وما اكدته اشغال الـدورة الاستثنائيـة للامم المتحدة ·

اما السبب الثاني فهو ادراكنا العميـق لـدى بـؤس الانسان امام ارتفاع مستوى حياته المادية وما يبدو من عجزه عن الرجوع الى ضميره لمغالبة الانانية واقرار الخير وتأكيد التضامن ومواجهة التلوث بكل معانيه ، مما أصبح يردد صداه نخبة من الكتاب واهل الرأى ممن لا يزالون يحتفظون ببقية من وضوح رؤية ونبل خلـق وشجاعـة ادبية ؛ أما جمهـور النـاس المكيفيـن بوسائـل الاعـلام التجارية وثرثرة الديماغوجيين وفئة ضالة من الكتـاب المرتزقة فانهم ما ضون في هرولتهم نحو غاية سراب ، في غفلة من واقعهم المر ومآلهم المجهول ·

ومن واجبنا ان نسوق للتدليل على ذلك نماذج ممايتشر في البلاد الاوروبية ، حتى يفكر في الامر بعض اخواننا في بلادنا وفي البلاد الشقيقة ، ممن بهرتهـم مجتمعـات الاستهلاك ، فاعلوها وجعلوها مثالا لهم ومرجعا من دون أن يتعمقوا واقع اليوم ويتحرروا من أعباء معطيات الامس التي تجاوزها التطور السريع ، ويتعرفوا الى اعـراض الازمة الحضارية الخانقة التي أصبحـت تعيشهـا تلـك

البلدان فيأخذوا أسباب القوة ويجتنبوا أسباب الضعف ومن أهمها تضاؤل العقيدة واهمال القيم الاخلاقية وتداعي شؤون التربية ...

فهذه جمعية « بلادنا إيطاليا » Italia Nostra تنشر منذ آسابيع دراسة في 170 صفحة عن ظروف الحياة برومة فتؤكد ان هذه الحياة لم يطرأ عليها تغيير يذكر منذ 19 قرنا ، وأن عدد الاصابات بالحمى التيفويدية يتجاوز بالمدينة الخالدة عددها بكامل تراب الولايات المتحدة وانه من بين طفلين يوجد طفل مصاب بتأخر في النمو البدني من اثر انعدام المساحات الخضراء وان 50.000 من بين سكان رومة يعيشون في أقبية او في مآو غير مناسبة وان درجة التلوث برومة تبلغ عشرة اضعاف الحد الاقصى القانوني وان كميات المياه الصالحة للشراب التي تصل الى رومة تبلغ نصف ما كان في تصرفها في عهد الامبراطور أغسطس Auguste .

وهذا السيد روني لينوار René Lenoir مدير العمل الاجتماعي بوزارة الصحة العمومية ومدير الحيطة الاجتماعية بفرنسا (وهو بهذا الوصف لا يحلم ولا يبالغ ولا ينتمي الى الرافضة ! او الى الفوضويين !!) ينشر كتابا منذ حوالي ثلاثة أشهر بعنوان « المطرودون » Les Exclus ويحاول في شجاعة المفكر ورصانة المسؤول تحديد المعالم الصحيحة للوجه الخلفي لفرنسا ، دون الاكتفاء بفرنسا الرسمية الراضية عن نفسها ، ويصف

البؤس والقلق ومظاهر الحياة الهامشيــة التي يستتشــف تكونها من وراء « المــدن المراقــد » Cités dortoirs ، ومن خلال ازدحام مرابض السيارات ، والمدن التي تقضي على كيانها السيارات بجلبتها وتكاثرهــا وعزلــة الضواحــي النائية والعائلات المشتتة والشيوخ المهمليــن والتمييــز العنصري الناتجة كلها عن القطيعة بين محــل السكنــى ومقر العمل ٠

ويوضح الكاتب ان الاحصائيات تدل على ان فرنسيــا لعشــرة (اذا اعتمدنــا انعــدام المؤالفــة الاجتماعيــة inadaptation sociale) أو لخمسة (اذا أضفنا معيار التدهور البدني والعقلي débilité physique et sociale) ينتمــي الى جمهور المطرودين الذين لفظهم مجتمع الاستهلاك جملة او تفصيلا ٠

وتعلق جريدة « لومند » Le Monde الفرنسية المشهورة قائلــة : « وهذه لعمــري ملاحظــات مفزعة في هولهــا لانها صادرة عن مصدر رسمي موثوق به » (عدد 29 ــ I ــ 1974) ٠

وإزاء هذه الازمة المتعددة المظاهر والتي لا ينجو منها احد لان الجميع في مركب واحد ، ومصيرهــم واحــد ، نتوجه مرة اخــرى الى كبــار المسؤوليــن في السياســة والاقتصاد والى العلماء ورجال الفكر في العالم لنحملهم مسؤولياتهم كاملة لاننا نؤمن بضرورة الاعلان عن تحد جديد ، يساوي في « جنونه » تحدي الفضاء والتطــاول

على القمر ، وهو العمل من اجل بقاء الجنس البشري la survie de l'homme وحياة الروح والعاطفة والتسامح والتآخي ، لا حياة المادة والقهر والتسخير والتوتر والاستغلال الفردي والجماعي .

وفي هذا المقام نعتبر ان مسؤولية النخبة عظيمة فاذا كانت مجرد صدى يردد الحاجات والنزوات والاهواء حلت الكارثة اذ المجتمعات شأنها شأن السمك ، لا يتطرق اليها الفساد الا من الرأس ! واذا كانت المصباح الهادى والصوت الموجه وقعت المعجزة وتم الصلح بين الانسان وبين نفسه ودخلت الانسانية في عهد جديد مشرق الانوار .

ولنتمعن في قول برنانوس Bernanos : « **اذا كان مكتوبا لجنسنا البشري الفناء فانه سيفنى من وطأة الملل والسآمة ؛ والانسان في كل ذلك كالعارضة تنخرها شيئا فشيئا جراثيم خفية ، وسيبقى عالم الاخلاق متحدثا عن الانفعالات النفسية ورجل الدولة مكثرا من قوى الامن والموظفين والمربي معدا لبرامج التعليم .. الا ان كل ذلك سيكون بمثابة كنوز تنفق سدى في معالجة عجين أصبح خلوا من الخميرة (*)** » .

(I ماى 1974)

● « Si notre espèce doit périr, elle périra de dégout, d'ennui. La personne humaine aura été lentement rongée, comme une poutre, par des champignons invisibles — Et le moraliste dissertera des passions, l'homme d'état multipliera les gendarmes et les fonctionnaires, le pédagogue redigera des programmes. On gaspillera des trésors pour travailler inutilement une pâte désormais sans levain » .
Bernanos

العبرة من عيد النصر

في مثل هذا اليوم ــ غرة جوان ــ منذ تسعة عشر عاما عاد الى ارض الوطن مظفرا الرئيس الحبيب بورقيبة بعد سنوات طوال قضاها في السجون والمنافي الفرنسية فكان ذلك تتويجا لجهاد طويل ورمز نجاح لخطة كفاحية سديدة وقيادة سياسية موفقة ، وكان ذلك كذلك جزاء عادلا ونصرا مبينا لصمود الجماهير الشعبية بالبلاد التونسية وتضحياتها الجسيمة واضطلاعها الواعي الناضج بتبعات مصيرها ٠

عندما تخلص الشعب من التواكل الألكن وقهر الخوف الاعمى وتحدى اليأس الابكم فآمن بالفعل الحاسم واضطلع بالمسؤولية الواعية واقدم على ان يصنع تاريخه بنفسه ، تفجرت طاقاته الكامنة فكسرت الاصفاد وأرست كيان

الامة وفرضته كأسطع وأقوى ما يكون ، فتلاشت خرافة الاستعمار الذي اوهمه خيلاؤه وأوحت له غطرسته بأن يقيم صرح امبراطوريته على أنقاض الشعوب التي تحالف عليها الناس والزمان لانها سهت عن امرها ونامت على صدى ما بنته من امجاد ٠

وعندما دخل الشعب فى محنتـه الثالثة (*) فجر 18 جانفي 1952 اذ القت السلط الاستعمارية القبض على رئيس الحزب المجاهد الاكبر الحبيب بورقيبة ، كانت تونس تواجه وحدها العملاق الفرنسي بل كانت تتحدى بمفردها الاستعمار في افريقيا قاطبة واستطاعت مع ذلك مناوءته ومغالبته حتى اضطر الى الاعتراف بسيادة البلاد التونسية والاعلان عن استقلالها ، فانفتح الباب في وجه معظم الشعوب الافريقية وتحرك بذلك التاريخ حركة سريعة في اتجاه التحرر من العبودية والانطلاق نحو القيم الانسانية العليا ٠

وان تحرر الجزء الاكبر من القارة السمراء منذ حوالي 15 سنة قد شد من آزر الشعوب الافريقية الخاضعة للهيمنة البرتغالية (**) فصمدت بدورها في الكفاح وثابرت ولم تبال بوحشية القمع والتشريد والتقتيل حتى انهار الحكم

(*) المحنة الاولى كانت يوم 3 سبتمبر 1934 ، والثانية يوم 9 أفريل 1938 ٠

(**) وهي غينيا بيساو ، وأنقولا ، والموزمبيك ٠

الفاشي الذي اقامه الطاغية سالازار منذ أربعين عاما تقريبا وحل حكم ـ يبدو ـ أكثر تفتحا على مقتضيات العصر اذ أعلن عزمه على منح هذه البلدان استقلالها • وتبقى افريقيا الجنوبية وروديزيا تحاولان وقف التيار التحرري وتأخير المحتوم الى ان تنزل عليهما الضربة الحاسمة ويثأر الحق لنفسه منهما •

وهاهى اسرائيل ـ هي الاخرى ـ لا تزال تؤمن بالمستحيل ، فتتمسك بقانون القوة ولا تعبأ بقوة القانون ، تتصامم عن نداءات الضمير العالمي وتتجاهل حقيقة الشعب الفلسطيني المسلوب وطنه ، المداسة كرامته ، وتتحدى كل المبادىء الانسانية التى أقام عليها العالم المتحضر أسس حضارته ، فلا تتردد فى تصعيد حرب الابادة ضد الشعب الفلسطيني ولا تتورع عن أن تمطر القرى العربية والمخيمات بوابل رصاصها وتهدي مئات الاطفال اللعب القاتلة والحلوى المسمومة وتفتك بالشيوخ والنساء ، كما فعلت مؤخرا في مخيم النبطية وعين الحلوة وصيدا وضواحي بيروت ••• متناسية ان ارادة الشعوب لا تدمر ، بل ان التضحيات والمحن تجعلها أشد صلابة وأطول نفسا واكثر تجلدا واقدر على رد الفعل •

وان العبرة التى تستخلص ـ بمناسبة عيد النصر ـ من الثورة التونسية المظفرة والثورة الجزائرية المباركة

وتحرر معظم شعوب افريقيا وآسيا ، والتحول الحاسم الذى طرأ فى مستوى العقليات والنفسيات وباعتبار ميزان القوى فى الشرق الاوسط ، بعد ملحمة العبور ومعارك الجولان ، وتصاعد الثورة الفلسطينية الباسلة التى أخذت تقض مضاجع الصهاينة وتسفه احلامهم وتفضح غطرستهم الحاقدة ، هي ان العنف ضروري عندما يكون الصراع من أجل الوجود ! وشرعي عندما يغالب عنفا مسخرا لدعم الاستعمار الصهيوني ، استيطانا وايديولوجيا واقتصاديا وثقافيا ••• والعنف حق ايضا عندما يواجه حربا إبادية ، وأخلاقا غابوية ، انكشفت طبيعتها النازية منذ مأساة دير ياسين خاصة ! •••

ان العنف من اجل القضية العادلة ، اذا ما سخرته الزعامة المخلصة للمبادىء والوفية لمطامح الجماهير الشرعية ، يؤثر فى الواقع الاستعماري ويضعضع أركانه ويأتي على معنويات مرتزقته ويخلق بذلك حركية جديدة تؤول حتما الى دحر قوى الظلم والامبريالية ولو بعد أمد طويل وتضحيات جسام •

فالاستعمار الفرنسي والانقليزي لم يتقهقر الا عندما أقلعت الشعوب عن الكفاح الافلاطوني والمطالبة « المعقولة » والرصينة والاعتماد على « ضمير الطرف المقابل » وظهر زعماء افذاذ جمعوا بين نور العقل

وصرامة التحليل وحرارة الايمان وبين العمل الشجاع الذي يعرف كيف يجند الجماهير وينظم صفوفها ويقود نضالها الدامي بحكمة وشجاعة ٠

ولقد باركنا الثورة الفلسطينية منذ ظهورها عندما اعتمدت على طاقات الشعب الفلسطيني ورفضت شتى أنواع الوصايات ، ونحن اليوم نستوحي من عيد النصر وملحمة النضال التونسي الذي اطاح بالاستعمار الفرنسي بعد 75 سنة من الاحتلال ، معاني التفاؤل بمآل المعركة الضروس التي يخوضها إخواننا الفلسطينيون ، ونحييهم بهذه الباقة من القصائد والقصص المستوحاة من تمردهم على منزلتهم المفروضة وكفاحهم المستميت من أجل الحياة الحرة الكريمة ، والايمان بأنهم أخذوا يعيشون تلك الايام الممتازة ، المكثفة بالطاقات والامكانيات ، تلك التي يقول عنها ماركس : « في التطورات التاريخية الكبرى ليست عشرون سنة اكثر من يوم واحد ، مع انه قد تأتي فيما بعد أيام تضم في أحشائها عشرين سنة ! »

ان مآل الاستعمار الصهيوني الاندحار والانحسار لا محالة ، لان الذي يغالب الحق ويتطاول على ارادة الشعوب عندما تستهدف الحياة الحق مثله كمثل من ينهش الصخر بأسنانه ٠

وان من يطالع كتاب « ج • ك • ڤيبو » (*) الذي ظهر منذ اسابيع قليلة بعنوان « ايام اسرائيل المزعجة » لن يشك في ان الكيان الصهيوني دخل مرحلة « التخبطات » وتعرت متناقضاته الايديولوجية وعمت الحيرة شبابه ومثقفيه وحتى قادته العسكريين فأخذوا ينشرون غسيلهم على الملأ ، وانكشفت للعالم سوءاته ، وكأن المستقبل انسد أمامه •

فليتصلب حكامه « التاريخيون » وليعبوا من نشوة غرورهم حتى الثمالة ، او فليغرسوا رؤوسهم في الرمال حتى لا يبصروا هول غدهم ولا يسمعوا انشودة الجماهير الزاحفة ، فلن يكونوا أوفر حظا ولا أطول عمرا من هتلر أو سالازار ••• وسيفرض التعايش العادل الحر نفسه بين كافة اهل الكتاب وبني الاعمام في أرض فلسطين الحرة العزيزة المقدسة وسيرفرف علم الاخوة والتسامح والصداقة على ربى القدس •

تلك إرادة الفلسطينيين وكافة العرب وكل الاحرار فى العالم وهى منبثقة من مشيئة الله ومشيئة الله لا تغلب ، ولكم في غرة جوان ، عيد النصر ، أحسن رمز وأفضل عبرة !

(I جوان 1974)

(*) Jean Claude Guillebaud. Les jours terribles d'Israël .Le Seuil

بمناسبة السنة العالمية للسكان

عندما تضطرنا الاحداث او الحوادث التي تجد في عالم الناس الى تسليط الاضواء الكاشفة على المعطيات الاجتماعية او الثقافية او التعمق في بعض القضايا الايديولوجية ، والتنبيه ــ احيانا ــ الى ما يهدد البشرية في كرامتها او حتى في كيانها ، لا ننزع منزع التشاؤم الأقتم ولا نسلك سبل التهويل السهلة والمجانية ، وانما نسعى دائما الى التقيد بالواقع الصارم ، وننطلق منه لاثارة احساس اخواننا في الانسانية بخطورة القضايا المطروحة ، وإيقاظ هممهم ، وإثارة مكامن ارادتهم ، ودفعهم الى تحمل مسؤولياتهم ، لاننا مؤمنون بالانسانية وبقدرتها على تجاوز متناقضاتها والتغلب على أزمتها ، ومتفائلون ، تفاؤلا متبصرا يقظا ، بمستقبلها ، ولاننا نعتقد ان الحياة نضال ، وان قيمة البشر في مدى قدرتهم

على تغيير ما بهم ، والتخلص من اوهامهم ، والتلاؤم مع ما يفرضه العصر ، وتمليه الحقائق الملموسة ، وكذلك في عمق صدقهم وجهدهم ، وتوتر ذهنهم بحيث يقدرون على تتويج كفاحهم الذاتي وكفاحهم داخل محيطهم الطبيعي والاجتماعي بما يرضي الضمير ويشهد بعظمة الانسان الذي استخلفه الله في هذه الارض وكلفه تكليفا ·

وان من بين الكوارث الكبرى التي تهدد البشرية تزايد السكان بحوالي ثمانين مليونا من الافراد في السنة اي بمعدل 200 ألف مولود جديد كل يوم مما سيؤول في السنوات الخمس والعشرين القادمة الى ان يرتفع سكان العالم من 4 الى 7 مليارات ، في وقت انخفضت فيه المنتوجات الزراعية وارتفعت اثمانها وكثرت المجاعات واخذ القحط يهدد الملايين في عدد من بلدان افريقيا الساحلية ، والمرض يفتك بمئات الآلاف ، والأمية يستفحل أمرها في آسيا وافريقيا اذ ارتفع عدد الأميين في السنوات الاخيرة ، رغم ما لا يزال يبذل من تضحيات مالية وبشرية في هذا الميدان ورغم ما سجل من تقدم ، من 700 الى 783 مليون نسمة ·

والى جانب عدد كبير من العلماء والمفكرين الذين ما فتئوا يطلقون صيحات الانذار في جل عواصم الدنيا ، فان هيئة الامم المتحدة شرعت في القيام بحملة واسعة

النطاق من اجل ضبط سياسة عمرانية يؤمل ان تخفف من وطأة هذه المعضلة فقررت ان تكون هذه السنة ـ اي سنة 1974 ـ السنة العالمية للعمران البشري ، وسينعقد في هذا الشهر ببوخارست ، عاصمة رومانيا ، مؤتمر دولي لهذا الغرض ٠

وقد التأم بتونس فيما بين 17 و22 جوان الماضي ملتقى دولي درس العلاقة بين القانون والنمو السكاني ، فأبرز المساهمون فيه ان للقانون وظيفة فعالة في تنظيم الاسرة والحد من خطورة التزايد العمراني ونوهوا بما حققته الجمهورية التونسية من مكاسب في هذا الميدان اذ تعتبر مجلة الاحوال الشخصية ، التي صدرت غداة الاستقلال في 13 اوت 1956 ، أي بعد أربعة أشهر فقط من تأليف الرئيس الحبيب بورقيبة لاول حكومة ، ثورة بحق ووثيقة تحرير وتحرر بالنسبة للمرأة التونسية ٠

وان العقل الفاتح والاجتهاد المخلص والخيال الخلاق والشجاعة الادبية التي تتقيد بالمصلحة العامة ولا تراعي اي اعتبار آخر ، هي التي ساعدت على قطع خطوات جبارة في طريق التحرر من رواسب المعتقدات الخاطئة الآسنة والعادات البالية المؤذية واعانت على اللحاق بالعصر دون تفريط في روح الاسلام الحنيف ولا زيغ عن أصوله السمحة ، بل بالرجوع الى نبعه الصافي واستيحاء مقاصده السامية ٠

وكذلك قانون الاجهاض وكل الاجراءات القانونية والادارية الاخرى التي تسهل ترويج المواد الواقية من الحمل او تساعد على التعقيم الوقتي او النهائي ، فهي انما صدرت عن عزيمة السيطرة على النمو السكاني في هذه البلاد ، لاننا اقتنعنا بان مجهود التنمية لن يأتي بكل الثمرات المرجوة اذا وازاه التزايد الحالي في النسل ، وان العبرة ليست في الكم بل في الكيف لان رجلا كألف وألفا كأف ، ولان المباهاة بالمسلمين يوم القيامة وفي دنيا الناس لن تكون اذا كانوا قوما حفاة عراة جائعين أميين ، بل اذا توفر لهم القدر الادنى من رغد العيش ونور العلم وامكن لهم الشغل الكريم والاطمئنان على المصير .

ولن تقوم لنا قائمة ، مهما زادت الموارد ومهما عظمت ثروات البترول ، ما لم ندرك حقيقة بديهية لكنها ظلت — ولا تزال احيانا — محجوبة عن بعض الابصار والبصائر بحجاب القضاء والقدر او الجهل والصلف ... وهي ان النهضة والازدهار والقوة الاجتماعية والمناعة السياسية تنطلق اساسا من سلامة العائلة وتوازنها وتآلف افرادها ، وانه لا سعادة لهذه العائلة ولا وئام ولا استقرار مالم يدرك الابوان تبعات منزلتهما وخطورة مسؤوليتهما ، وما لم يقدرا على التحكم في شؤونهما ويعرفا العلاقة بين السبب والمسبب ، فيقررا عدد الاطفال الذي يمكنهما انجابهم والظرف الذي يحسن ايلادهم فيه .

ثم هل يمكن أن نغفل عن حقيقة اخرى وهي ان الامر يتجاوز مجرد التوازي بين السكان والانتاج وانه اذا لم يوجد في العائلة المناخ النفساني والتربوي الملائم فانه هيهات ان تنمو كل مدارك الطفل العقلية والشعورية وان تزدهر ملكاته وتزكو ؛ وهيهات ان يتطور المجتمع ويستشرف مستوى الحضارة الحق ٠

لذلك وجب علينا معشر العرب والمسلمين ـ وابناء العالم الثالث عامة ـ ان نضع هذه القضية المصيرية في إطارها الحقيقي ونفهم ان مفتاح الحل بأيدينا ، أي أنه علينا ان نغير ما بأنفسنا حتى يغير الله ما بنا ، فننظر للأشياء نظرة جديدة ونواجه الواقع بكل جرأة وصدق ٠

فاما ان نضع المسألة كما يجب ان توضع ونعمل على رفع كل الحواجز التي تحول دون سيطرة الجماهير على مصيرها في المستوى الفردي او العائلي او الاجتماعي عامة ، سواء كانت هذه الحواجز ايديولوجية او نفسانية ، او ثقافية او اقتصادية ٠٠٠ او ان نترك الامور تسير سيرا فوضويا فتكون الكارثة ويصبح عدد السكان سنة 2000 حوالى 7 مليارات لا من البشر بل في الواقع من الحشرات كما تنبأ بذلك احد علماء العمران البشري مع ما ينجر عن هذه الظاهرة من احقاد واضطرابات وحروب ٠

وقد يبدو للبعض ان الداء استفحل وان النصر صعب يكاد يكون ميؤوسا منه والجواب أن طاقة الانسان لا حد لها فهو الذي تحدى بالامس القمر وكسب الرهان ، وفي مقدوره اليوم ان يتحدى هذا السرطان الفتاك الذي يهدد كيانه في هذا الكـون وان يستنبط الطـرق والوسائـل الكفيلة بجعل الحيـاة بين البشـر ممكنـة ، بل رغـدة ، وجميلة ، بعد سنة 2000 ٠

والطريق طويلة لامحالة ؛ ولكن ألم يقل ماوتسي تونغ : « إن قطـع مسـافة 1000 كلـم يبـدأ دائمـا بخطـوة متواضعة ؟ » ٠

(1 جويلية 1974)

الفهرست

كتب صدرت للمؤلف

- الديمقراطيـــة (1955)
- من وحي الفكر (1969)
- مواقـــف (1973)
- دراسات (1974)
- وجهـــات نظـــر (1975)
- في دروب الفكر (1979)
- الحركة الأولمبية والتربية (في أربع لغـات) (1979)
- **حديث الفعـل** (طبعة باللغة الفرنسية 1984)

ترجمـــــة :

(بمشاركة الأستاذ البشير بن سلامة) لكتاب

- تاريخ شمال افريقيا الجزء الأول (1968)
- تاريخ شمال افريقيا الجزء الثاني (1979)

وكتاب المعمرون الفرنسيون والشباب التونسي (1972)
من تأليف : شارل اندري جوليـــان .

طبع بمصنع الكتاب
للشركة التونسية للتوزيع

أفريل 1984